
دينو بوتزاتي
صحراء
التتار
ترجمها عن الايطالية
معن مصطفى الحسون
للنشر
الإلكتروني

صحراء التتار

دينو بوتزاتي

روايـــــة

ترجمها عن الايطالية

معن مصطفــى الحســـــون

العنوان الأصلي للكتاب
IL DESERTO DEI TARTARI
لمؤلفه
DINO BUZZATI

عن دار نشر
ARNOLDO MONDADORI
EDITORE

- صحراء التتار
- رواية
- دينو بوتزاتي
- ترجمها عن الايطالية معن مصطفى الحسون

الناشر الورقي

دار عبد المنعم ناشرون

مؤسسة ثقافية تعنى بنشر الأدب والفكر والعلوم العربية والعالمية

حلب – سورية – شارع القوتلي ص.ب 6567 –

تلفاكس 2214512

الناشر الالكتروني



بتصريح من دار النشر

اهداء

إلى الشاعر الغالي عبد اللطيف خطاب " غرنوقاً دنفاً "

كل ما لا أستطيع أن أقدمه لك وأنت معي فدعني أبتعد وأقول

معـــــــــن

بعد أن سُمِّيَ جوفاني دروغو ضابطاً، غادر المدينة في صباح أحد أيام أيلول للالتحاق بحصن ـ باستياني ـ الذي جاء تعينه الأول فيه نهض باكراً و كان الليل ما يزال جاثماً، ارتدى في البداية بزة الملازم المخصصة له، لكن، و تحت ضوء قنديلٍ حدّق في المرآة مليّاً، فلم يشعر بالغِبطة التي كان يتوقعها .

السكون مخيّمٌ في أرجاء المنزل، ومع ذلك كان يمكن سماع بعض القرقعة القادمة من الغرفة المجاورة، إنها أمه، وهاهي ذي تستيقظ لوداعه .

لطالما انتظر هذا اليوم، إنه بمقام جوهرٍ لحياته الحقيقية، فكّر بتلك الأيام الكئيبة التي قضاها في الأكاديمية العسكرية، الليالي المرة التي كان يمضيها في الدراسة، على حين كان يتناهى إلى سمعه أصوات الناس و هي تعبر الشارع حرة وسعيدة كما هو مفترض، الاستيقاظ صباحاً في المهاجع المتجمدة حيث ينبجس فيها الكابوس العقابي، تذكر معاناة الأيام التي كان يعدها يوماً بعد آخر والتي بدت وكأن لا نهاية لها .

وأخيراً هاهو الآن ضابط، لن تستهلكه الكتب بعد اليوم، ولن يهاب صوت العريف، حتى هذا مرّ الآن، كل تلك الأيام ـ و التي بدت له مثيرة للكراهية ـ قد انقضت للأبد، شهور و سنون لن تتكرر ـ حسبما هو مفترض ـ أبداً أجل، إنه الآن ضابط، ربما حصل على بعض النقود، و من الجائز أن تنظر إليه منذ اليوم النساء الجميلات، و لكن في العمق، تنبه جوفاني دروغو إلى أن الوقت الذي كان يمكن أن يناسب شعوراً كهذا هو زمن الصبا الأول، و الذي ربما يكون قد انقضى الآن .

هكذا لمح دروغو، و هو مثبتاً نظره في المرآة، ابتسامة مجهدة ترتسم على محيّاه، ابتسامة بحث عنها عبثاً فترة طويلة من الزمن .

ما هو ذلك الشيء الخالي من المعنى ؟ لماذا لم يكن قادراً على رسم ابتسامة غير مبالية لازمة وضرورية حين كان يودع أمه ؟

حتى فيما يتعلق بنصائحها، لم يكن قادراً على التمعن فيها قليلاً بل اكتفى على عكس ذلك بالإنصات إلى صوتها بشكل أليف وإنساني.

لمَ كان يتجول في أرجاء الغرفة وقد اعتراه توتر عصبي لا نهائي دون أن يتمكن من العثور على ساعة يده، سوطه الصغير،وعلى قبعته مع أن كل هذه الأشياء كانت ما تزال مركونة في أماكنها المعتادة ؟

بالتأكيد لم يكن ذاهباًإلى الحرب، كثيرون هم من الرتبة نفسها عشرات منهم مثله، رفاقه القدامى، كلهم يغادرون منازل ذويهم في هذه الساعة بالذات وهم يشعرون بغِبطة واضحة كما لو أنهم يذهبون إلى حفل .

لماذا لم تخرج من فمه بينما كان يحادث أمه سوى كلمات خالية من أي معنى بدلاً من أن يفضي إليها بعبارات رقيقة وهادئة ؟ بالطبع مرارة مغادرة منزل الأهل للمرة الأولى،حيث ولدت كل الأحلام، الرعب الذي يحمله في طياته أي تغير في نمط الحياة، الانفعال الذي تثيره تحية الأم، أجل، كل هذا كان يملا الروح، ولكن إضافة إلى كل هذا، كان ثمة فكرة ما تزيد الطين بلة، فكرة لم يكن قادراً على تحديد كنهها، كأن ثمة هاجساً غامضاً لأشياء قدرية ومحتومة، تماماً كما لو أنه يغادر الآن إلى غير رجعة.

رافقه صديقه فرنشيسكو فسكوفي ممتطيا صهوة جواده حتى بداية الطريق، ضجة الحيوانات كانت تدوي في الطريق الخالية،إنها لحظة الشفق الأول،المدينة ما تزال غارقة في النوم، هنا وهناك، وفي الطوابق العليا نوافذ تفتح للتو، فتظهر وجوه مجهدة وعيون خاملة تحدّق في اللحظة التي تولد فيها الشمس الرائعة .

كان الصديقان صامتين، دروغو يفكر كيف يمكن أن يكون حصن باستياني لكنه لم يفلح في تكوين أي تصور عنه، لم يكن يعرف حتى مكان وجوده، ولا كم

من المسافة الواجب عليه أن يقطعها قبل أن يصل إليه، بعضهم قال إنّ الأمر يتطلب يوماً واحداً على ظهر جواد وبعضهم قال أقل من ذلك، في الحقيقة لم يحدث أن حضر أي منهم هناك، عند بوابة المدينة بدأ فيسكوفي الحديث بحيوية وتدفق عن أشياء متعددة، كما لو أن دروغو يذهب في نزهة، ثم وفي لحظة ما، قال فيسكوفي :

ـ هل ترى ذلك الجبل المعشوشب ؟ أجل، ذلك الجبل، ألا ترى في قمته بناءً ما ؟ أجل، إنه جزء من الغابة، مخفر متقدم، لقد مررت من هناك منذ سنين كنت بصحبة عمي في رحلة صيد .

كانا قد غادرا المدينة، وهما يعبران حقول الذرة الصفراء، المروج، الغابات الخريفية الحمراء، الطريق البيضاء التي يغمرها ضياء الشمس.

تقدم الإثنان الواحد إلى جانب الآخر، جوفاني وفرانشيسكو كانا صديقين حميمين عاشا معاً فترة طويلة من الزمن مع وهما يحسان بالمودة نفسها والصداقة نفسها، إذ يلتقيان كل يوم، ثم تحول فيسكوفي إلى بدين على حين غدا دروغو ضابطاً .

والآن بدأ جوفاني يشعر كما لو أن الآخر بعيد عنه جداً،لم تعد الحياة السهلة والأنيقة تمت إليه بصلة، أشياء رهيبة وغامضة كان يبدو أنها بانتظاره .

جواده وجواد فرانشيسكو ـ كما كان يبدو ـ لم يكونا يسيران جنباً إلى جنب، أحدهما كان يصدر قرقعة على حين كان جواده أقل حيوية وخفة كما لو أنه في الحقيقة يعاني من القلق والتعب، بدا وكأن البهيمة تحس أن ثمة تغييراً كبيراً في الحياة .

كانا قد وصلا إلى طريق صاعدة التفت دروغو بنظره محدقاً في المدينة بعكس اتجاه الضوء، دخان صباحي كان يتصاعد من أعلى السطوح،من بعيد، استطاع أن يلاحظ منزله محدداً بالضبط نافذة غرفته .

من الجائز أن درفة النافذة كانت مفتوحة والآن قد تدخل النسوة ليرتبن كل شيء وربما نكشن السرير، ثم يحكمن سدّ النوافذ فمنذ شهور وشهور لم يدخل أحد غرفته باستثناء الغبار، وفي الأيام المشمسة كانت هناك آثار لضوء ما.

الآن يحبس مرة أخرى في الظلام، العالم الصغير لطفولته، ربما حفظت والدته كل شيء إلى حين عودته، ذلك لأنه هنا فقط يستطيع أن يبقى طفلاً حتى بعد الغياب الطويل .

آه، من المؤكد أنها تستطيع أن تخدع نفسها بالحفاظ على سعادة انقضت إلى الأبد، القبض على الزمن الهارب، الذي يشرّع الأبواب والنوافذ في وجه الفتى العائد، هكذا قد تعود الأشياء إلى سابق عهدها، هنا حيّاه الصديق فيسكوفي بحرارة شديدة، على حين تابع دروغو السير وحيداً في الطريق وهو يقترب من الجبال، وعندما وصل إلى مدخل الوادي الذي يقود إلى الغابة غدت الشمس أكثر حدّة، إلى اليمين وعلى قمة إحدى الهضاب، كان يمكن رؤية المخفر الذي أشار إليه فيسكوفي،لا يبدو أن هناك طريقاً طويلة يجب عليه قطعها .

كان دروغو قلقاً من الوصول، لذا لم يتوقف حتى ليصيب شيئاً من الطعام وأخذ يحث الجواد الذي بدا منهكاً من الطريق التي غدت أكثر وعورة وملاصقةً لأطراف الجبل شديد الانحدار، كان من النادر أن يلتقي بأحد ولما لاقى جوفاني حمالاً يجر عربته، سأله كم من الوقت بقي لكي يصل إلى الحصن ؟

تساءل الرجل :

ـ الحصن ! أي حصن ؟

ـ رد دروغو :

ـ حصن باستياني .

قال الحمّال :

ـ لا يوجد أي حصن في كل هذه المنطقة، لم يسبق لي أن سمعت بشيء كهذا

.

من الجلي أن معلوماته كانت ضحلة، لذا فإن دروغو، واصل المسير إلا أنه بدأ يشعر رويداً رويداً بنوع من الجزع الخفيف . وأخذت الظهيرة تحل لذا فقد أخذ يتفحص القمم العالية للوادي علّه يجد الحصن،تخيّل وجود قلعة قديمة ذات أسوار تثير فيه نوعاً من الدُوار، الساعات تمر وقد بدأت تترسخ في مخيلته أن فرنشيسكو قد أعطاه معلومات خاطئة فالمخفر الذي أشار إليه لابد أنه أصبح خلفه، هبط المساء،انظروا إليه،جوفاني دروغو وجواده كم يبدوان ضئيلين مقارنة بالجبال التي بدت أكثر ضخامة ووحشية هاهو ذا يتابع المسير لكي يلحق بالحصن عند الصباح في العمق بدأ يدوي صوت تيار هادر، أكثر رشاقة منه و بدأت الظلال تتصاعد إلى حد أنها وصلت في لحظة ما إلى مستوى دروغو، للمنحدر المحاذي له، أخذت تبدو للحظة ما أنها تبطئ من سيرها كأنها لم تكن ترغب في إخماد نار حماسه ثم أخذت تهبط نحو الوهدة والصخور و بقي الفارس في الأسفل، كل الوادي الضيق و الوعر كان مملوءً بظلمة بنفسجية اللون، عدا بعض القمم المعشوشبة ذات الارتفاع الهائل فقد كانت مضاءة بفعل الشمس .

عندها وجد دروغو نفسه فجأة بمواجهة شيء ما.

أسود و هائل الضخامة يناطح سماء المساء الصافية ؟ إنه مبنى عسكري، وقد بدا قديما و متصحرا، بدا جوفاني يشعر بخفقان قلبه ذلك إن هذا يجب أن يكون هو الحصن، ولكن كل شيء من السور وحتى البلدة كان يحمل في طياته مسحة من الشؤم وقلة الضيافة .

دار حوله دون أن يعرف المدخل فكل شيء كان معتماً، ولم تكن هناك أي نافذة مضاءة، لكنه لمح بصيص ضوء يلمع من كشك حارس عند حافة السور، كما لاح له خفاش يتأرجح تحت غمامة بيضاء فحاول دروغو أن يصرخ أخيراً :

ـ هيه . . . ألا يوجد أحد هنا ؟

ومن الظل المتكوم عند أقدام الجدار برز رجل أشبه بصعلوك فقير ذو لحية رمادية، حاملاً بيده كيساً، لكنه لم يكن من اليسير تمييزه بين هذه الظلال فقط بياض عينيه كان مشعاً، نظر إليه دروغو باستغراب،

سأله الرجل :

ـ عمّن تبحث أيها السيد ؟

ـ أبحث عن الحصن، أليس هذا هو ؟

رد الرجل الغامض بنبرة طيبة و محببة :

ـ لم يعد هنا أي حصن، كل شيء مغلق، لا يوجد أحد هنا منذ عشر سنين .

سأله دروغو وقد اعتراه شعور عدائي ضد الرجل :

ـ إذاً أين هو الحصن ؟

ـ أي حصن ؟ من الجائز أنه هذا .

قال الرجل الغامض هذا و هو يشير إلى جهة ما .

من كوة تطل من الصخور القريبة، غارقة في العتمة، خلف منعرج غير منتظم نحو القمة،وعلى بعد لا يمكن تخمينه، مازال غارقا في احمرار شمس الغروب، كأنه مخرج سحري لاح لجوفاني دروغو، وفوق هضبة عارية، في أعلى قمتها شيء منتظم و هندسي، ذو لون أصفر، مميز، إنه المنظر الجانبي للحصن، آه،كم هو بعيد، من يدري كم من الساعات تتطلب للوصول إليه، جواده كان قد انهار بالفعل، حدق فيه دروغو مأخوذاً. ثم تساءل أي شيء يمكن أن يثير إعجابنا في هذا البناء المنعزل أعلى قمة الجبل ؟ لقد بدا و كأنه عصي على البلوغ، هكذا هو منفصل عن العالم . أية أسرار يحتوي ؟ كانت هذه هي اللحظات الأخيرة،لقد بدأ آخر فيض من الشمس ينفصل تدريجياً عن الهضبة البائدة و هناك في الأعلى، عند القلاع الصفراء، تتدفق الزوابع الداكنة لليل الهابط .

- II -

دهمه الليل وهو ما ينفك يسير، كان الوادي ضيقاً للغاية، و قد توارى الحصن خلف الجبال المتلاصقة و لم تكن هناك أنوار، حتى أصوات العصافير الليلية لم تسمع، فقط من وقت لآخر يسمع خرير ماء بعيد .

جاهد أن ينادي، لكن الأصداء كانت تدفع الأصوات و تضفي عليها جرْساً عدائياً، ربط جواده إلى جذع شجرة عند حافة الطريق في مكان مملوء بالعشب، ثم قعد في المكان نفسه ينتظر أن يغفو،و ظهره نحو المنحدر، مفكراً في الطريق الذي يجب عليه قطعه،في الناس الذين من الممكن أن يلتقي بهم في الحصن، في الحياة المستقبلية،دون أن يجد أي سبب يدعوه للفرح، بينما الجواد يخبط بحوافره الأرض بطريقة سيئة وغريبة .

عند الشفق، عاد يعتسف الطريق، تنبه إلى أنه في الاتجاه المعاكس للوادي، ولكن بنفس الارتفاع، كان ثمة طريق أخرى ثم بعد قليل شعر بأن هناك شيئاً آخر يتحرك،لم تكن الشمس قد وصلت بعد إلى الأسفل،على حين غطت الظلال كل المناطق الداخلية،لذا لم يكن من اليسير تمييز الأشياء بشكل جيد ثم بدأ يحث خطاه، فوصل إلى أعلى القمة، عندها تنبه إلى أن هناك رجلاً، ضابطاً يمتطي صهوة جواده، أخيراً،هاهو ذا رجل آخر مثله، مخلوق ودود، ربما أمكن له أن يضحك بصحبته أو يمزح، أو أن يتجاذب معه الحديث حول الحياة المشتركة القادمة، عن الصيد، عن النساء،عن المدينة، المدينة التي بدت الآن لدروغو وكأنها متصلة بعالم آخر بعيدٍ عنه جداً.

وعند تقاطع الوادي، فان الطريقين يقتربان من بعضهما البعض لاحظ جوفاني دروغو أن الآخر كان برتبة كابتن، لم يعد الصراخ مجدياً، بدا له غير ذي

معنـى، ويـدل علـى قلـة احتـرام، لـذا وعلـى العكـس مـن ذلـك فإنـه حيـّاه بـاحترام شديد،وقد خلع قبعته وأمسك بها بيمينه، لكن الآخـر لـم يجـب، مـن الواضـح انـه لـم ينتبه إلى وجود دروغو كله .

ـ سيدي الكابتن

صـرخ جوفاني أخيراً، وقد عيل صبره ثم حيّاه من جديد .

ـ ماذا هنالك ؟

تردد صدى صوت الكابتن مرة أخرى، لكنه كان أقل تهيجاً هذه المـرة توقـف جوفاني ، أشار بيديه كأنه يصنع بوقاً ثم أجاب وهو يجر أنفاسه جراً :

- لاشيء،كنت أرغب في تحيتك وحسب .

كان شرحاً أحمق، بل بدا كأنه إهانة، ذلك انه يترك انطباعاً بأن دروغو أراد أن يمزح مع الكابتن، أي نوع من أنواع المآزق المثيرة للسخرية كان قد وقع فيـه، لقد حدث كل هذا لأنه لم يكن قادراً على الاكتفاء بنفسه والاعتماد عليها .

صـرخ الكابتن :

ـ من أنت ؟

كان هذا هو بالضبط السؤال الـذي خشي منـه دروغـو، هـذا الحـوار الغريـب مـن طـرف الـوادي إلـى الطـرف الآخـر، بـدا وكـأن الحـديث قـد لـبس لبـاس رتـبٍ عسكريةٍ، إنها بداية غير مشجعة، ذلك أنه كان يبدو ـ بل من المؤكد ـ أن الكـابتن هو من الحصن، على كلٍ يجب الإجابـة على السؤال .

صرخ دروغو وهو يقدم نفسه :

ـ الملازم دروغو

لـم يكـن مـن الممكـن أن يتعـرف الكـابتن عليـه، بـل لـم يكـن ممكنـاً وتحـت أي احتمـال أن يعـي الإسـم علـى هـذه المـسافة، لكنـه بـدا أنـه تـابع الطريـق وهـو يـشير إشارة اتفاق أو تفاهم، وكأنه أراد أن يقول سنلتقي بعد قليل وبالفعل، فبعد نـصف

ساعة لاح جسر، كان الطريقان قد التقيا في طريق واحد .

عند الجسر التقى الإثنان، يمتطي كل منهما صهوة جواده اقترب الكابتن من دروغو ومد له يده، كان رجلاً في حدود الأربعين أو يزيد قليلاً، وجهه خالٍ من المعاني وأشبه بوجوه السادة، لباسه ذو خطوط خشنة، لكنه منتظم.

قدّم نفسه قائلاً :

ـ الكابتن أورتيز.

وبينما كان يشد على يده، بدا لدروغو أنه يدخل أخيراً عالم الحصن هذه هي أول علاقة له به، بالطبع سوف يحدث الكثير من هذه العلاقات فيما بعد، ومن أي نوع، وسوف تُطبق عليه كلها .

تابع الكابتن مسيره، تبعه دروغو بجانبه محاولاً التخلف عنه قليلاً بسبب التباعد في الرتب، وهو ينتظر إشارة ما من الكابتن إلى ذلك الحوار المحيّر، على العكس من ذلك، ظل الكابتن واجماً، ربما لم يكن راغباً في الكلام، من الجائز أنه كان خجولاً بعض الشيء، ولم يدر كيف يبدأ، ولما كان الطريق وعراً والشمس حادة، فإن الجوادين كانا يسيران ببطء شديد .

أخيرا نطق الكابتن أورتيز، قال:

ـ لم أعِ بالضبط اسمك على تلك المسافة منذ قليل، دروسو! هذا ما يبدو لي

رد جوفاني:

ـ دروغو، مع الغين، جوفاني دروغو، حضرتك سيدي الكابتن، أرجو منك أن تعذرني، ذلك أني منذ قليل، وعلى تلك المسافة البعيدة لم أتمكن من رؤية رتبتك .

ـ بالطبع، لم يكن من اليسير رؤية ذلك .

أجاب الكابتن موافقا، ورافضاً في الوقت نفسه أن يدحض فكرة دروغو ... ثم أخذ يضحك .

قادا جواديهما برهة، تنتابهما الحيرة، ثم قال أورتيز :

ـ هكذا إذاً، فما هي وجهتك ؟

ـ إلى حصن باستياني، أليست هذه هي الطريق ؟

ـ بالفعل إنها هي.

حل صمت قصير فيما بينهما، كان القيظ لاذعاً، وقد انتشرت الجبال في كل الأنحاء، جبال شامخة غطتها أعشاب ونباتات برية .

تساءل اورتيز:

ـ إذا فأنت تروم الحصن، هل تحمل رسالة ما ؟

ـ لا يا سيدي، إني التحق بالخدمة العسكرية، فأنا مفرز إلى هناك .

ـ مفرز هناك ! كعنصر؟

ـ أعتقد ذلك، كعنصر، إنها خدمة.

ـ أجل كعضو، بالتأكيد، إني إذاً أتمنى لك التوفيق .

ـ شكرا سيدي الكابتن

آب الصمت طارقاً بابيهما، تابعا المسير نحو الأمام بعض الشيء كان جوفاني يكابد الشعور بظمأ شديد، لاحظ أن ثمة مَطَرَةً خشبية مدسوسة في سلة الكابتن، وكان يتناهى إليه صوت الماء يقرقر في داخلها .

قال اورتيز:

ـ سنتان أليس كذلك؟

ـ عفواً سيدي الكابتن، ماذا تعني بسنتين؟

ـ أعني أن مأموريتك سوف تستمر سنتين، أليس كذلك ؟

ـ سنتان ! لست أدري، لم يحدد لي أحد ما زمناً للخدمة هناك.

ـ آه، حاول أن تفهم، سنتان، كل من يفرز للخدمة بعد أن يصبح ملازماً، يجب أن يقضي سنتين من الخدمة الميدانية، ثم بعد ذلك تذهبون إلى مكان آخر .

ـ وهل يطبق نظام خدمة السنتين على الجميع ؟

ـ أجل حاول أن تفهم، من أجل أخذ القِدَمِ العسكري يجب عليك الخدمة أربعة أعوام، وهذا بالضبط ما يهمنا، على كل في داخل الحصن يمكنك التأقلم بيسر، أليس كذلك ؟

لم يكن دروغو يعرف أي شيء عن هذا كله، ولكنه أراد أن لا يترك انطباعاً بأنه أحمق، لذا فقد أخذ يرد بإجابات من هذا النوع، بالتأكيد هناك الكثيرون .

لم يلح أورتيز في أسئلته، بدا وكأن الأمر لا يهمه بالفعل، لكنه الآن وقد انكسر حاجز الحياء فيما بينهما تجرّأ جوفاني على سؤاله :

ـ ولكن هل ينطبق قانون الحصول على القدم العسكري في داخل الحصن، على الجميع ؟

ـ ومن هم هؤلاء الجميع ؟

ـ كنت أعني الضباط الآخرين

رد أورتيز ضاحكاً:

ـ أجل، هذا يحدث بالنسبة للجميع، هل تستطيع تخيل أن هذا يحدث بالنسبة للملازمين، بالطبع مفهوم، هذا يتعلق بمن يقدم طلباً من أجل ذلك؟

رد دروغو:

ـ لكني لم أقم بتقديم أي طلب من هذا القبيل!

ـ لم تتقدم بطلب؟

ـ لا يا سيدي، لقد علمت منذ يومين وحسب بأن علي الالتحاق بحصن باسيتاني لأني قد عينت فيه .

ـ آه، حقاً؟ هذا شيء غريب .

صمتا مرة أخرى، بدا وكأن كلاً منهما يحاول التفكير في أشياء مختلفة لكن أورتيز قال:

ـ ولا على الأقل..

حاول جوفاني أن يؤكد :

ـ هذا مؤكد سيدي الكابتن

ـ كنت أريد أن أقول، لما لم يكن هناك أي طلب إلاّ المقدم من قبلك فمن المحتمل أنهم عينوك في منصب مكتبي.

ـ هذا جائز سيدي الكابتن.

ـ أجل، يجب أن يكون الأمر بالفعل كذلك .

كان جوفاني يحدق في الغبار المتطاير، والذي ظل يلف الجوادين في رأسيهما اللذان يقولان نعم عند كل خطوة، قرقعتها التي ما تنفك تتضاعف، طنين بعض الذبابات، ولاشيء آخر سوى ذلك .

لم يكن بالإمكان رؤية نهاية الطريق، فمن وقت لآخر، وعند كل انعطاف للوادي، كان الطريق يظهر أمامهما مرتفعاً ، وهو يأخذ شكل زكزاك، كان يبدو أنهما يكادان يصلان، لكنهما ما ينفكان ينظران إلى أعلى هاهي ذي الطريق دائماً مرتفعة جداً.

تساءل دروغو :

ـ المعذرة سيدي الكابتن

ـ قل، هات ما عندك .

ـ هل بقي أمامنا طريق طويل .

ـ لم يبق أمامنا سوى مسير ساعتين ونصف، ومن الجائز ثلاث ساعات، خصوصاً ونحن نسير ببطء، ربما وصلنا عند الظهيرة، وهذا مؤكد .

صمت قليلاً، كان الجوادان يقطران عرقاً، وجواد الكابتن بالكاد يجر قدميه .

قال اورتيز:

ـ أنت قادم من الأكاديمية الملكية، أليس كذلك؟

ـ أجل يا سيدي من الأكاديمية.

ـ حسناً قل لي، أ مازال الكولونيل ماكنوس يخدم هناك ؟

ـ كولونيل ماكنوس ؟ لا أعرف ذلك، لم أتعرّف عليه أبداً .

الآن، ينضغط الوادي أكثر فأكثر، إنه يكاد يمنع وصول الشمس،

ثم كانت تظهر من وقت لآخر مضائق قاتمة، تندفع فيها رياح باردة وفي أعلى القمة تظهر الهضاب المخروطية الشكل، ويبدو أن الوصول إلى القمة يحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام .

قال أورتيز:

ـ قل لي أيها الملازم، هل مازال الميجور بوسكو هناك؟ هل مازال مسؤولاً عن حقل الرمي ؟

ـ لا يا سيدي، لا يبدو لي ذلك، هناك تزيمرمان، الميجور تزيمرمان.

ـ أجل تزيمرمان، فعلاً، لقد سمعت باسمه مراراً، المشكلة أنه قد انقضى زمن طويل، منذ أيامي الأولى هناك، وحتى اليوم، يبدو أن كل شيء قد تغير الآن.

كلاهما يفكر الآن في شيء ما، عادت الشمس تشرق فوق الطريق، جبال فوق جبال، الآن غدت أكثر وعورة، كما بدأت تظهر جلاميد صخرية صماء.

ـ قال دروغو:

ـ لقد شاهدته البارحة عن بعد

ـ ماذا ؟ الحصن؟

ـ أجل الحصن.

صمت برهة، ثم حاول أن يبدو لطيفاً و مهذباً . تابع يقول :

ـ لابد أن يكون ضخماً للغاية، أليس كذلك ؟ لقد بدا لي هائل الحجم،

هائل الحجم ؟

ـ الحصن؟ لا، لا، إنه صغير جداً، وهو عبارة عن مبنى قديم، إنه يعطي هذا الانطباع عن بعد وحسب .

صمت برهة ثم أضاف:

ـ قديم جداً، وقد تم تجاوزه الآن تماماً.

ـ ولكنه واحد من الحصون الرئيسة، أليس كذلك؟

أجاب اورتيز:

ـ لا، لا، إنه حصن من الدرجة الثانية .

بدا وكأنه يتلذذ بالحديث عنه بشكل مسيء، و بنبرة خاصة، كأنه أب يتحدث عن عيوب ابنه، من المؤكد أنه كان ثمة الكثير من الأشياء المثيرة للسخرية، فيما يتعلق بحديثه عن الحصن الذي تجاوز حدوده .

أضاف اورتيز:

ـ إنه جزء من منطقة حدود ميتة، إنهم لم يجروا أي تعديل عليه، لقد ظل هكذا منذ قرن مضى.

ـ كيف ؟ حدود ميتة ؟

ـ إنّه(حصنٌ) حدودي، و هو لا يوحي بأية فكرة ، وأمامه هناك صحراء شاسعة .

ـ صحراء؟

ـ بالطبع صحراء، أحجار،أرض يابسة،إنهم يسمونها صحراء التتار .

تساءل دروغو :

ـ ولماذا التتار بالتحديد ؟ هل كان التتار هناك ؟

ـ في الماضي السحيق،أعتقد ذلك،ولكنها خرافة قبل كل شيء،لم يسبق أن مر بها أحد منذ زمن موغل في القدم،حتى و لا بالحروب السابقة .

ـ أي إنّ الحصن لم يخدم أي غرض ؟

رد الكابتن :

ـ لا شيء أبداً .

يتابعان صعود الطريق، ينقطع سيل الأشجار، ولم تعد ترى سوى بضع جَنَبْاتٍ هنا و هناك، في المحصلة النهائية بعض الأجزاء القاحلة، جلاميد صخر متساقطة حمراء اللون .

ـ معذرة سيدي الكابتن، هل ثمة بلدان حوله؟

ـ بالقرب منه لا و لكن هناك سان روكو،ولكنها بعيدة عدة كيلومترات

ـ إذاً وحسبما أتخيّل،هناك القليل من التسلية، القليل من التسلية.

ـ بالفعل القليل .

غدا الهواء منعشاً، بدأت أطراف الجبال تأخذ أشكالاً دائرية، تاركة الانطباع بأنها هذه هي نهاية الذرا .

تساءل جوفاني :

ـ هل ثمة ما يثير السأم، سيدي الكابتن .

ضحك الكابتن ضحكة ودية،وكأنه أراد أن يقول إنّه هو نفسه لم يكن قادراً على تخمين ذلك،

ـ سوف تعتاد .

قال الكابتين،ثم أضاف وكأنه يلوم نفسه ضمنياً :

ـ لقد مضى على وجودي هناك ثماني عشرة سنة،أو بالأصح، لقد أكملت ثماني عشرة سنة .

قال جوفاني مذهولاً :

ـ ثماني عشرة سنة !

أجاب الكابتن :

ـ ثماني عشرة سنة

مرّ رفٌّ من الغربان فوق رأس الضابطين، ثم انحدر أسفل الوادي

قال الكابتن :

ـ غربان .

لم يجب جوفاني، كان يفكر في الحياة التي تنتظره، كان يحس بغرابة تجاه العالم، تجاه تلك العزلة، يفكر في هذه الجبال، ثم سأل:

ـ ولكن من ضمن أولئك الذين يذهبون إلى الخدمة الأولى، هل صدف أن توقف أحد منهم هناك ؟

ـ الآن، القليل،

أجاب اورتيز وهو يكاد يحس بتأنيب ضمير لأنه تحدث بشكل غير لائق عن الحصن، وقد خمّن أن صاحبه قد بالغ في التأثير كثيراً، لذا فقد تابع :

ـ تقريباً لا أحد، الآن الكثير منهم يرغب في قضاء خدمته في الحامية الشهيرة اللامعة، في يوم من الأيام كان يعتبر مفخرة قضاء الخدمة العسكرية في حصن باستياني .. الآن لقد تحول إلى نوع من أنواع العقاب .

صمت جوفاني، لكن الأخر ظل يُلح :

ـ على كلٍّ،عدا عن ذلك فهي حامية حدودية، في العادة يجب أن يكون هناك مميزات من الدرجة الأولى، ولكن بالفعل فان الموقع الحدودي يبقى دائماً موقعاً حدودياً .

كان دروغو غارقاً في الصمت، وهو يكابد شعوراً طاغياً بالاضطهاد، اتسعت مساحة الأفق وفي العمق بدأت تظهر أشكال مثيرة للفضول لجبال صخرية، لصخور مدببة تناطح قبة السماء، تابع اورتيز مضيفاً :

ـ الآن وحتى في الجيش، لقد تغيرت الطريقة فيما يتعلق بعملية تمركز القوات، في يوم من الأيام كان حصن باستياني يمثل شرفاً عظيماً، الآن يقولون

أنها منطقة حدودية ميتة، انهم لا يدركون بأن منطقة الحدود تظل منطقة حدود، ولا أحد عالم بما قد يحدث .

كان ثمة جدول ماء يقطع الطريق، توقفا برهة كي يسقيا الجوادين ثم ترجلا عن سرجيهما، وطفقا يمشيان هنا و هناك كي يُرّوحا عن نفسيهما .

قال اورتيز :

ـ هل تعرف ما هو ذلك الشيء الذي يمكن اعتباره فعلياً من الدرجة الأولى؟ ثم ضحك بتلذذ ...

ـ وما عساه يكون سيدي الكابتن ؟

ـ المطبخ، سوف ترى ماذا يؤكل في الحصن، وهذا ما يفسر عمليات التفتيش المستمرة، كل خمسة عشر يوماً ثمة جنرال يفتش .

ضحك دروغو مجاملة، لم يكن بوسعه أن يميز ما إذا كان اورتيز أحمق أم انه يخفي شيئاً ما وراء أحاديثه التي يقودها هكذا دون أي شعور بالمسؤولية .

قال جوفاني :

ـ حسناً، إني جائع الآن .

ـ آه، الآن لم يبق أمامنا الكثير، هل ترى ذلك الانحناء المتحدب، ذلك الذي يغطيه الحصى ؟ إنه وراءه بالضبط .

تابعا مسيرهما، وبالضبط خلف الانحناء المتحدب والمغطى بالحصى ظهر الضابطان من مكمنهما وهما يسيران على حافة منحدر ذي ارتفاع خفيف بعض الشيء، عندئذٍ ظهر الحصن أمامهما على بعد مئات من الأمتار .

بدا صغيراً بحق مقارنة برؤيته ليلة البارحة،من الجانب الأوسط الذي يشابه بحق ثكنة عسكرية ذات شبابيك قليلة كان ثمة سوران منخفضان بفتحات كانت تصله بالمواقع الجانبية، في كل طرف اثنان، كان السوران يغلقان بشكل ضعيف المعبر الداخلي، كان عرضه حوالي خمسمائة متر، وقد اغلق في طرفيه بصخور

عظيمة .

إلى اليمين، وبالضبط تحت صفحة الجبل، كان المنحدر يغرق تماماً فيما يشبه السرج، كانت تمر من هناك الطريق القديمة للمعبر والتي كانت تنتهي عند الأسوار .

واجهة البناء غارقة في السكون وقد لفحتها شمس منتصف النهار الممتلئة، هكذا دون ظلال، كان السوران (لم تكن واجهة البناء بادية للعيان ذلك أنها كانت متجهة نحو الشمال) يمتدان عاريين، وقد شابثهما الصفرة، وكان هناك مدخنة تقذف دخاناً شاحباً، وعلى طول حافة المنحدر للبناء الرئيس وللأسوار وللحصون الصغيرة كان يمكن مشاهدة عشرات من الحرس وقد حملوا على أكتافهم بنادق وهم يروحون ويجيئون بشكل منتظم هنا وهناك لكل واحد منهم قسم خاص به، وهم يشبهون آلة الرقاص، كأنهم يشيرون إلى مسيرة الزمن، دون أن يقطعوا غناء العزلة تلك التي بدت هائلة .

كان يمكن مشاهدة الجبال بالعين المجردة إلى اليمين والى اليسار وكأنها سلاسل منزلقة، في الظاهر كانت تبدو بعيدة المنال، حتى الجبال على الأقل في تلك اللحظة كانت تبدو صفراء وقاحلة .

بشكل غريزي، أوقف جوفاني دروغو جواده، وهو يجوب ببصره ببطء، كان يحدق في الأسوار دون أن يفهم معنى هذا، فكّر في السجن، فكّر بمملكة مهجورة .

كان صفير الريح يدفع علماً إلى التموج فوق واجهة المبنى، في حين أنه كان في السابق يتهدل وهو يكاد يمتزج مع الساري، كما كان يمكن سماع صدى غامض لبوق، كان الحرس يسيرون ببطء، في الساحة الواقعة أمام بوابة المدخل، كان ثمة ثلاثة أو أربعة رجال (لم يكن من الممكن التمييز عن بعد ما إذا كانوا جنوداً أم لا) كانوا يحشون أكياساً فوق عربةٍ، ولكن كل هذا كان يجري ممتزجاً

بجو سحري وغامض .

حتى الكابتن أورتيز توقف لمشاهدة المبنى، وقد بدا أن لا جدوى من الكلام.

ـ هاهو ذا .

فكّر دروغو، الآن سوف يسألني عن رأيي، وهذا سيثير في داخلي شعوراً بالانزعاج، لكن الكابتن ظل صامتاً .

لم يكن حصن باستياني يبدو مهيب الطلعة، سوران منخفضان، لم يكن أيضاً جميلاً، لا أبراج ولا قلاع، لم يكن ثمة أي عزاء في هذا العري، أيُّ عزاءٍ يذكّر ببعض نواحي الحياة الحلوة، على العكس مثل ليلة البارحة، ومن أعمق الأعماق كان دروغو يحدّق فيه وقد بدا كأنه قد نُوّم مغناطيسياً، وكأن ثمة نشوة غير مبررة أو مفهومة قد دلفت إلى قلبه .

أما خلف كل هذا، فأي شيء يكون خلف كل هذا ؟ هناك خلف هذا المبنى غير المضياف، ما وراء فتحة الأسوار، خلف المباني العسكرية خلف مخازن البارود، كانت تلك الأشياء تغلق الرؤية .

أي عالم يكمن خلفها ؟ كيف تبدو المملكة من جهة الشمال، الصحراء الحجرية التي لم تطأها رجل آدمي أبداً ؟

كانت الخارطة ـ كما يتذكر دروغو بشكل غامض و مشوش ـ تذكر أنه خلف تلك الحدود،كان ثمة منطقة بها أسماء قليلة، و لكن خلف الحصن، يجب أن يكون هناك بلدان،بعض المروج، بيت ما، أم لعلها أرض مقفرة و غير مأهولة؟

بغتة شعر أنّه وحيدٌ، و قد تلاشت حماسة الجندي في داخله منذ الآن، من اللحظة التي غادر فيها تجاربه السعيدة في مقر الحامية، البيت المريح، الأصدقاء السعداء إلى جانبه، مغامراته المتواضعة في الحدائق الليلية، لقد تزعزع كيانه، و شعر بأن ثقته بنفسه قد أخذت بالتلاشي،لقد بدا له، أن الحصن، هو ذلك المكان المجهول الذي لم يخطر بباله قط أن ينتسب إليه، و لم يكن مدعاة ذلك هو مظهره

المُنقّر، و إنما شعوره باختلافه المطلق عن حياته العادية، إنه عالم الالتزام المطلق، دون أي سطوع أو إثارة خارج قوانينه الهندسية .

آه . . . العودة، عدم اجتياز عتبة الحصن، الهبوط نحو السهل، نحو بيته، عاداته القديمة، كانت هذه الفكرة الأولى التي خطرت ببال دروغو لا يهم ما إذا كان هذا يمثل ضغطاً بالنسبة إليه كجندي،لقد كان مستعداً للإعتراف بذلك إذا لزم الأمر، مقابل أن يدعوه يذهب في حال سبيله، لكن غيمةً كثيفةً، وبيضاء من الأفق الشمالي غير المرئي كانت تعبر سماء الحصن، ملتصقة جداً فلا يمكن اختراقها، تحت الشمس الساطعة، الحرس يسيرون هنا وهناك كأنهم آلات، صهل جواد دروغو ثم عاد يخيم الصمت العظيم .

رفع جوفاني عينيه عن الحصن، تطلع حوله،(تطلّعَ)نحو الكابتن وهو ينتظر كلمة أليفة ولطيفة .

حتى أورتيز كان واجماً يحدق في الأسوار الصفراء، و هو الذي يعيش هنا منذ ثمانية عشر عاماً، هاهو ذا يعود فيتأمل الحصن بذهول، وكأنه يعود ليرى أعجوبة، بدا وكأنه لا يمل من تأمله بإعجاب على حين ثمة ابتسامة غامضة ممتزجة بفرح وحزن تلمع ببطء وهدوء على صفحة وجهه .

- III -

عند وصوله، قدم دروغو نفسه للميجور ماتّي، مساعد أول ميجور، كان ثمة ملازم رئيساً للحرس، وهو شاب لبق ومتجاوب يدعى كارل مورل ، رافقه وهما يعبران قلب الحصن، من خلال البوابة، حيث كان يُشاهد بهو واسع وعارٍ، وصل الإثنان إلى ممر واسع، لم يكن ممكناً رؤية آخره، السقف غارق في الظلال، وبين الفينة والأخرى تدلف حزمة ضوء من النوافذ الصغيرة .

فقط في الطابق العلوي التقيا بجندي يحمل رزمة أوراق، الجدران عارية ورطبة، الصمت، الإنارة البائسة، كان الجميع هناك في الداخل وكأنهم منسيون في عالم خالٍ من الزهور، والنساء اللواتي يبتسمن، المنازل المبتهجة، المشافي، كل شيء هنا في الداخل يعبر عن ذاته وكأنه جزء من عملية رفض ولكن ضد من ؟ من أجل أي خير غامض وسري، الآن هم في الطابق الثالث، وفي ممر مشابه بالضبط لذلك السفلي، كان يسمع، من وراء الجدران صدى بعيد لضحكة بدت لدروغو غير حقيقية إطلاقاً .

الميجور ماتّي بدين، ويبتسم بطيبة مفرطة، مكتبه واسع جداً، حتى الطاولة كانت ضخمة للغاية، وقد تناثرت عليها الأوراق بفوضى كان ثمة لوحة ملونة للملك، وخنجر الميجور مغموس في غمد خشبي ملائم، قدم دروغو نفسه من ضمن القادمين، عرض أوراقه الشخصية، ثم انخرط يشرح بأنه لم يسبق له أن تقدم بطلب لكي يفرز إلى الحصن (كان يعتقد، أنه لعل هذا يكون دافعاً لتغيير مكانه) لكن ماتّي قاطعه قائلاً :

ـ لقد تعرفت منذ سنين خَلَتْ على والدك، إنه مثال للرجل الطيب، بالتأكيد سنقيم احتفالاً على شرف ذكراه، رئيس المحكمة العليا، إن لم أكن مخطئاً ؟

لكن دروغو قال :

ـ لا يا سيدي الميجور، لقد كان أبي طبيباً .

ـ آه . . . هذا حق، طبيباً، يا للخيبة، لقد التبس الأمر عليَّ إذاً، طبيباً، أجل، أجل، بدا ماتّي في تلك اللحظة وكأنه في حيرة من أمره وقد لاحظ دروغو أنه يضع كفه اليسرى على رقبته محاولاً بذلك إخفاء لطخةً مستديرة، لطخةً من المؤكد أنها حديثة العهد على صدر لباسه الرسمي .

لكن الميجور سرعان ما استعاد هدوءه قائلاً :

ـ تسرني رؤيتك هنا، هل تعرف ماذا قال جلالة بطرس الثالث، إن حصن باستياني هو حارس تاجي، وأنا أضيف بأنه لشرف عظيم الانتماء إليه، من الجائز أنك لست ملازماً متحمساً .

قال هذا بطريقة آلية، وكأنما هي عبارة عن صيغة تعلمها منذ سنين ثم ما يلبث أن يقذف بها في مناسبات محددة .

قال جوفاني :

ـ بالضبط سيدي الميجور، إنك محق، لكني أعترف لك أن الأمر كان مفاجأة بالنسبة لي، أنا في المدينة عندي عائلة، عندي أشيائي المفضلة، إذا أمكن البقاء ....

ـ آه، إذاً أنت تريد أن تتركنا، هكذا قبل أن تصل،ألا يمكنك قول ذلك ؟ لكني أعترف لك أنه يؤسفني جداً، يؤسفني جداً .

ـ ليس الأمر هو أني أريد، إني لا أسمح لنفسي بنقاش الأمر، أريد فقط أن أقول ...

ـ لقد فهمت .

قال الميجور ذلك وهو يصدر زفرة، كما لو كان يسمع قصة قديمة، وهو عليم بكيفية التعامل معها .

ـ لقد فهمت، لقد كنت تتخيل حصن باستياني في شكل مختلف، والآن يثير دهشتك، وقل لي بشرفك كيف أمكن لك أن تصدر حكماً ولمّا يمض على وصولك هنا سوى دقائق معدودات ؟

رد دروغو :

ـ سيدي الميجور، أنا لا أحمل أية ضغينة ضد الحصن، فقط أفضل البقاء في المدينة، أو على الأقل قريباً منها، أ ترى ؟ إني أحدثك بصراحة، أرى أنك تستوعب جيداً هذه الأمور وأنا أترك تقدير كل شيء لحضرتك .

هتف ماتّي وهو يضحك ضحكة مقتضبة :

ـ ولكن هذا مؤكد، أكيد، نحن هنا بالضبط من أجل شيء كهذا،لا نريد أحداً بدون رغبته، حتى ولو كان الحارس الأخير، فقط هذا مؤسف بالنسبة لي، فانك تبدو فتىً طيباً للغاية .

صمت الميجور وكأنه يحاول البحث عن الحل الأمثل، كان هذا كافياً بالنسبة لدروغو لكي يستدير برأسه نحو اليسار، ينظر من النافذة المفتوحة على البهو الداخلي، كان يمكن مشاهدة سور الواجهة، كان كالأسوار الأخرى مائلاً للصفرة ، تلفحه الشمس الساطعة، والأضلاع السوداء للنوافذ النادرة،كان أيضاً ثمة ساعة تشير إلى الثانية، وفي الشرفة الأخيرة ثمة حارس يجوب المكان حاملاً بندقيته على كتفه، ولكن فوق منحدر المبنى، بعيداً، كان عليه رؤية طرف نقطة ما،وهي في الواقع لم تكن تحمل أشياء خاصة، كان ثمة قطع من الصخر، بالنسبة لجوفاني دروغو كانت النظرة الأولى هي لرؤية أرض الشمال، المملكة الخرافية التي تهم بمداهمة الحصن، ثم البقية الباقية كيف كانت ؟ ثمة ضوءٌ ناعس يتناهى من ذلك المكان مجتازاً ضباباً دخانياً بطيئاً، و بدأ الميجور بالكلام، سأل دروغو :

ـ قل لي، هل ترغب في العودة في الحال، أم أنك تفضل أن تنتظر بضعة شهور هنا ؟ أكرر القول، بالنسبة لنا لا فرق، من الناحية الشكلية هذا واضح .

أضاف ذلك لإنَّ جملته لم تكن ذات وقْعٍ سَمِجٍ، أجاب جوفاني وهو مندهش من عدم وجود عوائق أو صعوبات :

ـ أجل يجب أن أعود، أجل يجب أن أعود، يبدو لي هذا ضرورياً، موافق، موافق .

كرر الميجور وهو يطمئنه، ثم تابع :

ـ لكني سأشرح لك الأمر الآن، إذا كنت تفضل العودة مباشرة فعليك أن تقوم بدور المريَض، حيث تذهب إلى الممرضة وتضع نفسك تحت المراقبة ليومين اثنين حيث يأتي الطبيب، وحيث يقوم بإعداد وثيقة عن وضعك، هناك الكثيرون ممن هم في نفس رتبتك ولكنهم في المحصلة النهائية لا يقاومون .

تساءل دروغو وهو غير راضٍ عن هذه الخاتمة :

ـ أ من الضروري أن أقوم بدور المريض ؟

ـ بالطبع هذا يسهل الأمور كثيراً، وإلا عليك أن تقدم طلباً خطياً ويجب إرسال هذا الطلب إلى القيادة العليا، ثم من الضروري أن يقوم السيد الكولونيل بفعل ذلك، وهذا هو بالضبط ما أفضل أن نتجنبه،إن هذه الأشياء تثير الانزعاج في داخله، إن هذا يؤلمه، إن الكلمة هي بالضبط كذلك، يؤلمه، وكأنك تنوي اقتلاعه من حصنه، هكذا لو كنت في محلك، وإذا كان علي أن أكون صريحاً معك، أفضل تجنب ذلك .

لكن دروغو عاد يؤكد :

ـ ولكن اعذرني سيدي الميجور،فأنا لم أكن محيطاً بالأمر من جميع جوانبه وإذا كان رحيلي من هنا سيسبب لك هذا الأذى، فإن هذه مسألة أخرى ؟

ـ ولا حتى مجرد التفكير بذلك أيها الملازم،أنت لم تفهمني بالضبط، ففي كل الأحوال فإن الخدمة ستسبب لك نوعاً من الألم و العذاب،إن الأمر يتعلق، بكيف يمكن التعبير عن ذلك ؟لنقل إن الأمر يتعلق بحسن الانتقال،بالتأكيد،لقد سبق لي أن

أكدت لك ذلك للتو،بالنسبة للكولونيل،فإن الأمر لن ينال إعجابه.ولكن إذا كنت مصراً .

قاطعه دروغو :

ـ لا،لا، إن الأمر يبدو بالفعل كما تقول،جائز أن من الأفضل تجهيز تقرير طبي .

ـ هذا إذا لم نقل .

قال ماتّي ذلك وهو يرسم ابتسامة خفيفة، وقد ترك جملته معلقة.

ـ إذا لم نقل ؟

ـ إذا لم تقل إنه بإمكانك أن تتأقلم مع البيئة هنا لمدة أربعة أشهر فقط هذا سيكون الحل المثالي

ـ أربعة أشهر !

قال دروغو ذلك وهو يشعر بخيبة أمل بعد أن كان من الممكن بالنسبة له الرحيل في الحال، لكن ماتّي عاد يؤكد :

ـ أجل أربعة أشهر، إن الأمر سيكون قانونياً جداً،سوف أشرح لك ذلك في الحال، هنا جرت العادة أن يتم القيام بفحص طبي اعتيادي بالنسبة للجميع مرتين في السنة، بالنسبة لك ستكون الفرصة مناسبة، وإذا ما جاء التقرير سلبياً، وفيما يتعلق بهذا سوف أهتم أنا بالأمر بنفسي تستطيع أن تكون مطمئناً بشكل مطلق .

صمت الميجور برهة ثم أردف :

ـ عدا عن ذلك،فإن أربعة أشهر هي دائماً أربعة أشهر، وهي مدة كافية بالنسبة لإقامة علاقة شخصية، تستطيع أن تكون مطمئناً أن السيد الكولونيل سيقوم بمساعدتك،وأنت تعلم أن أي قيمة يمكن أن تتضمنها خدمتك،ولكن لتأمل،لنأمل من ذلك خيراً، إنها مجرد نصيحة و أنت حر في نهاية المطاف .

رد دروغو :

ـ أجل يا سيدي، إنني أفهم بشكل كامل .

أوضح الميجور :

ـ في أسوأ الأحوال فإن الخدمة لن تكون شاقة،إنها في أغلب الأحوال تنطوي على نوع من نوبات الحراسة،ربما كان المحرس الجديد أكثر مدعاة للالتزام، وهو ما لن يستند إليك في أيامك الأولى هنا، لا تعب أبداً، لا تخف من شيء،سيكون لديك الوقت الكافي للسأم .

بصعوبة كان دروغو يستمع إلى شروحات ماتّي،فقد كان منجذباً بشكل غريب، وهو ينظر عبر النافذة،محدقاً ًفي ذلك الجزء الصغير من الصخور الذي كان يبرز فوق السور الأمامي، الإحساس الغامض الذي لم يكن قادراً على تحليله كان يتوارى داخل روحه فمن الجائز أنه نوع من الحمق، أو أنه شيء مستحيل،إيحاء خالٍ من أي معنى .

في الوقت نفسه بدأ يشعر بنوع من الطمأنينة، ولم تكن لتفارقه رغبته في الرحيل من هنا، ولكن هذه الرغبة لم تكن مشوبة بذلك القلق الذي اعتراه في البداية، تقريباً كان يشعر بنوع من الخجل، من الجزع الذي كان يستشعره إبان وصوله، ربما لم يكن من الواجب عليه أن يكون في نفس مستوى الآخرين؛ رحيل مباشر ؛ هكذا جعل يفكر .

ربما يكون هذا موازياً للاعتراف بالشعور بالدونية، هكذا بدأ هواه الشخصي يكافح ضد رغبته القديمة، ضد وجوده الأليف .

قال دروغو:

ـ سيدي الميجور،أشكر لك نصائحك القيمة،و لكنني أرجو منك إمهالي حتى الغد كي أفكر في الأمر جيداً .

ـ جيد

قالها ماتّي و هو يشعر بالرضا، ثم تابع :

ـ وهذا المساء ! هل ترغب بمقابلة الكولونيل على مائدة العشاء، أم أنك تفضل أن يظل الأمر غير مبتوت به أبداً ؟!

رد دروغو :

ـ به، يبدو لي أن لا فائدة من البقاء متخفياً، في مطلق الأحوال قد أضطر للبقاء هنا مدة أربعة أشهر .

قال الميجور :

ـ هذا أفضل،هكذا استشعر بمزيد من التشجيع،سوف ترى بأم عينك كم هم مهذبون ضباط المرتبة الأولى .

كان ماتّي يبتسم،لكن دروغو شعر أنه قد أزف أوان الرحيل،لكنه سأل قبل ذلك،وقد شاب نبرته نوع من الطمأنينة، قال:

ـ سيدي الميجور، هل أستطيع أن القي نظرة نحو الشمال، أريد أن أرى ما عساه يكون خلف هذا السور،

أجاب الميجور :

ـ خلف السور !لم أكن أعلم أنك مغرم برؤية المناظر .

ـ فقط نظرة سيدي الميجور،إنه مجرد فضول،لقد سمعت أن ثمة صحراء، ولم يسبق لي أن شاهدتها أبداً .

ـ إن الأمر لا يستحق المشاهدة أيها الملازم، إنها بلدة تبعث على السأم، ولا يوجد أي شيء جميل في هذا، استمع إليّ ولا تفكر بالأمر .

رد دروغو :

ـ لن ألحّ سيدي الميجور، كنت أعتقد أنه لا توجد أية صعوبة في ذلك .

ضمّ الميجور ماتّي أصابع يديه الضخمة وكأنه يصلي ثم أردف :

ـ لقد طلبت مني ذلك، وهذا بالضبط مالا أستطيع أن أكون به نافعاً بالنسبة لك،فحول الأسوار، وفي أقسام الحراسة لا يستطيع أن يذهب سوى جنود

الخدمة،يجب معرفة كلمة السر .

ـ ولكن حتى في حالات استثنائية حتى بالنسبة لضابط ! .

ـ حتى بالنسبة إلى ضابط، آه . . . إني أفهم ذلك جيداً، هناك في المدينة تبدو هذه الأمور غير ذات أهمية، وحتى كلمة السر لم تعد تخفى عن الكل هناك في الأسفل، الأمر مختلف تماماً هنا .

ـ ولكن اعذرني إن كنت ألح سيدي الميجور .

ـ قل هيّا قل أيها الملازم .

ـ كنت أريد أن أقول، إنه لا توجد حتى كوى ، أو نافذة يمكن للمرء أن يحدق من خلالها ؟

ـ واحدة فقط، فقط واحدة، في مكتب السيد الكولونيل، للأسف لم يخطر ببال أحد مسألة المنظر الجميل الذي قد يستدعي اهتمام فضولي، ولكن الأمر لا يستحق كل هذا الاهتمام، لقد سبق أن قلت لك، إنها مجرد بلدة لا أهمية لها، سوف تصاب بالسأم الكبير من جرّاء رؤيتك لها إذا ما قررت المكوث هنا .

قال دروغو وهو يؤدي تحية عسكرية :

ـ شكراً سيدي الميجور، احترامي

أما ماتّي فقد أومأ بيده بشكل لطيف وهو يقول :

ـ إلى اللقاء أيها الملازم، لا تفكر كثيراً، إنها بلدة خاوية من أي شيء، أني أؤكد لك ذلك، بلدة غبية للغاية .

ولكن في تلك الليلة تخلّف الملازم مورل عن خدمة الحراسة،ثم قاد دروغو عند حافة السور ليتمكن من الرؤية .

كان ثمة ممر طويل، مضاء بأنوار قليلة، ممتد على طول السور من إحدى الجوانب وحتى المعبر الرئيس للحصن، وبين كل مسافة وأخرى كان ثمة باب، مخازن، مختبرات، أقسام حراسة، سارا حوالي مئة و خمسين متراً حتى وصلا

إلي مدخل المحرس الثالث كان ثمة حارس مدجج بالسلاح طلب منه مورل أن يتحدث إلى الملازم جروتّا الذي كان يترأس الحرس وهكذا ا استطاعا الدخول مخالفين القواعـــد والقوانين، جوفاني وجد نفسه في دهليز، مستنداً إلي جدار وفوقه ضوء كما كان ثمة لائحة بأسماء جنود الخدمة،

قال مورل مخاطباً دروغو :

ـ تعال، تعال إليَّ هنا من الأفضل أن تقوم بذلك بسرعة، تبعه دروغو على سلم ضيق، كان ينتهي إلى أنواء رحبة، وذلك عند الحد الفاصل للحرس .

أومأ الملازم مورل إلي الحارس الذي يتمشى في هذا الركن كمن يوحي إليه بأن الإجراءات الشكلية ليست بذات قيمة .

وجد دروغو نفسه بمواجهة إحدى كوى الحصن الخارجية، بالضبط أمامه كانت تفيض أنوار الغروب وهي تتفرق في الوادي، عندئذ، بدأت تتضح أمامه أسرار الشمال، امتقاع غامض ارتسم على وجه دروغو، كأنه تجمد وهو يحدّق، الحارس القريب منه توقف عن السير ثم ران سكون لانهائي وبدأ يتغلغل بين هالة الغسق .

سأله جوفاني دون أن يرفع عينيه :

ـولكن ماذا يوجد وراء هذه الصخور؟ هل ينتهي كل شيء هكذا؟

رد مورل :

ـ لم أره مطلقاً، يجب الذهاب إلى المحرس الجديد، هناك في الأسفل، في أعلى القمة المخروطية هناك يمكن رؤية السهل كله، يقولون،

ـ ماذا يقولون ؟

ـ يقال إنه ليس ثمة سوى الحصى، إنها شيء يشبه الصحراء حصى بيضاء، يقولون، كأنها الثلج .

ـ حصى ! هل هذا كل شيء ؟

ـ هكذا يقولون، ثم هناك بعض المستنقعات .

ـ ولكن هناك، في العمق، إلى الشمال هل يمكن رؤية شيء ما بشكل جيد؟

رد مورل وقد بدا كأنه يفقد حميميته الغريزية التي كان يتحلى بها:

ـ هناك، عند الأفق، في العادة لا يوجد سوى الضباب، انه ضباب الشمال الذي لا يفسح مجالاً للرؤية

هتف دروغو متشككاً :

ـالضباب ! لا يمكن أن يظل الضباب قائماً، قد ينجلي في لحظة ما عن صفحة الأفق، ويبدو الأفق واضحاً

ـ تقريباً، لا وضوح أبداً، حتى في الشتاء، ولكن ثمة من يقول إنه قد رآه .

ـ رآه ! ماذا رأى ؟

ـ إنهم يتخيلون ذلك، إذهبْ أنت إلى رؤية الجنود، أحدهم يقول شيئاً، الآخر يقول شيئاً مختلفاً، بعضهم يصرح بأنه قد رأى أبراجاً بيضاء، والبعض الآخر يقول إنه قد رأى بركاناً ينفث دخاناً ومن هنا يأتي الضباب، حتى أورتيز، الكابتن،يؤكد أنه قد رأى شيئاً ما، الآن لقد مضى على ذلك خمس سنوات، إنه يؤكد أنه قد رأى بقعة سوداء طويلة، من الجائز أنها غابات .

صمت، أين يمكن لدروغو أن يكون قد رأى عالماً كهذا ؟ ربما كان قد عاشه في الحلم، أو أنه تخيله وهو يقرأ خرافة قديمة، بدا له أنه يتعرف إليها، الصخور المنخفضة التي تشبه الأطلال، الوادي المتعرج والخالي من أية نبتة أو خضرة ، الهاوية الزوراء ، ثم أخيراً ذلك المثلث السهلي المنعزل الذي يبدو أنه حتى الصخور لم تفلح في حجبه عن الرؤية، أصداء روحية موغلة في العمق وهاهي ذي تستيقظ من جديد دون أن يكون قادراً على فهمها واستيضاحها، الآن، يقدّر دروغو عالم الشمال،هذه الأرض الخالية التي كما يقال لم يسبق أن وطأتها قدم إنسان ما، أبداً لم يأتِ من هناك أي عدو، لم يحارب أحد ما، لم يحدث أي شيء ما

.

تساءل مورل وهو يحاول أن يضفي على صوته طابعاً جذلاً :

ـ وهكذا، هكذا، هل يعجبك هذا؟

ـ مه .

لم يستطع دروغو أن يقول شيئاً آخر غير هذا، وقد جعلت تصطرع وتضطرم في داخله رغبات فوضوية وقد امتزجت بمخاوف لا مبرر لها، تناهى إلى سمعه صوت بوق، صوت نفير قصير، من يدري من أين أتى ؟

ـ من الأفضل لك أن تغادر الآن .

قال مورل ناصحاً، ولكن لم يبدو أن جوفاني قد سمعه، كان منشغلاً بالبحث عن شيء ما داخل أفكاره الخاصة، وقد بدأت أضواء المساء منهكة .

الريح وقد أيقظتها الظلال، جعلت تتدفق عبر البناء الهندسي للحصن، أما الحارس فقد جعل يتمشى وذلك كي يحصل على قليل من الدفء وهو يرمق جوفاني دروغو بين لحظة وأخرى، ذلك أنه كان بالنسبة له مجهول الهوية .

ـ من الأفضل لك أن ترحل في الحال، كرر مورل وهو يجر زميله من ذراعه .

كم من الأحايين عاش وحيداً، مرات عديدة، حتى في طفولته، تائهاً في الريف، أو في المدينة الليلية في بعض الأوقات، في الشوارع المكتظة بالمجرمين، بما في ذلك ليلة البارحة التي قضاها نائماً بينما كان يعتسف الطريق، ولكن الآن، الأمر مختلف تماماً، لقد انتهت تأثيرات السفر المهيجة، وزملاؤه الذين قد أووا إلى فرشهم، على حين كان هو ما يزال مستيقظاً، و يجلس في غرفته تحت ضوء القنديل، على طرف السرير، حزيناً ومبعثراً، الآن يمكن له أن يعي بالضبط ماذا تعني الوحدة (لم تكن الغرفة سيئة، أرضيتها مفروشة بالخشب، سرير كبير، طاولة و أريكة غير مريحة وخزانة) لقد أبدى الجميع نوعاً من اللطف إزاءه، في المطعم فتحوا زجاجة على شرفه، أما الآن الجميع يتجاهلونه ، لقد نسوه تماماً (فوق السرير كان ثمة صليب خشبي مثبت على الجدار، في الطرف الآخر ثمة كتابة طويلة يمكن قراءة، الكلمات الأولى منها كانت تقول :

HVMANISSIMI VIRI FRANCISSI ANGLOISI VITTITIBUS

لم يأتِ أحد ليلقي عليه التحية هذه الليلة، لا أحد في الحصن يفكّر فيه، ليس في داخل الحصن وحسب، بل فمن الجائز أنه في سائر أرجاء العالم لا توجد روح تفكر بدروغو، كل منشغل بنفسه وباهتماماته الخاصة، كل يفكر بنفسه، حتى أمه، ربما، حتى هي في هذه اللحظة منشغلة بأشياء أخرى، كان لجوفاني إخوة، لكنه كان هو دائماً محط اهتمامها، الآن، ربما، حان دور الآخرين، وهذا صحيح أيضاً، وهو شيء كان يؤكده جوفاني دروغو دون أدنى شك أو شعور بتبكيت الضمير، على كل، كان ما يزال جالساً على طرف السرير، في غرفة من غرف الحصن (ثمة حفر على خشب الجدار، لقد لاحظه للتو، صورة لخنجر في الحجم الطبيعي تقريباً، ملون بصبر غير عادي، حتى أنه للوهلة الأولى يمكن أن يبدو حقيقياً، عمل دقيق لأحد الضباط الذين مروا من هنا منذ زمن غير محدد)،

على كلٍّ، كان ثاوياً على طرف السرير، الرأس منحنٍ قليلاً نحو الأمام، ظهر منثنٍ، النظرات واهنة وثقيلة، وقد جعل يشعر بالوحدة كما لم يسبق أن حدث له أبداً في يوم من الأيام .

الآن، هاهو ذا دروغو ينهض متثاقلاً، يفتح النافذة ويحدق خارجاً، كانت النافذة تطل على الباحة، ولم يكن من الممكن رؤية شيء آخر، كان نظره مثبتاً نحو الجنوب، وقد حاول جوفاني أن يميز في عتمة الدجى الجبال التي قطعها قبل أن يصل إلى الحصن، يبدو أنها كانت أكثر انخفاضاً من الآن ، وقد غطاها السور الأمامي .

فقط ثلاث نوافذ كانت مضاءة، كانت تقع مواجهته مباشرة، هكذا لم تكن ممكنةً رؤية أي شيء بداخلها .

الهالة التي تشكلت حول أنوارها وحول ضوء دروغو كانت مطبوعة على الجدار المقابل، وقد تضخمت في إحداها كان ثمة ظل يتحرك، ربما كان ضابطاً يخلع ملابسه .

أغلق النافذة، خلع ملابسه، ثم اضطجع في السرير، بقي يفكر بعض الوقت وهو يحدق في السقف، كان السقف مغطى هو الآخر بالخشب، لقد غاب عن باله أن يحمل معه شيئاً للقراءة، لكنه لم يكن مهتماً بذلك في تلك الليلة، ذلك أنه كان يشعر بنعاس شديد، أطفأ القنديل، و من العتمة يبرز رويداً رويداً ظل النافذة المربعة على حين كان دروغو يراقب لمعان النجوم، خُيّل إليه أن ثمة خدراً مفاجئاً يجره نحو النوم، لكنه لم يكن واعياً لذلك تماما، ثمة صور فوضوية تعبر أرجاء مخيلته، من الجائز أنه حلم، وهاهي ذي تشكل قصة ما، بعد لحظات قصيرة تنبه إلى أنه مازال مستيقظاً .

إنه الآن مستيقظ أكثر من السابق، ذلك أن اتساع دائرة الصمت كانت تؤذيه .. بعيداً جداً، و لكن هل كان هذا حقيقياً ؟ سمع صوت سعال، ثم بعد ذلك صوتاً

رخواً لتدفق ما ينشر عبر الجدران، كان ثمة نجمةٌ صغيرة خضراء اللون (ظل دون أن يتحرك) بقيت في ظل رحلته الليلة هذه حتى وصل ضوؤها إلى الطرف العلوي للنافذة، سوف يختفي بعد قليل، لمع قليلاً في الجانب المعتم، ثم اختفى بعد هنيهة، كان دروغو يرغب في متابعة ذلك بعض الوقت، فحرك رأسه نحو الأمام، في تلك اللحظات سمع صوت ماء من جديد، كان أشبه بصوت شيء ما يسقط في الماء، هل سيتكرر هذا مرة أخرى ؟ انتظر قليلا ًيرصد الصوت، صخب كائنات أرضية، مياه باطنية، مرت دقائق ثابتة، تصاعد صخب الصمت المطلق، أخيراً هاهو ذا يلتقي بأسياد الحصن، من جديد، بزغت في ذهن دروغو صور لا معنى لها، وأنه لا معنى لهذه الحياة الطويلة .

(ploc) هو ذا من جديد ذلك الصوت الكريه، نهض دروغو من اضطجاعه واستقام جالساً .

لقد كان هذا بالتأكيد صخباً متكرراً، والدويٌّ الأخير لم يكن على كل حال أقل وقْعاً من الأول، ولم يكن بالتأكيد يبدو أنه انسكاب ماء في طريقه إلى النفاد، فكيف يمكن له أن ينام ؟ تذكر دروغو أنه إلى جانب السرير كان ثمة شيء أشبه بالذيل، ربما كان ذيل جرس ما، حاول جره، استجاب الذيل، وعبر انحناءات المبنى تردد رنين قصير ربما غير مدرك أو محسوس، يا للغباء ! الآن يتنبه دروغو،إيقاظ الناس من أجل تفاهة كهذه، ثم من عساه يكون القادم ؟

في الممر خارجاً تصاعد وقع خطوات، إنها تقترب شيئاً فشيئاً، ثمة من يقرع الباب، قال دروغو :

ـ تفضل .

برز جندي يحمل مشكاة بيده قائلاً :

ـ أمرك سيدي الملازم .

صرخ دروغو غاضباً :

ـ هنا لا سبيل إلى النوم أبداً، بحق الله، ما هذا الصخب الكريه؟ ثمة أنبوب يسيل منه الماء، حاول أن تضع حداً لكل هذا، لا يمكن النوم هكذا مطلقاً، إن الأمر يحتاج إلى وضع خرقة في داخله .

ـ إنه الخزان .

رد الجندي على الفور، وكما لو أنه بدا خبيراً بهذه الأشياء فقد تابع يقول :

ـ إنه الخزان يا سيدي الملازم، ولا يمكن فعل أي شيء .

ـ الخزان . . . !

أجاب الجندي :

ـ أجل يا سيدي، خزان الماء، إنه بالضبط خلف هذا الجدار، الكل يشتكي من جرّاء ذلك، ولكن لا سبيل إلى فعل أي شيء، لست الوحيد الذي يسمعه، حتى السيد الكابتن فوتزاز يصرخ بين الفينة والأخرى ولكن لا سبيل لفعل أي شيء .

رد دروغو :

ـ حسناً، إذهبْ، إذهبْ إذاً .

يغلق الباب، تبتعد الخطوات، يهيمن الصمت مرة أخرى، تلمع النجوم من خلال النافذة، يفكّر جوفاني الآن بالحراس الذين يسيرون على بعد أمتار منه وكأنهم آليّون دون أن ينالوا قسطاً من الراحة عشرات وعشرات هم الرجال المستيقظون الآن، في حين ما يزال هو في سريره، بينما كل شيء كان غارقاً في السبات العميق، عشرات وعشرات، فكّر دروغو، ولكن من أجل من ؟ ومن أجل أي شيء ؟ يبدو أن الشكليات العسكرية في هذا الحصن قد فعلت فعلها منجزة عملاً أحمق ومختلاً، مئات من الرجال يحرسون معبراً لم يمر به أي كائن أبداً . المغادرة، مغادرة هذا المكان في أسرع وقت ـ فكّر جوفاني ـ الخروج إلى حيث الهواء الطلق، خارج هذا اللغز الضبابي، آه . . . المنزل الأليف، في تلك اللحظة من المؤكد أن الأم مستغرقة في النوم كل الأنوار مطفأة، هذا إذا لم تكن ما تزال

غارقة في التفكير به، بل على العكس كان هذا الافتراض جد محتمل، إنه يعرفها جيداً، إن أصغر الأشياء يمكن أن تثير في داخلها القلق، وفي الليل تتقلب في فراشها دون أن تنال قسطاً من الراحة .

يتواصل صوت تدفق الخزان، تجتاز نجمة أخرى مجال الرؤية عبر النافذة، لكن ضوءها ما زال يصل إلى العالم، جدران الحصن نظرات الحرس المحمومة، إلا جوفاني دروغو الذي ما زال ينتظر النوم وقد هزت مشاعره أفكار مشؤومة، ماذا لو كانت كل ملاحظات ماتّي عبارة عن كوميديا ؟ ماذا لو أنه في الحقيقة وبعد مضيّ هذه الشهور الأربعة لم يسمحوا له بمغادرة المكان ؟ ماذا لو أنهم حرموه من العودة لرؤية المدينة عبر تقديم ذرائع سفسطائية مُقَنْونة ؟ ماذا لو أنه توجب عليه البقاء هنا لسنين وسنين ؟ في هذه الغرفة، وفوق هذا السرير المعبأ بالعزلة والوحدة، ماذا لو أنه أضاع كل شبابه هكذا ؟ فرضيات مستحيلة، قال دروغو، و هو يكاد يشعر بأنها مجرد حماقات .

لكنه بدا عاجزاً عن طردها خارج ذهنه، وهاهي ذي تعود لتطرق أبوابه وقد غمرتها وحدة هذه الليلة .

بدا له أنه يكاد يشعر بما يشبه المكيدة، وقد جعلت تحاك حوله وهي تقبض بنواجذها عليه، ربما أن الأمر لا يتعلق بماتّي، ولا بهؤلاء، ولا بالكولونيل، ولا بأي ضابط آخر، لا يوجد أي من هؤلاء من يهتم بأمره، ولو بالحد الأدنى لذلك، أن يبقى هنا أو يغادر بالتأكيد، هذه أمور لا تعني أحداً منهم، في كل الأحوال ثمة قوى جعلت تعمل في الخفاء فيما يتعلق بمسألة عودته إلى المدينة، من الجائز أن هذه القوى تنبع من داخله هو بالذات ودون أن ينتبه إلى ذلك .

ثم بعد ذلك شاهد ساحة، وجواداً ينطلق في طريق بيضاء، خُيّل إليه أنهم ينادون باسمه، ثم بعد ذلك غافله النوم .

بعد ليلتين صعد جوفاني دروغو، و للمرة الأولى إلى الخدمة في المحرس الثالث ، ففي حوالي السادسة مساءً تجمهر سبعة من الحرس في الساحة الرئيسة، ثلاثة لحراسة القلعة الرئيسة، و أربعة من أجل حراسة المخافر الجانبية، الحارس الثامن كان من أجل خدمة المحرس الجديد فقد غادر في وقت مبكر، ذلك أنه كان يتوجب عليه قطع طريق طويلة .

الرقيب ترونك، وهو مخلوق قديم من مخلوقات الحصن كان قد قاد الـ 28 رجلاً من أجل المحرس الثالث، ثم أنضاف إليهم نافخ البوق فأصبحوا 29، كان الجميع ينتمي إلى الفرقة العسكرية الثانية و التي كانت تتبع الكابتن أورتيز حيث كان قد أوعز إلى جوفاني بالخدمة فيها،تلقى دروغو الأوامر ثم أشهر السيف .

الحرس السبعة كانوا قد اصطفوا في طابور، ومن النافذة، وحسب التقاليد، كان الكولونيل يراقبهم، و على أرض الباحة الصفراء شكّلوا ما يشبه الرسم، جميل المنظر، السماء التي اجتاحتها الرياح كانت تتلألأ في أعلى الأسوار التي كان آخر شعاع من أشعة الشمس قد أخذ يقطعها بشكل مائل، إنها ليلة من ليالي أيلول، مساعد القائد، المقدم نيكولاتزي نائب الكولونيل كان يغادر بوابة القيادة وهو يعرج من جّراء جرح قديم مستنداً إلى السيف، ذلك اليوم كان مخصصاً للخدمة، نوع من أنواع التفقد أو التفتيش .

الكابتن الضخم مونتي كان يصدر الأوامر بصوت مبحوح، و كان الجميع،الجميع بشكل مطلق، الجنود يقدمون أسلحتهم وهي تصدر قرقعة معدنية هائلة ثم ما يلبث أن يرين صمت كبير .

إذاً الواحد تلو الآخر، كان نافخو الأبواق التابعون للحراس السبعة يعزفون المارشات العسكرية المعتادة، لقد كانت هي الأبواق الفضية الشهيرة لحصن باستياني، لها ذيول من الصوف الأحمر ومن الذهب، وقد طُبع عليها شعار كبير

.

صوت الأبواق الصافي كان ينتشر في أرجاء السماء فتتأرجح حراب البنادق الثابتة، وهي تصدر رنيناً غامضاً كأنها أجراس .

كان الجنود جامدين كالتماثيل، وجوه عسكرية مغلقة، لا بالطبع لم يكن يبدو أنهم في سبيلهم للقيام بمهمة حراسة معتادة، كانوا بأنظارهم التي تشبه نظرات الأبطال كمن يتهيأ للقاء عدو ما قادم، الجلجلة الأخيرة بقيت طويلاً في الهواء كأنما كانت ترددها الجدران، حراب البنادق ما تزال تومض براقة في مواجهة السماء العميقة تغوص في وسط الفرقة العسكرية ثم تنطفئ تلقائياً، كان الكولونيل مختفياً خلف النافذة، وقع خطوات الحرس السبعة كانت تصدر إشعاعات وهي تتجه صوب الجدار الأمامي، عابرة متاهات الحصن .

غبّ ساعة من الوقت، كان جوفاني دروغو يصعد الشرفة الأخيرة للمحرس الثالث، واقفاً في المكان الذي كان قد صعد إليه ليلة البارحة كي يشاهد الشمال، البارحة كان قد فعل ذلك يحدوه الفضول الذي يمكن أن ينتاب عابر سبيل، الآن إنه الرئيس، لمدة أربع و عشرين ساعة، سيكون هو الوحيد المسؤول عن المحرس بأسره، و عن مئة متر من الأسوار، أربعة جنود مدفعية كانوا قابعين تحته، في داخل الحصن الصغير، يمعنون النظر بحرص في المدافع المصوبة نحو الوادي، وكان ثمة ثلاثة حراس يتقاسمون حراسة الحافة الأخيرة التي تحيط بالمحرس، أربعة آخرون كانوا منتظمين على طول السور، إلى اليمين، خمسة وعشرون متراً كانت تفصل الواحد عن الأخر.

عملية استبدال الحرس تمت بدقة متناهية، و تحت أنظار الرقيب ترونك و هو إختصاصي في الانضباط لقد مضى على وجود ترونك في الحصن اثنان وعشرون عاماً، وهاهو ذا الآن لا يغادره حتى في أيام العطل أو الإجازات، لا يوجد من يضاهيه في معرفة التحصينات الدفاعية، وفي مرات عديدة كان الضباط

يصادفونه يتجول في الأنحاء جميعها وهو يعاين ويتبصر، في الظلام الحالك، ودون أي ضوء .

عندما يكون هو على رأس الخدمة، لا يمكن لأي حارس أن يبتعد عن بندقيته ولو للحظة واحدة، ولا يمكن لهم أن يستندوا إلى الجدار أو أن يتوقفوا عن السير، ذلك أن التوقف للاستراحة كان مسموحاً به فقط في حالات خاصة جداً وطوال الليل، لا ينام ترونك أبداً، وبخطوات صامتة كان يدور حول مسيرة الحرس وقد كانوا يرتعدون فَرَقاً منه .

من هناك ؟يرد الحرس وهم يمتشقون بنادقهم يجيب الرقيب "غروتّا " يقول الحارس " جورجيو " .

عملياً، كان الضباط وصف الضباط، في أثناء خدمة الحراسة يتجول كلٌ منهم عند حافة السور التابع له دون أية شكليات، كان الجنود يتعرفون عليهم لدى رؤيتهم، لذا فإن تبادل كلمات السر كان باعثاً على السخرية، فقط مع ترونك كان الجنود يطبقون الأوامر بحذافيرها .

كان ضئيل الحجم، نحيفاً، ذا وجهٍ أمْيل إلى الكهولة، وذا رأس حليق، يتكلم قليلاً، حتى مع زملائه وفي أوقات الفراغ فإنه يفضل أن يكرس وقته لدراسة الموسيقا، كان هذا جنونه، على كلٍّ معلم الفرقة الموسيقية، الماريشال إسبينيا كان صديقه الوحيد، كان هذا الأخير يمتلك آلة أوكورديون رائعة، لكنه لم يكن يعزف أبداً،قيل إنه كان بارعاً في العزف، ويبدو أن هذا أسطورة، كان يدرس الأرمونيا، وقد ادّعى أنه ألّف كثيراً من المعزوفات الموسيقية العسكرية، ولكن بشكل دقيق لم يكن يعزف على أي شيء إطلاقاً .

لم يكن ثمة أي خطر، فقد كان يقضي أوقات الخدمة وهو يصفّر، كما يفعل عادةً في أوقات الراحة، كان دائب التجوال عبر الفتحات التي تتوج الأبراج، يتقصى الوادي الشمالي، باحثاً عن شيء ما من يدري ما هو ؟ الآن هو بجانب

دروغو، مشيراً إلى الدرب الجبلي الذي تسير عليه البغال، الممتد على طول الجرف الجبلي الذي يقود إلى المحرس الجديد .

ـ هذه هي بالضبط الحراسة المفككة .

قال ترونك وهو يشير بسبابته اليمنى، ولكن في الظل المهيمن لم يكن ميسوراً بالنسبة لدروغو تمييز أي شيء، الرقيب يخفض رأسه .

تساءل دروغو .

ـ ماذا هنالك ؟

أجاب ترونك :

ـ هناك، الخدمة بهذه الطريقة لا يمكن أن تكون بهذا الشكل، لا يمكن أن تكون سليمة، لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحو، لقد سبق لي أن قلت ذلك مراراً، إن هذا جنون مطبق .

ـ ولكن ما الذي حدث بالضبط ؟

كرر ترونك :

ـ الخدمة بهذه الطريقة لا يمكن أن تكون سليمة، يجب القيام بتبديل الحرس أولاً في المحرس الجديد، ولكن السيد الكولونيل لا يرغب بذلك .

كان جوفاني يحدق فيه مدهوشاً، هل من الممكن أن يسمح ترونك لنفسه بانتقاد الكولونيل بهذا الشكل .

ـ السيد الكولونيل !

تابع العريف الأكبر بجدية عميقة، وبقناعة، لم يكن يقوم بتعديل كلماته الأخيرة بالطبع :

ـ إنه محق بشكل تام حسب وجهة نظره، ولم يسبق أن جاء أحد ليشرح له خطر ذلك .

ـ خطر ذلك !

تساءل دروغو، أي خطر يمكن أن يكون عندما يتم التنقل بين الحصن والمحرس الجديد، في درب مريحة كهذه ؟!.

كرر ترونك :

ـ الحذر، يوماً ما سيحدث شيء ما في هذا الظلام .

تساءل دروغو بتأدب :

ـ إذاً ما الذي يتوجب فعله ؟

كان يشعر بأن هذه القصة كلها تهمه بشكل نسبي .

ـ يوماً ما .

كرّرالرقيب، وهو يشعر بغِبْطةٍ لأنه يستطيع أن يختال بقوة تأثيره تلك :

ـ يوماً ما، سيتبدل الحرس في المحرس الجديد ساعتين قبل الحصن، ودائماً في النهار، حتى في الشتاء،هَبْ إن موضوع كلمة السر سوف يغدو أكثر بساطة، سوف يلزمنا واحدة من أجل الدخول إلى المحرس، وواحدة أخرى من أجل يوم الحراسة والعودة إلى الحصن تكفي اثنتان ، عندما يعود الحرس إلى الحصن فإن الحرس الجديد لن يكونوا قد بدؤوا بأخذ أماكنهم، على حين أن كلمة السر سوف تكون هي هي لم تتغير بعد .

رد دروغو وهو يحاول أن لا يبقى بعيداً هكذا :

ـ هذا حق، إني أفهم .

ثم شرع ترونك يروي :

ـ ثم بعد ذلك، لقد شعروا بالخوف، إن هذا تهور، هكذا قالوا، أن تترك خارج الحدود عدداً كبيراً من الجنود عارفين لكلمة السر، من يدري : قالوا،من السهل جداً أن يخون أحد الجنود،أكّد دروغو :

ـ هذا حق .

ـ إذاً فقد فكّروا، أن من الأفضل ألاّ يعرف كلمة السر إلاّ القائد وحده، وهكذا

فهؤلاء، الآن يخرجون من الحصن ثلاثة أرباع الساعة قبل عملية تبديل الحرس في الحصن، لنأخذ اليوم مثلاً، التبديل العام حدث في السادسة، حرس المحرس الجديد غادروا من هنا حوالي الخامسة والربع، ثم وصلوا في السادسة تماماً، على كلٍّ من أجل مغادرة الحصن ليسوا في حاجة إلى كلمة سر، ذلك لأنها فصيلة مؤخرة، أما من أجل الدخول إلى الحصن فأنهم بحاجة إلى كلمة السر، كلمة البارحة، وهذه يعرفها الضابط فقط، وما إن يحدث التبديل في المحرس حتى تبدأ في العمل كلمة اليوم، وهذه لا يعرفها سوى الضابط،وهكذا يستمر الأمر لمدة أربع وعشرين ساعة وحتى مجيء الحرس الجدد ليقوموا بالتبديل المطلوب،غداً مساءً سيعود الجنود (يمكنهم أن يصلوا في السادسة والنصف، ذلك أن الطريق أقل إثارةً للتعب في أثناء العودة) في الحصن ستكون كلمة السر هي الأخرى قد تبدلت، إذاً فالضابط يجب أن يعرف ثلاث كلمات سر، تلك التي تستعمل في الذهاب، وتلك التي تستهلك في أثناء الخدمة، وتلك التي تفيد عند الإياب،كل هذه التعقيدات سببها أن الجنود وهم في الطريق لا يعرفون شيئاً، وأنا أقول،

تابع دون أن يهمه ما إذا كان دروغو يفهم ما يقول أم لا :

ـ أنا أقول، لما كانت كلمة السر معروفة من قبل الضباط وحسب وهذا قد يحدث أن يصاب بسوء في أثناء العودة، ماذا يتوجب على الجنود أن يفعلوه ؟ هل يستطيعون أن يكرهوه على الكلام ؟ وهم لا يستطيعون حتى العودة من حيث أتوا ذلك لأن كلمة السر كانت قد تغيرت، إنهم لا يحسبون حساباً لهذا ؟ ثم لمّا كانوا حريصين جداً على السرية فإنهم لا ينتبهون إلى أنهم بهذه الطريقة يضطرون إلى استخدام ثلاث كلمات سر بدلاً من اثنتين، وأن الكلمة الثالثة، تلك التي تفيد في أثناء العودة إلى الحصن أقول تلك الثالثة تظل معروفة لمدة أربع وعشرين ساعة إن أي شيء قد يحدث فإنهم مضطرون للحفاظ عليها، ذلك لأنهم بدون ذلك لا يمكن للجنود أن يعودوا .

اعترض دروغو :

ـ ولكن، عند الباب، سوف يتعرفون عليهم، سوف يدركون بأنهم هؤلاء هم الحرس الذين أنهوا مهمتهم .

نظر ترونك إلى الملازم نظرة متعالية وهو يقول :

ـ هذا ممكن أيها السيد الملازم، ولكن ثمة قانون في الحصن يقضي بأنه لا يمكن لكائن من كان أن يدخل إلى الحصن من باب الشمال دون أن يفضي بكلمة السر، كائناً من كان .

قال دروغو وقد أغاظته هذه الصراحة غير المعقولة :

ـ إذاً هل من الممكن اختيار كلمة سر خاصة بالمحرس الجديد ؟ يقومون بتبديل الحراسة قبلاً، والكلمة اللازمة من أجل الدخول لا يعرفها سوى الضابط، هكذا لن يكون بمقدور الجنود أن يعلموا أي شئ عنها .

ـ هذا مفهوم .

قال العريف وهو يكاد يشعر بالنصر، وكأنه كان ينتظر بالضبط هذا الاعتراض ثم تابع :

ـ سيكون، ربما، هو الحل الأمثل، ولكن سوف يتوجب عليهم في هذه الحالة تغيير النظام، وهذا سوف يحتاج إلى قانون، النظام يقول (يجب أن يكون للصوت وقع تعليمي) إن كلمة السر تبقى لمدة أربع وعشرين ساعة ما بين تبديل الحرس والتبديل الآخر،كلمة السر تبقى سارية المفعول في الحصن وعليها يتم الاعتماد، لنتحدث بوضوح لا توجد أية إمكانية للخداع .

قال دروغو دون أن يكون منتبهاً جيداً منذ البداية :

ـ ولكن في يوم من الأيام، كان تبديل الحرس في المحرس الجديد يتم قبلاً ؟

هتف ترونك ثم قال مصححاً :

ـ هذا مؤكد، أجل أيها السيد، فقط منذ سنتين بدأت هذه القصة، قبل ذلك كان

الوضع أفضل بكثير .

صمت العريف، كان دروغو يحدق فيه مبهوتاً .

بعد اثنتين وعشرين سنة من الخدمة في هذا الحصن ؟ ما الذي تبقى من هذا الجندي ؟ هل ما زال يُذكر في جزء من أجزاء العالم على أنه موجود ؟ هنالك الملايين من الرجال الذين يشبهونه لكنهم لا يرتدون الزي الرسمي وهم يتنقلون أحراراً في المدينة، على حين يحمل الليل إليهم لذة الانغماس في الفراش أو الذهاب إلى المطاعم أو إلى المسارح ؟ لا، ما إن تنظر إليه حتى تفهمه جيداً لقد نسي تماماً الرجال الآخرين، لم يذكر وجود أي شيء آخر سوى الحصن بنظامه الكريه، لم يعد يذكر ترونك، كيف تدندن الفتيات بأصواتهن العذبة ولم يعد يذكر كيف هي الحدائق، ولا الأنهار، ولا الأشجار، باستثناء الجنبات النحيلة النادرة التي تحيط بالحصن .

أجل، كان ترونك يحدق نحو الشمال، لكنه لم يكن يحمل روح دروغو، إنه يثبت نظراته على الدرب المؤدي إلى المحرس الجديد الخندق، السور الخارجي، مستطلعاً طرق الدخول الممكنة، ولكن لا الصخور المتوحشة ولا ذلك السهل المثلثي الشكل المملوء بالأسرار والألغاز، ولا حتى الغيوم البيضاء التي تبحر في سماء ليلية تقريباً .

وهكذا بينما كانت تخيم العتمة، داهمت دروغو من جديد الرغبة في الفرار، لِمَ لمْ يذهب في الحال ؟ إنه يؤنب نفسه، ذلك لأنه ترك نفسه تهوي في الأحابيل الدبلوماسية لماتّي ؟ الآن يجب عليه أن ينتظر نهاية الأشهر الأربعة، مائة وعشرين يوماً طويلاً، نصف هذه المدة سوف يقضيها في حراسة السور، يبدو له أنه موجود مع أناس من عرق مختلف، في أرض غريبة، عالم قاس وجامد، وهاهو ذا يحدق فيما حوله فيتعرف على ترونك الذي كان يراقب الحرس دون حراك .

- VI -

كان الليل قد هبط، بينما دروغو ثاوياً في غرفة المحرس العارية أحضر أوراقاً و مداداً و قلماً من أجل الكتابة، " أمي الغالية ... " بدأ بالكتابة، ثم ما لبث أن دهمه شعور عاد به إلى زمن كان فيه طفلاً، و تحت ضوء مشكاة، بينما لم يكن يراه أحد ، و في قلب الحصن الذي كان بالنسبة إليه مجهولاً، بعيداً عن بيته، عن كل الأشياء المألوفة و الطيبة، لقد بدا له نوعاً من العزاء أن يكون قادراً على فتح قلبه بشكل كامل بالتأكيد، بصحبة الآخرين، الزملاء الضباط، كان يجب أن يظهر أمامهم على أنه رجل، أن يضحك معهم، أن يروي قصصاً مختالة لجنود أو نساء، إلى من يمكن له أن يقول الحقيقة إلى من يمكن أن يرسلها إن لم يكن إلى أمه ؟ إنها الحقيقة بالنسبة إلى دروغو، ولم تكن هذه الليلة حقيقة جندي ماهر، حقيقة لم تكن ـ ربما ـ خليقة بصرامة الحصن، من الجائز أنَّ هذا سيثير الضحك في نفوس الرفاق،الحقيقة هي التعب من السفر، طغيان الأسوار الكئيبة، شعوره بأنه وحيد بشكل مطلق .

" لقد وصلت مهدهداً بعد يومين من السفر المضني " هذا ما كان سيكتبه ثم " وصلت، و قد علمت بأني أستطيع العودة إلى المدينة، الحصن مثير للأسى، لا توجد بلدان قريبة، لا يوجد أي مجال للتسلية،

و لا أي فرح " هذا ما كان سيكتبه .

لكن دروغو تذكر أمه، في هذه اللحظة بالضبط لا بد أنها تفكر فيه، تمنّي نفسها بفكرة أن ابنها يمضي أوقاتاً سعيدة مع أصدقاء لطيفين، من الممكن، من يدري ، أن يكون بصحبة طيبة،إنها بالتأكيد تعتقد بأنه راضٍ كل الرضى وقرير العين .

" أمي الغالية " تكتب يده " لقد وصلت الليلة قبل البارحة بعد رحلة عظيمة، الحصن ضخم للغاية ... "

آه، إن تجعلها تحيط ببؤس هذه الأسوار، تلك الرائحة الغامضة للتعذيب أو للنفي، أولئك الرجال الغرباء و غير المعقولين،على العكس من ذلك " لقد استقبلني الضباط هنا بمحبة خالصة " كتب ...حتى الميجور المساعد كان لطيفاً معي للغاية، لقد تركوني حراً بشكل كامل، تركوا لي مطلق الحرية بالعودة إلى المدينة إن شئت ... أما أنا ... "

من الجائز أن الأم في هذه اللحظة تدور في غرفته المهجورة، تفتح أحد الأدراج، تصفف ملابسه القديمة أو كتبه، طاولة الكتابة، لقد سبق لها أن نظمتها مرات عديدة، و لكنها تكاد تشعر بوجوده بقربها و هي تقوم بفعل هذه الأشياء، كأنه في سبيله للعودة إلى البيت، كما جرت العادة، قبل الغداء، يخيل إليها أنها تسمع الصخب الذي يحدثه وقع خطواته المضطربة، و الذي كان يومئ بأنه قلق من شيء ما.

كيف يمكن له أن ينغص عليها حياتها ؟ لو أنه كان بقربها، في الحجرة نفسها ، يروي لها كل شيء تحت الضوء المألوف، إذاً نعم، ربما قال جوفاني الحقيقة كاملة، و لن يكون لديها متسع من الوقت لتشعر بالكدر، ذلك لأنه الآن بقربها و قد مر كل شيء بشع و مرّ. ولكن هكذا، بعيداً عنها، و عبر رسالة، جالساً بقربها، أمام الموقد، وفي ظل الطمأنينة المؤكدة للبيت العتيق، إذاً لتحدث إليها عن الميجور ماتّي، عن مجاملاته الماكرة، عن جنون ترونك، لروى لها كيف قَبل وبمنتهى الغباء و السذاجة أن يبقى هنا مدة أربعة أشهر و ربما ضحك الاثنان من جرّاء كل هذا، و لكن ما السبيل إلى فعل كل هذا، هكذا بعيداً عنها " أما أنا " يكتب دروغو " لقد ساورني الاعتقاد أنه من الأفضل لي ولوظيفتي أن أبقى بعض الوقت هنا ثم أن الصحبة هنا جد لطيفة، الخدمة سهلة للغاية، و هي

ليست متعبة " ثم ماذا عن غرفته؟ عن الصخب الذي يحدثه خزان المياه، عن لقائه بالكابتن أورتيز، وأرض الشمال التي تغوص بالعزلة هل يمكن له أن يشرح لها عن النظم الحديدية للحراسة، عن المحرس العاري الذي يحضر الآن فيه ؟ لا،يستطيع أن يكون صريحاً مع أمه، ولا يمكنه أن يُسِرّ إليها بمخاوفه الدفينة التي لا تتركه يعيش بسلام، في بيته، في المدينة، ثمة ساعات الواحدة تلو الأخرى، ذوات نغمات مختلفة، الآن تدق الساعة العاشرة، وعلى دقاتها ترن بخفةٍ كؤوس الإيمان، ومن المطبخ يتصاعد صدى ضحكة، ومن الطرف الآخر للشارع يصل عزف على البيانو، وعبر نافذة ضيقة للغاية، كأنها كوة في حصن أو في قلعة، ومن المكان الذي كان يجلس فيه دروغو، كان بوسعه أن يلقي نظرة نحو الوادي الشمالي تلك الأرض الحزينة، ولكن الآن لا يمكن رؤية أي شيء سوى الدجى، القلم يطقطق بعض الشيء، ذلك أن الليل كان قد أعلن انتصاره، وقد بدأت الريح تصفر بين الأسوار حاملة رسائل مجهولة، وبينما هو داخل المحرس أخذت الحلكة القاتمة تتراكم سميكة، أما الهواء فقد غدا رطباً وجامداً، " بشكل عام، أشعر بسعادة غامرة، وأنا في أطيب حال " هذا ما كتبه جوفاني دروغو، من الساعة التاسعة وحتى بزوغ ضوء الشفق، كان ثمة جرس يرن كل نصف ساعة، تتصاعد دقاته من المحرس الرابع الواقع في أقصى الطرف الأيمن للمعبر، هناك حيث ينتهي السور، يرن جرس صغير، ثم ما يلبث أن ينادي الحارس الأخير زميله الثاوي بقربه، ومن هذا إلى الجندي التالي، وهكذا إلى الأمام حتى النهاية الأخرى للسور، من محرس إلى آخر، وعبر المدخل الأمامي، وعلى طول الحصن، يركض النداء في القمة، استعداد استعداد، لم يكن الحرس يبدون أي تحمس للنداء، بل كانوا يرددون آلياً، وبصوت ذي طابع غريب .

وبينما كان جوفاني دروغو مضطجعاً في سريره، ودون أن يخلع ملابسه، استولى عليه شعور طاغ بالخدر والفتور، وقد جعل يتناهى إليه من بعيد،

وبـصوت متقطـع هـذا الـصراخ " آ .. آ .. آ.. " ثـم مـا يلبـث أن يعلـوا رويـداً رويداً،كان يمر من فوقه بأقصى شدة ممكنة، ثم يبتعد عن الطرف الآخر، متهاويـاً قليلاً ًقليلاً في العدم . بعد دقيقتين، هـاهو ذا يعود مرة أخرى، منبعثـاً كأنـه يؤكد نفسه من الطرف الأيسر للحصن، كـان دروغـو مـا زال يـسمعه يقترب، بخطـوات بطيئة ومتساوية " آ .. آ .. آ .. " فقط عندما أصبح فوقه تماماً، وقد أخذ الحراس التابعون له يرددونه، استطاع أن يميز الكلمة، و لكن سُرْعان مـا اختلطـت كلمـة ـ استعداد ـ مع صوت يشبه الشكوى كان ينتهي ميتاً " عنـد آخـر حـارس، يرتـد عنـد أقدام الـصخور،استطاع جوفـاني أن يـسمع النـداء أربـع مـرات، ثـم أربـع مـرات ينحدر صوب حرف الحصن منتهياً عند النقطـة نفسها التـي ابتدأ منهـا، فـي المرة الخامسة، تناهى إلى مسمع دروغو صدى أو دوي غامض، مما جعلـه يثب واثقـاً، ثم خطر بباله، أنه أمْرٌ غير مستحب أن ينام ضابط الحراسـة ، ورغم أن الأنظمـة تسمح له بذلك شرط أن لا يخلع ملابسه ـ وبشكلٍ تقريبي ـ مع أن ضـباط الحـصن الحديثي العهد، يظلون ساهرين الليل بطوله كنوع من العجرفة الأنيقة، يقرؤون و يدخنون السيجار، و من الجائز أن يقوم أحدهم بزيارة الآخر بشكل مفرط و يلعب الورق معه، لقد سبق لجوفاني أن سأل ترونك عن بعض المعلومـات، فـأوحى إليـه أنه من المستحسن أن يبقى ساهراً.

مضطجعاً فوق السرير الصغير، بعيداً عن الهالـة التـي تكونـت حـول القنديل المنير، و قد حلق بخياله حول حياته الخاصة، إلا أن النـوم أخـذه علـى حين غِرّةٍ، بالضبط هذه الليلة، آه، لو أنه كـان يعرف بحقيقـة الأمر،لكـان مـن الجـائز ألاّ تـأتيـه الرغبـة فـي النـوم، فبالـضبط هذه الليلـة بـدا لديـه أن الهروب المتعذر إعادتـه،هو هروب الزمن .

حتى الآن، كان مدفوعاً بعدم الاكتراث الذي يـصاحب عـادة المرحلـة الأولـى من الشباب، إنها طريق للأطفال تبدو لا نـهائية، إذ تمر السنون، بطيئة، بخطـوات

خفيفة، إذ لا أحد يستطيع ملاحظة مرورها، تسير وادعةً، يتطلع المرء خلالها حوله بفضول، ليس ثمة حاجة إلى الاستعمال، لا شيء يدفع من الخلف، ولا شيء ينتظرنا، فالرفاق يفعلون ذلك دون تفكير وغالباً ما يتوقفون، عند البيوت، وعلى الأبواب يتبادلون المزاح، والكبار يؤدون التحية بحنو، ثم ما يلبثون أن يشيروا إلى الأفق بابتسامات متفق عليها، هكذا يبدأ القلب بالخفقان ببطولة، وبرغبات رقيقة يتدفق طعم الأشياء الرائعة التي تنتظرنا في المستقبل وليس من الممكن رؤيتها الآن، لا، فقط علينا أولاً أن نعبر النهر، هناك في الأسفل، في العمق، وأن نختار تلك الهضاب الخضراء، ثم، ماذا لو أننا وبالصادفة وصلنا ؟ ربما ليست هذه الأشجار، هذه المراعي، تلك البيوت البيضاء، ربما ليس هذا ما نبحث عنه ! أحياناً نشعر أنها هي ذي، فنرغب في التوقف، ثم نسمع قائلاً يقول إن الأحلى هو القادم، وهو أمامنا لذا نعود فنستأنف المسير، وهكذا نتابع سيرنا بثقة منتظرة، الأيام طوالٌ هادئةٌ ومطمئنةٌ، الشمس تسطع عالياً في السماء، ولا يبدو عليها أنها تميل إلى الغروب.

ولكن وفي لحظة ، ربما غريزياً، نستدير نحو الخلف، ثم ندرك أن بوابة قد أغلقت خلف أكتافنا، لقد أغلق طريق العودة بوجهنا، عندئذ نشعر بأن ثمة شيئاً قد تغير، الشمس ليست ثابتة تماماً، بل تتحرك بسرعة، ولا نملك من الوقت ما يكفي لتثبيت أنظارنا عليها، إذ كانت قد وصلت عند النهر وخلف الأفق، ثم ننتبه إلى أن الغيوم ليست ثابتة في الخلجان الزرقاء للسماء، بل إنها تسرع إلى الهروب الواحدة تلو الأخرى، على كل من هنا ينبجس الكدر، ثم نعي أن الزمان يمر، وأن الطريق سوف تنتهي يوماً ما .

وعندما تُغلق، في لحظة ما، عند أكتافنا، بوابة ثقيلة، ثم تُغلق عليك بسرعة مفاجئة، لا يعود أمامك أية إمكانية للعودة .

لكن جوفاني دروغو كان ينام في تلك اللحظة غافلاً و قد أخذ يبتسم وفي أثناء

رقاده كالأطفال، مرت بضعة أيام قبل أن يفهم دروغو ما حدث، لقد كان في شبه يقظةٍ، و هاهو ذا يحدق فيما حوله متشككاً، ثم ما يلبث أن يتحسس وقع أقدامه الذي يتناهى إلى مسامعه، سيرى الناس

و قد استيقظوا قبله يركضون مرهقين، يتجاوزونه، كلٌّ يريد أن يصل قبلاً، سيستمع إلى رجْع الزمان و هي يستهلك الحياة بشراهة، ولم يكن من الممكن رؤية الناس وهم على النوافذ ضاحكين مستبشرين، و لكن وجوهاً واجمة ولا مبالية، و إذا ما صدف وسأل كم من الطريق بقي أمامه سوف يشيرون مرة أخرى إلى الأفق، و لكن دون أي طيبة أو بهجة، على كلٍ سوف يغيب الرفاق عن أنظاره، ويبقى في المؤخرة متهالكاً، والأخر هارب إلى الأمام، الآن لم يعد سوى نقطة ضئيلة من الأفق، خلف هذا النهر- سيقول الناس - ثمة عشرة كيلو مترات ونصل، على العكس من ذلك، لن تنتهي الطريق أبداً، النهارات ستغدو دائماً أقصر مما مضى، رفاق الرحلة غير متماسكين، و على النوافذ يمكن مشاهدة صورٍ شاحبة تخفض الرؤوس .

و بينما دروغو وحيداً تماماً، يتضح عند الأفق بحر ثابت لا حدود له، ذو لون رصاصي، الآن سيغدو منهكاً، البيوت التي سوف يمر بها في طريقه ستكون نوافذها موصدة بوجهه، وثمة القليل من الأشخاص المرئيين، سيجيبون عن الأسئلة بحركات بائسة، الجيد غدا وراءه تماماً، إنه في الخلف كثيراً، لقد مرَّ به دون أن ينتبه إليه، آه، إن الوقت متأخر جداً للعودة، خلفه سوف تزداد الجموع الغفيرة التي تتبعه، مدفوعة بأوهامه نفسها، لكنها ليست مرئية بعد على الطريق البيضاء المتصحرة .

الآن جوفاني دروغو ينام في المحرس الثالث، إنه يحلم ويبتسم، إنها المرة الأخيرة التي تأتيه في الأحلام صور حلوة لعالم سعيد، لو أنه استطاع أن يرى نفسه لكانت هذه هي المصيبة، كيف سيكون يوماً ما؟

هناك حيث ينتهي الطريق، واقفاً على شاطئ البحر الرصاصي تحت سماء فضية ومتجانسة، وليس ثمة بيت أو شجرة أو إنسان ولا خيط عشب كل هذا يأتي عبر زمان غابر وقصي .

- VII -

أخيراً وصل الصندوق الذي يحمل ثياب الملازم دروغو، كان ثمة رداء جديد بينها، رداء جد أنيق، ارتداه دروغو ثم وقف هنيهة أمام المرآة في غرفته يحدق في نفسه،بدا له أن هذا عبارة عن شيء ذي صلة بعالمه الحقيقي، فتمنى أن يشاهده الآخرون في هذه الحالة، كان الرداء مصنوعاً من نسيج رائع، عليه تزيينات جعلت دروغو يشعر بالفخر وهو يرتديه، ثم فكر أنه من الواجب أن لا يرتديه ـ حتى لا يفسده في هذا الحصن ـ في أوقات خدمة الحراسة، بين تلك الأسوار الرطبة، ولكنه ركن فكره في جانب معين من الغرفة كانت تمثل نوعاً من سوء الطالع، للمرة الأولى كان دروغو مستعداً للاعتراف بأنه لم يسبق أن سنحت له فرصة أفضل من تلك، ولكن مما يثير الأسف في داخله أنه لا يتبختر به هنا وهناك مفسحاً المجال أمام الآخرين لكي يروه، ولمّا لم يكن يشعر بالبرد، فقد رغب في ارتدائه والذهاب إلى خياط الفوج إذ يمكنه على الأقل شراء واحد آخر من نوع مألوف .

غادر غرفته، ثم اجتاز السلالم، وهو يرقب أناقة ظله ـ بمقدار ما كان الضوء يسمح له بذلك ـ ولكن في أية حال، ورويداً رويداً، بينما كان يهبط في قلب الحصن، بدا له أن الرداء قد أخذ يفقد شيئاً من بريقه، ثم تنبه إلى أنه لم يعد قادراً على حمله والسير فيه بشكل طبيعي جداً، لقد بدا له شيئاً غريباً، شيئاً لافتاً للانتباه، لذا فقد غمرته سعادةٌ وهو ينظر إلى السلالم والممرات التي كانت خالية، ثم مر من أمامه كابتن فرد على تحيته دون أن يرفع الكابتن عينيه أكثر مما ينبغي، حتى الجنود القلائل لم يكونوا ليجولوا بأبصارهم بغية ملاحظته .

هبط سلماً حلزونياً ضيقاً، كان يقطعه سور صغير، وقد أخذت أصوات قدميه

تتصاعد من أعلى ومن أسفل كأنما ثمة أناس هناك .

كانت ثنيّات الرداء الثخينة تخشخش، ثم تهتز، وهي تمس العفن الأبيض للجدران، وهكذا وصل دروغو إلى الطابق السفلي، كان مخزن الخياط برودسدوشيمو قائماً تماماً في مكان مخزن النبيذ، ثمة خيط من الضوء كان يصل في النهارات الساطعة من نافذة تقع بالضبط على مستوى الأرض، ولكن في ذلك المساء كانوا قد أضاؤوا الأنوار في وقت مبكر، ما إن أبصر خياط الفرقة برودسدوشيمو دروغو حتى حياه قائلاً :

ـ عِمْتَ مساءً أيها السيد الملازم .

كانت غرفته الصغيرة مضاءة في بعض جوانبها، ثمة طاولة جثم عليها عجوز وقد انخرط في الكتابة، ثمة مصطبة جلس إليها ثلاثة شبان يعملون كمساعدين، كل شيء حولهم ينسدل واهياً، إلى يسارهم علقت عشرات وعشرات من البزات، من المعاطف الثقيلة، ثم من الأردية المتنوعة .

رد دروغو :

ـ مساء الخير، أريد خياطة رداء، لا أريده أن يكلفني الكثير المهم، ما أرغب فيه أن أستطيع أن أمضي فيه ثلاثة أو أربعة أشهر فقط،

ـ دعني أرى

قال الخياط وقد ندت عنه ابتسامة متوجسة، ثم أمسك بطرف رداء دروغو وهو يسحبه باتجاه الضوء، الخياط كان برتبة مارشال، ولكن تخصصه كخياط جعل له الحق في أن يمزح مع ذوي الرتب العليا .

ردد الخياط :

ـ نسيج جميل، حقاً جميل، يبدو أنك دفعت ثمنه الكثير، يمكنني تصور ذلك، هناك في المدينة ليس ثمة مجال للمزاح .

ألقى نظرة عميقة كمتخصص، أخفض رأسه، مما جعل خداه المتوردان

يرتعشان، ثم قال :

ـ ولكن للأسف ...

ـ للأسف ماذا ؟

ـ من المؤسف أن تكون الياقة قصيرة جداً هكذا، إن هذا الرداء ليس بذي طابع عسكري .

رد دروغو بلهجة متعالية :

ـ هذا هو السائد الآن .

قال الخياط :

ــ أجل، الموضة هي موضة الياقة القصيرة، ولكن بالنسبة لنا نحن العسكريين لا مكان لدينا للموضة، إن الموضة عندنا هي ما يلائم الأنظمة، والأنظمة تقول : يجب أن تكون ياقة الرداء ملتصقة بالرقبة، ضيقة، مشكلة بشكل حزام ارتفاعه سبعة سنتمترات، قد ينتابك شعور أيها السيد الملازم وأنت تراني في هذا الجحر بأني أمتهن الخياطة منذ وقت قصير .

رد دروغو :

ـ لماذا ؟ الأمر عكس ذلك تماماً .

ـ قد ينتابك مثل هذا الشعور، ولكن تأكد بأن الكثير من الضباط يكنون لي الاحترام البالغ، حتى في المدينة، فأنا خياط من مستوى رفيع، إني هنا بصفة مؤقتة .

قال ذلك وهو يلفظ الكلمتين الأخيرتين كأنه يضفي على حديثه مزيداً من الأهمية، لم يكن دروغو يعرف ما يتوجب عليه قوله، لكن بروسدوشيمو تابع يقول :

ـ من يوم إلى آخر وأنا أنتظر مغادرة هذا المكان، لولا أن السيد الكولونيل لا يريد التخلي عني، ولكن ما الذي يثير ضحككم أنتم الآخرون ؟

بالفعل، ففي القمة، كانت تصدر ضحكات مخنوقة من المساعدين الثلاثة، ولكنهم في تلك اللحظة أخفضوا جباههم وانخرطوا يؤدون عملهم بشكل مبالغ فيه ومفرط، على حين كان العجوز ما يزال منخرطاً يتابع الكتابة، وقد حصر اهتمامه بنفسه وحسب .

كرر بروسدوشيمو :

ـ ما الذي يثير ضحككم ؟ انتم يقظون جداً، و لكن يوماً ما سوف تنتبهون أكثر .

قال دروغو :

ـ هذا حق، ما الذي يثير ضحككم ؟ ! .

قال الخياط :

ـ أنهم مجرد حمقى، و من الأفضل إغفالهم .

في تلك اللحظة كان يمكن سماع صوت خطوات تقترب، ثم ظهر جندي، إنهم ينادون على بروسدوشيمو هناك في الأعلى، لقد طلبه ماريشال مخزن الألبسة .

قال الخياط :

ـ أعذرني أيها الملازم،إنها مهمة عمل، و سوف أعود بعد دقيقتين .

ثم تبع الجندي صاعداً إلى الأعلى .

جلس دروغو متهيئاً للانتظار، عندها كف المساعدون الثلاثة عن العمل بعد أن غادر رئيسهم، ثم و أخيراً، رفع العجوز عينه، ثم نهض على قدميه واقترب زاحفاً نحو جوفاني .

ـ هل سمعته ؟

سأل العجوز بنبرةٍ غريبة، وهو يشير إلى الخياط الذي كان قد خرج.

ـ هل سمعته ؟ هل تعرف أيها الملازم منذ متى و هذا الخياط موجود هنا في هذا الحصن ؟!.

ـ به، ليس لدي أي فكرة .

ـ خمس عشر سنة، أيها الملازم، خمس عشرة سنة ملعونة و هو ما ينفك يردد القصة نفسها، إنني هنا بشكل مؤقت، من يوم لآخر و أنا أنتظر .

تصاعدت همهمة من جانب طاولة المساعدين، يبدو أن هذا الأمر هو ما كان يثير ضحكهم، لم يأبه العجوز لذلك، قال :

ـ إنه على العكس لا يحرك ساكناً، هو، والسيد الكولونيل،

و آخرون كثر يظلون حتى تتجعد وجوههم، إنه نوع من المرض، إنتبه أنت لذلك أيها السيد الملازم، إنك جديد هنا، لقد وصلت للتو، فانتبه، حتى يكون وقت ...

ـ أنتبه إلى ماذا ؟

ـ إلى الذهاب من هنا في أقرب فرصه تسنح لك، أن لا تتبع جنونهم .

قال دروغو :

ـ إنني هنا لأربعة أشهر فقط ، و ليس لدي أي نية للبقاء مدة أطول .

رد العجوز :

ـ في كل الأحوال، تبقى منتبهاً أيها الملازم . لقد بدأ الكولونيل بقوله أنه يتم التحضير لأحداث معينة هنا، لقد بدأ يقول ذلك، إني أذكر هذا جيداً، منذ ثماني عشرة سنة، بالضبط " أحداث " كان يقول، هذه هي جملته، لقد استبدت به فكرة أن الحصن مهم للغاية، إنه مهم أكثر من سائر الحصون الأخرى، و أنهم في المدينة لا يفقهون شيئاً .

عاد العجوز يتحدث ببطء، و بين الكلمة و الأخرى كانت تمر فترة من الصمت .

ـ استبدت به فكرة أن الحصن مهم جداً، وأن ثمة شيئاً ما سيحدث .

قال دروغو ضاحكاً :

ـ شيء ما سيحدث ؟ هل يعني الحرب بقوله هذا ؟

ـ من يدري ربما تكون الحرب .

ـ حرب قادمة من جهة الصحراء ؟

رد العجوز مؤكداً :

ـ أجل، حرب قادمة من جهة الصحراء ؟ هذا جد محتمل .

ـ و لكن من، من الذي يفترض أنه سوف يأتي ؟

ـ وما أدراني أنا ؟ لن يأتي أحد، هذا مفهوم، لكن السيد الكولونيل، قائد الحصن، يقول إنه قد درس الوقائع و الأوراق بشكل جيد، إنه يقول إنهم ما يزالون هنا، التتار، هكذا يقول، إنهم بقايا الجيش القديم الذي يتجول في الأعلى و الأسفل .

هناك، في الظل، كان يمكن ملاحظة ابتسامة بلهاء للمساعدين الثلاثة .

تابع العجوز قوله :

ـ و هم هنا ينتظرون، انظر إلى السيد الكولونيل، الكابتن ستيتزيون، السيد الكابتن أورتيز، السيد المقدم، في كل سنة عنده شيء يحدث، هكذا دائماً حتى يحيلونه إلى التقاعد، قطع العجوز حديثه، ثم مال برأسه إلى جهةٍ معينة كأنه يصغي، ثم قال :

ـ إخال أنني أسمع وقع خطوات .

لم يكن يُسمع أي شيء، قال دروغو :

ـ لا أسمع أي شيء .

قال العجوز :

ـ حتى بروسدوشيمو، إنه ماريشال بسيط، خياط الفرقة العسكرية، لكنه انضم إلى الآخرين، إنه ينتظر هو الآخر، منذ خمس عشر سنة، و لكنك أنت لست متحمساً أيها السيد الملازم، ألاحظ ذلك، أنت صامت، تفكر أن هذا كله عبارة عن

قصص، أنا أقول ذلك، إنك تترك نفسك عرضةً للإيحاءات، فإنك سوف تنتهي بالبقاء هنا، يكفي النظر في عينيك لمعرفة ذلك .

صمت دروغو، و قد بدا له الأمر غير لائق أن يسر بما يجول في خاطره إلى رجل فقير كهذا، لكنه قال :

ـ وأنت ماذا تفعل بالضبط ؟

رد العجوز:

ـ أنا ؟ أنا شقيقه، و أنا هنا كي أساعده .

ـ شقيقه، شقيقه الأكبر ؟

ابتسم العجوز قائلاً :

ـ هذا حق، الأخ الأكبر، فأنا عشت عسكرياً وذات يوم، أصبت في ساقي، فانتهيت إلى هذه النهاية هنا .

و في قلب الصمت، تحت الأرض، بدأ دروغو يستمع إلى دقات قلبه التي أخذت تضرب بعنف، وعلى أي حال، فمتى انسحب العجوز إلى مخبئه في العنبر ليدقق في حساباته، ذلك المخلوق المظلم و الحقيرالذي كان ينتظر قدراً بطولياً؟ ثبت جوفاني أنظاره عليه، وأخفض الأخر رأسه بعض الشيء و هو يشعر بمضاضةٍ مرّةٍ، و كأنه كان يقول نعم، كأنه يقول، أن لا علاج أبداً، لقد خلقنا هكذا، و لن نشفى أبداً، ربما لأن مدعاة ذلك هو أنه في طرف من أطراف السلالم انفتح باب، الآن يمكن سماع أصوات بعيدة، تصل مخترقة الجدران، أصوات آدمية لا يمكن تحديد مصدرها، كانت تخرس بعض الوقت، تاركةً فراغاً كبيراً، ثم رويداً رويداً تعود لتتردد، تذهب ثم تجيء، كأن الحصن يتنفس ببطءٍ .

وأخيراً بدأ دروغو يفهم، كان ما يزال يحدق في البزات الرسمية المعلقة، التي كانت تتراقص ظلالها بتأثير الأضواء المسلطة عليها، ثم فكّر أنه ربما في هذه اللحظة بالذات، يكون الكولونيل، في مكتبه السري، قد فتح النافذة المطلة على

الشمال، وذلك شيءٌ مؤكدٌ، وفي لحظة حزينة كهذه، كلحظات العتمة والخريف، فإن قائد الحصن يرنو ـ ولا بد ـ ببصره نحو الشمال، نحو هوة الوادي السوداء، سوف يأتيه البخت من صحراء الشمال هذه، الأحداث والمغامرات، اللحظة المعجزة التي مرت ـ و لا بد من وجود أحد ـ من أجل تلك اللحظة الطارئة، الغامضة، التي أخذت تغدو غير أكيدة بمرور الزمن، من أجل لحظة كهذه، فإن الكثير من الرجال يستهلكون الجزء الأجمل من حياتهم.

لم يكونوا قد تأقلموا مع الجزء المشترك، مع أفراح الناس العاديين، مع القدر المشترك، إنهم يحيون جنباً إلى جنب الآمال نفسها دون أن ينبسوا ببنت شفة، ذلك لأنهم غير منتبهين ـ أو ببساطة لأنهم كانوا جنوداً ـ ونفوسهم مليئةٌ بخفرٍ غيور .

وربما كان ترونك وهذا محتمل، و هوالذي يتبع قواعد الأنظمة، والمبادئ الرياضية، الفخر الوسواسي للشعور بالمسؤولية، متوهماً أن هذا كافٍ،كانوا يعبّرون عن ذلك بأنه ما داموا أحياء، فكل شيء متساوٍ عندهم،وكثيراً ما كان ترونك يستيقظ قائلاً، إن هذا مستحيل، يجب أن يحدث شيء مختلف، شيء لائق بشكل حقيقي، شيء يسمح بالقول، لقد نفد صبرنا .

لقد أدرك دروغو سرهم البسيط، و ببساطةٍ ظن نفسه خارج هذا كله، مشاهد لم تصبه بالعدوى، بعد أربعة أشهر، و الفضل في ذلك يرجع للآلهة، سوف يغادر هذا المكان و إلى الأبد، الفتنة الغامضة للكوخ العتيق قد بدأت تتخلخل، هكذا كان يفكر، و لكن لِمَ كان العجوز يثبت أنظاره عليه بهذا التعبير الغامض ؟ لِمَ كانت تنتاب دروغو رغبةٌ في الصفير، أو بشرب النبيذ، أو الخروج إلى العراء ؟ أمن الجائز أنه رغب في أن يثبت لنفسه أنه بحق حر وطليق.

- VIII -

الملازم كارلومورل، بيتر أنغوستينا، فرنشيسكو غروتّا، ماكس لاغوريو، هؤلاء الضباط هم أصدقاء دروغو الجدد، كانوا ملتفين حول المائدة، في تلك الساعة الفارغة، كان ثمة خادم مستنداً إلى باب بعيد، وعلى الجدران عُلّقَتْ صور للكولونيلات القدامى وقد غمرتها الظلال، ثم ثماني زجاجات سوداء فوق الطاولة و فوضى بقايا الغداء الذي تناولوه .

كان الجميع مضطرباً، سواء بفعل النبيذ، أم بتأثير الليلة الفائتة،

وعندما كانوا يصمتون قليلاً يتصاعد خارجاً صوت هطول المطر،

كان الجميع يحتفل بمناسبة مغادرة الكونت ماكس لاغوريو الذي يغادر غداً بعد خدمة استمرت سنتين في الحصن .

قال لاغوريو :

ـ هيه،أنغوستينا،إن كنت راغباً في الذهاب معي سوف أنتظرك.

قال ذلك بنبرته المازحة التي اعتاد الجميع عليها، لكن الكل كان يدرك

أنه يقول ذلك جاداً، حتى أنغوستينا كان قد أنجز سنتين من الخدمة في الحصن، لكنه لم يكن راغباً في السفر، كان أنغوستينا شاحباً وقد أغرقه العرق المتصبب منه، و كان يحس برغبة أبدية في أن يظل منفصلاً عنهم، كأنه لم يكن يأبه بهم، بدا أنه هنا بالمصادفة وحسب .

كرر لاغوريو، و كأنه يصرخ، واقفاً عند حدود السُكْرِ :

ـ أنغوستينا، إذا كنت راغباً في المجيء سوف انتظرك، أنا مستعد لانتظارك ثلاثة أيام، لم يجب الملازم أنغوستينا، بل ندّتْ عنه ابتسامة تحمل وصبر، كانت بزته الرسمية زرقاء و حائلة اللون بفعل تأثير الشمس، وهي مميزة عن باقي بزات الآخرين، حيث بدت أكثر إهمالاً.

توجه لاغوريو نحو الآخرين، مورل و غروتا، و دروغو قائلا :

ـ " قولوا له ذلك أنتم أيضاً " ؟

ثم وضع يده اليمنى فوق كتف أنغوستينا و هو يردف :

ـ تفعل خيراً إذا ما جئت معي إلى المدينة .

تساءل أنغوستينا بفضول :

ـ أفعل خيراً ؟ ...

ـ في المدينة ستكون بحال أفضل، هكذا كل شيء في المحصلة النهائية كما أعتقد أنا .

نشّف أنغوستينا عرقه قائلاً :

ـ ولا أحتاج إلى أي علاج .

ـ لم أقل إنك في حاجة لعلاج، إنما قلت إن ذلك سيكون خيراً لك .

قال لاغوريو ذلك، وفي الخارج كان يسمع صوت هطول المطر، مسح أنغوستينا شاربيه بإصبعه، كان يبدو أنه يشعر بالسأم، هذا ما كان بادياً عليه .

رد لاغوريو :

ـ فكّر بأمك، بذويك، تخيل عندما أمك . . . .

أجاب أنغوستينا بمرارة :

ـ أمي تعرف جيداً كيف تتأقلم .

فهم لاغوريو، لذا فقد جعل يغير الموضوع :

ـ قل لي يا أنغوستينا، هل تفكر بما عساه يكون قد حدث لكلاودينا ؟ لم ترك منذ سنتين .

رد أنغوستينا بفتور :

ـ كلاودينا ؟ ولكن أي كلاودينا ؟ لست أذكر شيئاً .

ـ هذا حق، إنك لا تذكر، لا يمكن الحديث معك في أي موضوع هذا المساء،

هذا ما يبدو لي، ولن يكون هذا سراً أبداً، أليس كذلك ؟ لقد كانت بصحبتك كل الأيام .

رد أنغوستينا وهو يحاول أن يبدو لطيفاً :

ـ آه ... الآن أتذكر، أجل، كلاوديـا، تصور، إنها لا تذكر الآن إن كنت موجوداً أم لا .

اعترض غروتّا :

ـ إيـه، قل غير هذا، نحن نعلم جيداً، إنهن كن يرغبن فيك كلهن، لا تتواضع الآن .

حدق فيه أنغوستينا دون أن يهتز له رمش، وقد بدا مصاباً ـ كان هذا واضحاً ـ بسبب كل هذه التفاهات والسطحية .

صمتوا، خارجاً، وفي قلب الليل، وتحت الأمطار الخريفية كان الحرس يتجولون، الماء يتدفق فوق الشرفة، يقرقر فوق السطح، ثم يسيل على الأسوار، في الخارج، كان الليل عميقاً، سعل أنغوستينا قليلاً، بدا غريباً أن يخرج صوت غير لائق من شاب لطيف مثله لكنه كان يسعل بمقياس معروف، خافضاً الرأس في كل مرة، و كأنه يشير في ذلك إلى أنه لا يستطيع إيقاف السعال، في الواقع، كان شيء لا يمت بصلةٍ إليه على حين يتوجب عليه تحمله، و هكذا تحول السعال إلى مداعبة شهوانية، خليقة بأن تقلد .

ثم ما لبث أن حل صمت مُعذّب، و قد شعر دروغو أن عليه أن يقطعه، فسأل :

ـ قل لي يا لاغوريو، في أي ساعةٍ تغادر غداً ؟

ـ حوالي العاشرة حسبما أعتقد، كنت أرغب في السفر في وقت مبكر، ولكن عليّ أن آخذ الإذن بالإنصراف من الكولونيل .

ـ الكولونيل ! إنه يستيقظ في الخامسة، صيفاً أم شتاءً في الخامسة، ألا تضيع

الوقت هكذا، ضحك لاغوريو قائلاً :

ـ لكنـي أنـا الـذي لا يـستيقظ فـي الخامـسة، علـى الأقل بالنـسبة إلـى الـصباح الأخير أريد أن أشعر بالراحة، ثم إنه لا أحد يلحق بي .

لاحظ مورل بحسد :

ـ إذاً سوف تصل بعد غد .

قال لاغوريو :

ـ يبدو لي مستحيلاً، أقسم لكم .

ـ ما هو المستحيل ؟

ـ أن أكون في المدينة بعد يومين (فترة صمت) و للأبد أيضاً .

كان أنغوستينا شاحباً، الآن، هو ذا ما ينفك يعبث بشاربيه، لكنه يثبت أنظاره في الظل المرسوم أمامه . الآن لقد غدا الشعور بالليل ثقيل الوطـأة، عنـدما تخـرج المخاوف من الجدران المصمتة، و تغدو التعاسة شيئاً حلو المذاق، عندما ترفـرف الـروح بأجنحتهـا مختالـة فـوق سـماء الإنـسانية الـصافية، العيـون الزجاجيـة للكولونيلات، للصورة الضخمة معبرة عن نبوءة بطولية، علـى حـين يـستمر فـي الخارج هطول المطر

ـ تخيل ...

قال لاغوريو دون أن تأخذه الشفقة بأنغوسيتنا، تابع مكرراً مداعبته السالفة :

ـ بعد غد، مساءً، و في هذه الساعة بالـذات، قد أكون فـي كونـسالفي ، عـالم كبير، موسيقا، نساء جميلات .

أجاب أنغوستينا بامتهان :

ـ شيءً جميل .

تـابع لاغوريـو مدفوعاً بأقصى مـا يملك مـن نوايـا خبيثـةٍ بغيـة إثـارة حماسـة صديقه :

ـ آه حسناً، ربما من الأفضل الذهاب إلى تورن، أعمامك، هناك أناس لطيفون جداً و حيث يتم، " اللعب كأسيادٍ " حسبما يقول جاكومو .

قال أنغوستينا .

ـ آه شيءً جميل .

قال لاغوريو .

ـ في أي حال، بعد غدٍ، أنا سوف أكون مستمتعاً، أتسلى، أما أنت فسوف تكون في الخدمة، أنا سوف أكون في نزهة في المدينة (و يضحك من جرّاء هذه الفكرة) أما أنت، فسيأتي إليك كابتن التفقد، لا جديد، الحارس مارتيني يشعر بوعكة، في الساعة الثانية سوف يأتي العريف لإيقاظك " سيدي الملازم إنها ساعة التفقد " سيوقظك في الساعة الثانية، يمكنك أن تقسم على ذلك، و في الساعة نفسها، بالضبط سأكون راقداً في الفراش مع روزاريا .

لقد كانت تلك الفضاضة غير المبيّتة للاغوريو، و التي اعتاد الجميع عليها الآن، و لكن خلف كلماته، لاحت أمام الرفاق صورة المدينة البعيدة، بصروحها و كنائسها الفسيحة، بقبابها التي تناطح كبد السماء، الشوارع الرومانسية، التي تسير على طول النهر في هذه اللحظة يفكر الجميع بأن المدينة مغمورة بضباب خفيف، على حين يشع من المصابيح نورٌ أصفر واهنٌ، في هذه اللحظة، ينداح زوج من الأحصنة السوداء عبر الطريق الخالية، على حين يصرخ الحوذي أمام الزجاج المضاء للأوبرا، صدى لكمان أو لضحكة ما، أصوات نساء (تتصاعد من البوابات الحزينة للمنازل الثرية) نوافذ مفتوحة على ارتفاعات لا تصدق، وبين متاهات الأسطحة تلوح المدينة المبهرة حاملةً كل أحلام الصبا ومغامراته الغامضة ، كان الجميع يحدق دون أن ينتبه إلى نفسه، وجه أنغوستينا يكابد إرهاقاً غير معترف به، لم يكونوا هناك، إنهم يفهمون ذلك، لأنهم يحتفلون بلاغوريو الذي يرحل، في الحقيقة كانوا يسلمون على أنغوستينا، لأنه الوحيد الذي

سيبقى،(سيرحلون) واحداً إثرَ آخر، وبعد لاغوريو، ما أن تنتهي مأموريته، سوف يذهبون بلا شك، غروتا، مورل، وقبلهم جوفاني دروغو الذي بقي له أربعة أشهر فقط،أنغوستينا على العكس قد يبقى، إنهم لا يدركون سبب ذلك، لكنهم كانوا يعرفونه جيداً بحيث أنهم كانوا يشعرون أنه يحيا الآن حياته الواسعة الممتلئة لم يكونوا قادرين على حسده، سيكون هذا جنوناً مطبقاً .

لم كان أنغوستينا، ذلك النقّاج* الملعون يبتسم في هذه اللحظة؟ لماذا؟ حريصاً كما هو الآن، لِمَ لمْ يركض و يحزم حقائبه، لماذا لم يستعد للسفر ؟ بل هو على العكس، كان مثبتاً أنظاره على الظلال المرسومة أمامه، بماذا كان يفكر؟ أية معجزة سرية كانت تشده إلى الحصن ؟ أنظر إليه يا لاغوريو أنت صديقه، أنظر إليه ما دام الوقت

يسمح لك بذلك، على أن يبقى وجهه ماثلاً في ذهنك كما هو في هذه الساعة، الأنف الدقيق، النظرات الواهنة، الابتسامة الجامدة ، و قد تفهم يوماً، لِمَ لمْ يتبعك، سوف تعرف آنئذ ما الذي يخفيه في داخل هذه الجبهة الثابتة، لاغوريو يسافر صباح الغد، كان جواداه ينتظرانه مع سائقيهما أمام باب الحصن، لم تكن السماء مغطاة بالغيوم، و لم تكن تمطر .

كان وجه لاغوريو يقطر فرحاً، لقد خرج من غرفته حتى دون أن يلقي عليها نظراته الأخيرة، دون أن يلتفت وراءه، وعندما أصبح خارجاً، نظـــر إلى الحصن، كانت الأسوار في الأعلى متجهمة وعابسة، حارس البوابة كان ثابتاً لا يريم، و لم يكن ثمة روح حية في الفسحة الواسعة، و قد أخذت تتصاعد أنغام رتيبة لمطرقة من أحد الأكشاك الصغيرة المثبتة في جسم الحصن .

نزل أنغوستينا لوداع الرفيق، داعب جواده قائلاً :

ـ يبدو أنها بهيمة رائعة .

---

*النقاج : من يتمثل طبقة أعلى من طبقته بشكل مرضي .

لاغوريو سيذهب، سوف ينحدر نحو المدينة، إلى الحياة الرخوة المبتهجة، هو على العكس، سوف يبقى، كان يحدق بنظرات لا يمكن اختراقها في الرفيق الذي وقف حول البهيمتين مجاهداً كي يبتسم .

قال لاغوريو:

ـ يبدو أن من المستحيل المغادرة، لقد كان هذا الحصن يمثل وسواساً بالنسبة لي، رد انغوستينا دون أن يعبأ :

ـ اذهب لكي تسلم على ذويّيّ، قل لأمي بأني بخير .

ـ اطمئن .

ثم أردف بعد صمت قصير :

ـ إني آسف لما حدث البارحة، هل تدري ؟ نحن جد مختلفان، ما تفكر به، يبدو لي في العمق عصيّاً على الفهم، تبدو أفكارك ضرباً من الجنون، لست أدري ولكن من الجائز أنك محق .

ـ لم أفكّر بأي شيء من هذا القبيل .

قال أنغوستينا وهو يسند طرفه الأيمن على طرف الجواد، محدّقاً في الأرض ثم أردف :

ـ لا تتصور أني غاضب أبداً .

لقد كانا رجلين مختلفين، ولطالما أحبّا أشياء مختلفة، بعيديْنِ عن بعض من ناحية الثقافة والذكاء، وقد كان شيئاً مدهشاً رؤيتهما مع بعضهما بعضاً طوال الوقت، كان أنغوستينا متعالياً جداً، ومع ذلك فقد كانا صديقيْنِ، ومن بين الجميع كان لاغوريو الوحيد الذي يفهمه بشكل غريزي، إلا أنه كان يشعر بألم بالنسبة لرفيقه، كان يشعر بالحياء وهو يسافر أمام ناظريه، كأن هذا كان يمثل نوعاً من الصلف السيء ولم يكن قادراً على اتخاذ أي قرار .

قال أنغوستينا :

ـ إذا رأيت كلاوديِنا، بلّغها تحياتي، أو عفواً، لا، من الأفضل أن لا تقول لها شيئاً .

ـ آه ... سوف تسألني إذا ما رأتني، إنها تعرف جيداً أنك هنا .

صمت أنغوستينا، قال لاغوريو و قد انتهى من تجهيز حقائب السفر بمعاونة الحوذي :

ـ حسناً، ربما من الأفضل لي أن أغادر، لا أريد أن أتأخر، تحياتي لك .

شد على يد صديقه ثم وثب بخفةٍ فوق السرج، صرخ أنغوستينا :

ـ سفراً سعيداً يا لاغوريو، رافقتك السلامة .

و من فوق السرج، تطلع لاغوريو نحوه، لم يكن شديد الذكاء، لكن صوتاً غامضاً أوحى إليه بأنهما لن يلتقيا بعد الآن، بضربة مهماز، توقف الحصان... في تلك اللحظة بالذات رفع أنغوستينا يده اليمنى مشيراً إليه، كأنه يناديه، طالباً منه التوقف، كأنه كان يريد أن يقول له شيئاً أخيراً، لاحظ لاغوريو حركة أنغوستينا بطرف عينه فتوقف على بعد عشرين متراً، و تساءل:

ـ ماذا هناك ؟ هل كنت تريد شيئاً ما ؟

لكن أنغوستينا أخفض يده و هو يعود إلى سكونه اللامبالي، ثم أجاب :

ـ لا شيء، لا شيء، لماذا ؟

ـ آه لقد خُيِّلَ إليّ ..

قال لاغوريو متمتماً، ثم ابتعد عبر الفسحة و هو يتأرجح فوق السرج .

-IX-

كانت شرفات الحصن بيضاء اللون، تماماً كما هو الوادي في الجنوب، وكما هي صحراء الشمال، كان الثلج يغطي الجدران بشكل كامل مشكلاً إطاراً هشاً فوق الأسوار، و كان يدرك من خلال الدويّ الخفيف الذي يحدث بين الفينة و

الأخرى من فوق الجدران و هو ينفصل عن شفا الهاوية لأسباب مجهولة، محدثاً دوياً هائلاً في الأفنية التي جعل ينبعث منها الدخان، لم يكن هذا هو الدفيف الأول للثلج، و لا الثالث ولا الرابع، إنه كان يدل على أن وقتاً طويلاً قد مرّ، قال دروغو :

ـ يبدو لي أني أتيت البارحة إلى الحصن .

بالفعل، كان الأمر كذلك، يبدو البارحة، أو أن الزمان كان قد استهلك نفسه عبر رتابته الثابتة ، مع أنه هو نفسه بالنسبة لكل الناس، إنه ليس بطيئاً بالنسبة لمن هو سعيد، و هو ليس سريعاً بالنسبة لمن ابتلى به، بلا تريث و لا سرعة مرت شهور ثلاثة أخرى، جاء عيد رأس السنة في البلد، حتى السنة الجديدة كانت قد حلت حاملة معها إلى الرجال آمالاً غريبة، بدأ جوفاني دروغو يستعد للرحيل، لم يبقَ سوى شكليات الزيارة الطبية كما سبق ووعده ماتّي، ثم بعد ذلك من المفترض أن يكون قادراً على الرحيل، ثم إنه ما انفك يردد أن هذا بالنسبة له كان مغامرة بسيطة، و إنه في المدينة تنتظره حياة سهلة من الجائز أنها سعيدة، لكنه مع هذا كله لم يكن مبتهجاً.

في صباح العاشر من كانون الثاني دخل مكتب الطبيب الذي يقع في الطابق الأخير للحصن، و كان الطبيب يدعى فريديناندو روفينا،وهو رجل نافَ على الخمسين من العمر، وجهه مذهل و ذكي، و قد بدا عليه تعب جلي، لم يكن يرتدي زي طبيب رسمي، و لكن سترة غامقة من ذلك النوع الذي يرتديه ذوو المناصب العليا، كان جالساً إلى طاولته المكتظة بالكتب و الأوراق، و لكن دروغو و قد دخل عليه بشكل مفاجئ أدرك أنه لم يكن يعمل أي شيء، كان ثابتاً واجماً،مطرقاً، من يدري بم كان يفكّر ؟ !

كانت النافذة تطل على الباحة الرئيسة، و من هناك كان ينبعث صوت خطوات متساقطة، ذلك لأنه كان قد حل وقت تبديل الحراسة، و من النافذة كان

يمكن رؤية جزء من السور الأمامي، أما السماء فكانت صافية بشكل غير عادي، حيّا الاثنان بعضهما بعضاً، و قد تنبه دروغو إلى أن الطبيب كان هو المسؤول عن وضعه .

ـ الغربان تبني أعشاشها على حين تغادر السنونو .

قال روفينا ذلك مازحاً، ثم أخرج من درجه ورقة عليها ختم رسمي .

أجاب دروغو :

ـ دكتور، حضرتك لا تعرف و لا بد بأني قد جئت إلى هنا خطأً ،

رد الطبيب بإشارة مشجعة :

ـ الكل، أيها الصبي الغالي، يأتون إلى هنا خطأً، من هو أكثر أو من هو أقل، حتى أولئك الذي يبقون هنا دائماً .

لم يفهم دروغو ذلك جيداً، و حاول أن يبتسم، تابع روفينا :

ـ آه، إني لا ألومك أبداً، حسناً تفعلون أيها الشبان عندما لا تطيقون أن تظلوا هنا، متنعمين هناك في المدينة، ثمة الكثير من الفرص الجيدة، أنا أفكر في ذلك في بعض الأحيان، لو استطعت أن ...

تساءل دروغو :

ـ لماذا، آلا تستطيع أن تنتقل من هنا ؟

حرك الدكتور يده كما لو أنه سمع شيئاً مذهلا، ثم ضحك بتلذذ قائلاً :

ـ أن أنتقل ! بعد خمس و عشرين سنة أمضيتها هنا ؟ إن الأمر متأخراً جداً بُنّي، كان يجب أن أفكر بذلك مسبّقاً .

ربما رغب في أن يعترض دروغو، لكن لما بقى الملازم صامتاً دخل في صلب الموضوع، و هو يدعو دروغو إلى الجلوس، ثم قرأ اسمه و شهرته كما هو مبين أمامه في اللائحة النظامية . ثم قال مختتماً :

ـ حسناً، أنت تعاني من اضطراب في الجهاز القلبي، أليس كذلك ؟ لنقل إنّ الأمر كذلك .

أكدّ دروغو :

ـ لنقل ذلك، حضرتك أكثر خبرة في أمور كهذه .

قال الطبيب غامزاً :

ـ لنحرر هنا تصريحاً بنقاهة، هكذا نحن في الطريق الصحيح ؟

قال دروغو :

ـ أشكرك لكني لا أرغب في الإفراط في الأمر .

ـ كما ترغب، لا رُخَصٌ،وأنا في سنك لم يكن لدي شكوك كهذه،

و بدلاً من أن يجلس جوفاني، فإنه اقترب من النافذة أكثر، وجعل ينظر تحته نحو الجنود المنتشرين فوق الثلج الأبيض، كانت الشمس قد غربت للتو، وبين الأسوار انبثّتْ ظلال زرقاء، قال الدكتور بلهجة حزينة، وكانت الظلال قد غطته، و لم يكن من الممكن معرفة كيف كان يستطيع الكتابة :

ـ أكثر من نصفكم، أنتم الآخرون و بعد ثلاثة أو أربعة أشهر تدهمكم الرغبة في الرحيل، وإنيّ لو كنت في سنكم لفعلت مثلكم و لكن للأسف بعد كل هذه السنين التي مرت .

كان دروغو يصغي دون أدنى اهتمام، لقد كان منصرفاً تماماً إلى التحديق عبر النافذة، خُيّلَ إليه أنه كان يرى الأسوار الصفراء للباحة الرئيسة و هي تشمخ عالياً نحو سماء من كريستال، و فوقها، هناك في الما وراء، و أعلى من ذلك لمح الأبراج المملوءة بالعزلة، أسوار مزوّرة ، مؤطرة بالثلج، جدران، مواقع محصنة، كل هذا لم يسبق له أن لاحظه، نور مبهر ينداح من الغرب كان يسقط عليها، و هي فوق هذا تنبثقُ في داخلها حياة سرية لا يمكن سَبْرَ غورها لم يكن دروغو قد لاحظ أن الحصن معقد و فسيح كذلك، رأى نافذة (أو بالأحرى كوة)

كانت مفتوحة تطل على الوادي، عاليةً علوّاً لا يصدق، هناك في الأعلى، لابد أنه ثمة الكثير من الرجال الذين لا يعرفهم، ربما كانوا ضباطاً مثله، و ربما رغب في أن يكون صديقاً لهم .

شاهد ظلالاً هندسية الشكل لوحدات بين كل برج و آخر، شاهد جسوراً واهنة ممتدة بين الأسطح، بوابات غريبة متمرسة تمتد كشريط على طول الأسوار، مخازن رصاص مغلقة، حواشي منحرفة بفعل السنين، شاهد، و في أعمق أعماق الباحة الرئيسة، و بين المشاعل

و المنارات، جنوداً ضخاماً ينتضون الحراب فخورون، و فوق الثلج المنير كانوا يشكلون خطوطاً سوداء و ثابتة، كأنهم قُدّوا من حديد، كانوا جميلين جداً و هم متحجرون، بينما فرقة العزف تعزف ألحاناً أخذت تتطاير في الهواء و هي مملوءة بالحيوية والضياء، ألحاناً تدلف مباشرة إلى القلب .

تمتم روفينا و هو قابع في الظل :

ـ واحد بعد آخر سوف تنصرفون، و لن يبقى هنا هذه السنة سوى نحن العجائز .

في الأسفل، كانت الفرقة تعزف في الباحة الرئيسة لحناً صافياً و هو مزيج من صوت إنساني و معدني، يدندن أيضاً بألحان حربية، ثم يصمت تاركاً نغمةً عصية على الفهم تصل حتى غرفة الطبيب،كان الصمت قد انطفأ، لدرجة أنه يمكن سماع أصوات انغماس الأقدام في الثلج المتجمد متصاعدة، لقد حضر الكولونيل بنفسه لتحية الحرس فانطلقت أنغامٌ ثلاثةٌ تذوبُ عذوبةً في أرجاء السماء .

تابع الدكتور مهتماً :

ـ من الذي تبقى منكم ؟ الملازم أنغوستينا ! الوحيد، حتى مورل فإني أراهن أنه سوف ينحدر صوب المدينة هذه السنة للعلاج، ثم أراهن على أنه سوف ينتهي

بأن يمرض .

ـ مورل ؟ ! ...

لم يكن دروغو يستطيع تجنب الإجابة، على الأقل ليعطي انطباعاً بأنه يصغي لما يقوله الطبيب، تابع و هو لا يكاد يعي سوى الكلمات الأخيرة :

ـ مورل مريض ؟

رد الطبيب :

ـ آه ... لا، إنها حيلة و حسب .

و عَبْرَ النافذة المغلقة كان يمكن سماع وقع خطوات الكولونيل الزجاجية، وعند الغسق كانت الحراب تلتمع مشكلة خطوطً كأنها أشرطة من فضة، من بعيد، ربما كانت تصل أصداء الفرقة، واللحن السابق، ربما كان مبعثه هو صوت ارتطام خطواته بالأسوار .

صمت الدكتور ثم نهض قائلاً :

ـ هذه هي الوثيقة، الآن أذهب لكي أوقعها من السيد القائد .

طوى الورقة، ثم دسها في مغلف، تناول معطفه الثقيل من فوق المشجب ثم قبعة من الفرو متسائلاً :

ـ هل تأتي أنت أيضاً أيها الملازم، و لكن فيم تحدّق ؟! ...

كان الحرس المتأهبون للخدمة الليلية قد أخفضوا أسلحتهم، ثم انداحوا الواحد تلو الآخر منتشرين في أرجاء الحصن، كان وَقْعُ أقدامهم فوق الثلج يصدر صوتاً أخرس، وقد تصاعد فوقهم أزيز الفراش، ثم، كانت الجدران التي غمرتها العتمة للتو قد ارتفعت ببطء نحو سَمْتِها، ومن أطرافها العلوية التي غطاها الثلج بدأت تتفكك غمامات بيضاء تشبه

البلشون* السابح في فضاء فلكي، عندها، تذكر دروغو مدينته صورة شاحبة، شوارع تصخب تحت المطر، تماثيل من الجبس رطوبة الثكنات، أجراس

*البلشون : نوع من الطيور المائية،وهو مالك الحزين .

بائسة، وجوه متعبة ممتقعة ظهيرات لا نهائية، سقوف متسخة بفعل الغبار . هنا على العكس . تمر الليلة الكبيرة للجبال، حيث تهرب الغيوم فوق سماء الحصن، معجزات تنبؤية، و من الشمال، الشمال غير المرئي خلف الأسوار، أحس دروغو بقدره يضغط عليه .

قال دروغو و هو يكاد يتلعثم :

ـ أيها الطبيب ، أيها الطبيب، إني بخير .

رد الطبيب :

ـ أعرف ذلك، ما الذي كنت تعتقده ؟

رد دروغو، و هو يكاد ينكر صوته :

ـ أنا بخير و أريد أن أبقى هنا .

ـ أن تبقى هنا ! في الحصن ! لا تريد مغادرته أبداً ؟ ما الذي حدث لك؟

قال جوفاني :

ـ لست أدري، و لكني لا أستطيع السفر .

صرخ روفينا و هو يقترب :

ـ أوه ... إذا لم تكن تمزح، فإني أقسم بأني مبتهج .

رد دروغو و هو يشعر بعذاب غريب يتصاعد في داخله :

ـ لست أمزح، إلقِ بهذه الورقة جانباً .

كان يجب أن يحدث هذا، ربما كانت الأمور قد حسمت منذ اللحظة الأولى منذ ذلك اليوم الذي قابل فيه دروغو الكابتن أورتيز للمرة الأولى، هناك، عند أطراف السهل، حيث بدا الحصن تحت السطوع الثقيل لشمس منتصف النهار .

لقد قرر دروغو البقاء، مدفوعاً برغبةٍ غامضةٍ، و لكن ليس هذا هو السبب وحسب فمن الجائز أن التفكير البطولي لم يكن كافياً، الآن، يعتقد أنه قام بعمل نبيل و هو ـ بحسن نية ـ سوف يدهش من عمله هذا أكثر مما كان يعتقد، فقط بعد بضعة أشهر، متطلعاً خلفه، سوف يتعرف دروغو على الأشياء البائسة التي زاوجت بينه و بين الحصن .

ما إن يصدر النفخ في الأبواق حتى تسمع آنئذٍ طبول الحرب وهي تقرع، تتناهى من الشمال رسائل مثيرة للقلق،و لو أن الأمر كان مقتصراً على هذا فحسب لغادر دروغو من فوره،و لكن كان هناك خدر التعود، الزهو العسكري، الإلفة مع الأسوار التي يشاهدها كل صباح، إيقاع الخدمة الأحادي اللون، كانت أربعة أشهر كافية لخداعه .

لقد تحولت نوبة الحراسة إلى عادة، تلك التي بدت في البداية وكأنها ثقل لا يحتمل، رويداً رويداً تعلم القواعد جيداً، طرق الكلام، جنون العظماء، طبوغرافيا المحارس، أماكن الحراسة، الزوايا الخالية من الرياح، لغة الأبواق .

كان يستشعر لذة خاصة من خلال قيادته للخدمة، مقدراً الاحترام المتنامي للجنود و لصف الضباط، حتى ترونك أدرك كم كان دروغو جدياً و دقيقاً في عمله، حتى أنه تعلق به كثيراً، حتى لقاء الزملاء تحول إلى محض رتابةٍ،الآن هو يعرفهم جيداً، إلى درجة أنك كنت تجده متأهباً،منتظراً معرفة تعابيرهم الضمنية الدقيقة، و لفترة طويلة كانت الليالي التي تجمعهم بعضاً ببعض، تعبق بالأحاديث

عن الأحداث اليومية في المدينة التي غدت لبعدها عنهم ذات أهمية غير محدودة، لقد تحولت المائدة الجيدة و المريحة إلى عادة، المدفئة المضيافة التي كان يجري حولها اللقاء العسكري، و هي متوقدة ليلَ نهارَ، يقظة جندي المراسلة

وهو جنّي لطيف يدعى جرومينو الذي تعود رويداً رويداً على تنفيذ رغباته الخاصة .

إلى عادة رتيبة تحولت الرحلات المتكررة التي كان يقوم بها، وبصحبته مورل إلى البلد الأكثر قرباً، ساعتان على ظهر الجواد، عَبْرَ وادٍ ضيق حفظه الآن عن ظهر قلب، هناك، حيث كان ثمة مكان يمكن أن ترى فيه بعض الوجوه الجديدة، حيث يتم إعداد غداء فاخر، ومن ثم يتم الاستماع إلى ضحكات بعض الفتيات اللواتي من الممكن مطارحتهن الغرام .

إلى عادة تحول سباق الخيل الذي كان يجري في الفسحة الكامنة خلف الحصن، السباق المجلّي مع الرفاق، في ظهيرات الراحة،الصبر الذي تتطلبه لعبة الشطرنج، حيث تعلو في المساء صيحات الفوز و الظفر (لكن أورتيز كان قد أوضح له أن هذا يحدث في العادة هكذا بالنسبة للشباب القادمين للتو، إنهم يربحون دائماً؛ يحدث هذا بالنسبة للجميع، حيث يُخدع المرء إذ يعتقد أنه ماهر، الحقيقة هي أنها قضية تجدد دائم، حتى أولئك الذين يظفرون في البداية إذ يتعلمون طرائقنا إلا أن يوماً ما سيأتي عليهم، حيث يجدون أنفسهم لا شيء البتة) .

بالنسبة لدروغو تحولت الغرفة إلى عادة، القراءة الليلية، الشرخ الموجود في أعلى السقف فوق السرير مباشرةً و الذي يشبه رأس تركي، خرير الخزّان،مع الزمن تحولوا إلى أصدقاء، شكل جسده المحفور على الفراش، الأغطية التي كانت مثيرة للنفور غدت الآن مهيأة بشكل حلو، الحركة التي غدت الآن غريزية، و بالقدر المناسب سواء بالنسبة لإطفاء القنديل أو بالنسبة لركن الكتاب فوق المنضدة .

أنه يتقن الآن تحضير نفسه في الصباح، كيف يحلق ذقنه أمام المرآة، حيث ينير له الضوء الزاوية المرغوب بها تماماً .

كيف يفرغ ماء السطل في طشت الغسيل دون أن يتناثر منه شيء هنا وهناك، كيف يقوم بفك قفل عنيد لجرار ما، تاركاً المفتاح منزاحاً قليلاً نحو الأسفل .

إلى شيء مألوف تحولت قرقعة الباب في فصول المطر، النقطة التي يعدو فيها ضوء القمر مرسلاً أشعته عبر النافذة، و انزياحه البطيء مع مرور الساعات، حالة التداخل و الاختلاط بين النور والظلمة التي يحدثها في الغرفة كل ليلة عند الواحدة و النصف تماماً، عندما يبدأ الجرح القديم في القدم اليمنى للمقدم نيكولوزي، الذي يستيقظ بشكل سري قاطعاً حبل النوم .

كل هذا أصبح الآن ملكاً له، و تركه سوف يسبب له عذاباً كبيراً،لكن دروغو لم يكن يعلم، لم يكن يشك بأن السفر كان سيسبب له التعب

و ليست حياة الحصن التي كانت تزدرد الأيام الواحد تلو الآخر كلها تشبه بعضها بعضاً، بسرعة تثير الدوار، البارحة و قبل البارحة كانا متشابهين، و لم يكن قادراً على التمييز بينهما، إن ما حدث منذ ثلاثة أيام و ما حدث منذ عشرين يوماً سوف ينتهي إلى أن يبدو حدثاً من الحوادث الغابرة، هكذا كان يجري في غفلة منه تيار الزمن .

و لكن هاهو ذا الآن شاحبٌ و مطرقٌ، فوق سور المحرس الرابع،في ليلة صافية و متجمدة، و بسبب البرد يستمر الحرس في مشيهم الدؤوب دون توقف على حين تترك خطواتهم آثاراً فوق الثلج المتجمد، قمر كبير و أبيض، كان يغشى فيضه وجه العالم،الحصن، الصخور الوادي الحجري في الشمال حيث كانت ثمة أمواج ضوئية مذهلة، كما كان يلتمع الضباب الذي يكتنف الشمال القصي .

و في داخل غرفة ضابط الخدمة، في داخل المحرس ترك القنديل مضاءً، وكانت الشعلة تتأرجح بخفة مخلفة ظلالاً متموجة،بدأ دروغو يحرر رسالة، يجب أن يرد على رسالة ماريا، شقيقة فيسكوفي، صديقه، و التي كان من الممكن لها أن تكون زوجةً له في يوم من الأيام، لكنه ما إن خط سطرين حتى نهض دون دراية منه ثم صعد فوق السرير و جعل يحملق .

كان هذا هو الجزء السفلي من التحصينات، و كان يقابل التقعر الواسع للمعبر في تلك النقطة بالذات من الجدار كان يقع الباب الذي يصل بين المكانين، لم يُفتح مصراعاه المصفحان بحديد منذ زمن بعيد عن الذاكرة على حين كان يدخل و يخرج حرس المحرس الجديد من باب ثانوي عريض بحجم آدمي،وقد وقف عنده حارس خاص .

للمرة الأولى يخرج دروغو للخدمة في المحرس الرابع، وما إن خرج للعراء حتى شاهد إلى اليمين صخوراً صلدةً، كانت مكتسية بقشرة من الجليد وتلمع تحت ضوء القمر .

كان ثمة غيوم صغيرة بيضاء تعبر أرجاء السماء متطايرة بفعل تأثير الرياح التي جعلت تعبث برداء دروغو فيتأرجح الرداء الجديد الذي كان يعني بالنسبة له الشيء الكثير .

كان ثابتاً يرقب حواجز الصخور المائلة أمامه، الشمال البعيد غير القابل للاختراق، على حين يلتحف أذيال ثوبه التي ترفرف كأنها بيارق

تعصف بها الريح ،في تلك الليلة أحس دروغو بزُهُوٍّ عسكري الطابع، واقفاً مقابل حافة الشرفة بردائه الساطع، وبالقرب منه كان ترونك واقفاً وهو يتدثر بمعطف ثقيل، ولم يكن يبدو أنه جندي .

تساءل دروغو بنبرة لا تخلو من القلق :

ـ قل لي يا ترونك، أهذا حقيقي أم هومجرد شعور خاص بي، رؤية القمر

هكذا، إنه يبدو أكثر اتساعاً على غير عادته ؟

قال ترونك :

ـ لا أعتقد أيها السيد الملازم، هنا في الحصن ينتابنا دائماً مثل هذا الشعور .

كانت الأصوات تصدر متضخمة، وكأن الهواء قُدَّ من زجاج، ولمّا شعر ترونك بأن الملازم ليس لديه ما يقوله خلاف ذلك، انسحب نحو حافة الشرفة مدفوعاً برغبته الدائمة في مراقبة الخدمة، ظل دروغو وحيداً، وكان يشعر بفرح غامر، متلذذاً بفخر بقراره بالبقاء هنا، اللذة المرّة بأنه قد فقد لذائذ صغيرة وجزئية في مقابل لذة كبرى ولا نهائية (من الجائز أنه كان واقعاً تحت تأثير فكرة أنه يستطيع المغادرة في اللحظة المناسبة) هل كان هذا نوعاً من الحدس أم أنه مجرد أمل ؟ بأشياء نبيلة وكبيرة زينت له البقاء هنا، ولكن كان يمكن أن تكون مجرد دعوة، لا يمكن إطلاق أي حكم مسبّق عليها على أية حال، كان أمامه الكثير من الوقت .

كل ما هو جيد في الحياة كان يبدو أنه كان بانتظاره، ما الداعي إذاً للشعور بالكرب ؟ حتى النساء، مخلوقات محبوبة وغريبة كان يتوقع أن يجد عندهُنّ السعادة الأكيدة،موعوداً بهن شكلياً من قبل النظام الاعتيادي للحياة .

كم من الوقت أمامه ؟ كان يبدو طويلاً كأنه سنة ،كانت السنون الجميلة قد بدأت للتو، كان يبدو أنها تشكل مسلسلاً طويلاً من الصعب النفاد إلى عمقه .

كنز لم يُمس بعد، كبير حتى إنه ليبعث الملل .

لم يكن هناك من يقول له : إنتبهْ يا جوفاني دروغو، فالحياة وإن بدت لانهائية، فإن هذا مجرد خداع ووهم حيث بدأت تتساقط أوراق الصبا وزهوره، لكن دروغو لم يكن على دراية كافية بالزمن حتى لو مثلت أمامه يفاعة مئات ومئات من السنين كما هي الآلهة،حتى هذا كان سيبدو له شيئاً صفصفاً، كان سيفضل على خلاف ذلك حياة بسيطة وعادية، يفاعة إنسانية صغيرة، هبة

شحيحة، تكفي لعدها أصابع اليد ومن الجائز أن تأتي النهاية قبل أن يكون قد أحاط هذه اليفاعة كلها.

كم من الوقت أمامه ؟ كان يفكر، يوجد بعض الرجال، كان يسمع قولاً كهذا، و في لحظةٍ ما (و من الغريب قوله) يقفون بانتظار الموت هذا الشيء الواضح و اللامعقول، لم يكن من الممكن له أن يكون جيداً، يبتسم دروغو، مطرقاً، و في كل الأحوال فقد أثر فيه الشعور بالبرد، لذا فقد طفق يتمشى .

في تلك النقطة كان السور يتبع أنحاء المعبر، مشكلاً سلماً معقداً من شُرُفٍ و أروقة،لاحظ دروغو أن تحته مباشرة ثمة سواد بعكس الثلج، وأن تحت ضوء القمر،نوبة الحرس اللاحقين، خطواتهم المنتظمة كانت تصدر صوتاً أقرب إلى كريك، كريك،فوق الجزء المتجمد .

أقرب حارس، فوق إحدى الشرفات الأقل برداً من الأخريات كان ثاوياً لا يتحرك على بعد عشرة أمتار و قد اسند كتفيه إلى الجدار، كان يبدو و كأنه أقرب إلى النائم، إلا أن دروغو سمعه يدندن بأغنية كان صوته عميقاً،و كانت الأغنية عبارة عن كلمات متتابعة (حتى أن دروغو لم يفلح في التمييز بين الكلمات) و قد ارتبط بعضها ببعض بنغم أحادي الجانب و لا نهائي .

إن كان الكلام في أثناء الخدمة ممنوعاً فما بالك بالغناء ؟ كان من الممكن أن يعاقبه دروغو، و لكن الشفقة أخذت به و هو يفكر بهذا البرد وعزلة هذه الليلة .

بدأ ينزل سلماً قصيراً يفضي إلى الشرفة، ثم سعل قليلاً كيما يثير انتباه الجندي، استدار الحارس برأسه، و لما شاهد الضابط لم يكف عن الغناء، شعر دروغو بغيظ شديد، هل يقدّر هؤلاء الحرس على السخرية منه ؟ أن باستطاعته أن يذيقه المرارة لو أراد .

لاحظ الحارس فوراً الموقف التهديدي لدروغو، و لمَّا لم يكن من الممكن استخدام كلمة السر بين الجنود و قائد الحرس حسب تقليد قديم فإنّه إفراطاً منه

في الدقة تناول بندقيته، و سأل بنبرةٍ معروفةٍ جيداً في الحصن (من هناك، من هناك)، توقف دروغو فجأة، و كأنه قد فقد توازنه، و على بعد خمسة أمتار، و تحت ضوء القمر، لاحظ جيداً وجه الحارس، كان فمه مغلقاً لكن الغناء لم يكن قد انقطع، من أين يأتي إذاً هذا الصوت ؟

و بينما كان دروغو يفكر بهذا الشيء الغريب إذ أنّ الجندي ما زال متأهباً، فإنّ دروغو نطق آلياً بكلمة السر (معجزة) أجاب الحارس (بؤس) ثم ركن سلاحه عند قدميه .

ران سكونٌ فظيعٌ من خلاله أخذت تسبح شكوى الكلمات و الأغاني أخيراً فهم دروغو و قد انتابت ظهره رعشةٌ خفيفةٌ، إنّه الماء، من منحدر بعيد كان الماء ينساب بين الصخور القريبة، كانت الريح هي التي جعلته يتأرجح هكذا، إنّها اللعبة السرية للأصداء، كان يبدو و كأنّه صوت إنساني، حيث جعل يتكلم و يتكلم كلمات من حياتنا، يكاد دائماً يفهم معناها، و لكن على العكس من ذلك لم يكن ليحدث هذا، لم يكن الجندي إذاً هو الذي يدندن، لم يكن إنساناً ذا حساسية إزاء البرد إزاء العقاب، إزاء الحب، و لكن كانت الجبال المعادية .

أَيَّةُ هفوةٍ حزينةٍ كانت تلك ؟ فكر دروغو، ربما الأمر هكذا، إنَّنا نظن أنه تحيط بنا مخلوقات شبيهةٌ بنا، على العكس ليس ثمة سوى الجليد والأحجار التي تتكلم لغةً غريبةً، ما نكاد نرفع أيدينا لنسلّم على صديقٍ حتى تهوي،وتنطفئ الابتسامة على الأفواه،لأننا ننتبه إلى أننا وحيدون بشكلٍ كاملٍ .

الريح تضرب الرداء الجميل للضابط، حتى الظلال الزرقاء فوق الثلج بدت كأنها بيارق، الحارس ثابتٌ لا يريم، القمر يسير ويسير، بطيئاً لكن دون أن يضيع لحظةً واحدةً، نَفَدَ صبر جوفاني دروغو من بزوغ الفجر على حين كان قلبه يدق بين ضلوعه توك، توك .

- XI -

بعد أن مرت سنتان، كان جوفاني دروغو راقداً في فراشه في ليلةٍ من ليالي الحصن ... اثنان و عشرون شهراً مرّوا دون أن يحملوا إليه أي جديد على حين وقف هو ينتظر، و كأن الحياة تحمل إليه نوعاً من التسامح أو الغفران، اثنان و عشرون شهراً طوالاً يمكن أن تحدث أشياء كثيرة خلالها، ثمة الوقت الكافي لتتشكل المزيد من العائلات، ليولد المزيد من الأطفال، ويبدؤوا بالكلام، لأنَّ أشياءَ كثيرةً يمكن أن تنبت بعد أن كانت في الماضي مجرد مرعى متصحِّر،امرأة جميلة يمكن أن يشيب رأسها، لا أحد يرغب بها بعد الآن، لأنَّ مرضاً ما حتى ذاك الذي يمكن أن يدوم طويلاً يتهيأ (في كل الأحوال يستمر الرجل طوال حياته يفكّر فيها) لكي يستهلك تدريجياً الجسد ثم ينسحب بسبب ما قد يبدو أنه شفاء، إلا أنه يبدأ بهضم المريض من الداخل ماصّاً الرّمق الأخير، ثمة الوقت الكافي لكي يُلْحدْ الميت و يسلوه الناس، ثمة الوقت الكافي لكي يغدو الولد قادراً على الضحك و اصطحاب الفتيات في المساء على طول الطريق دون أن يدري أنه يمشي بمحاذاة المقبرة، أما وجود دروغو فإنه ثابت بمكانه لا يتزحزح، الأيام نفسها، الأشياء ذاتها، هذا كله قد تكرر مئات المرات دون أن يقوم بخطوة واحدة إلى الأمام، كان نهر الزمان فوق الحصن، يشقق الأسوار، يجري إلى الأسفل غباراً و فُتاتاً من الأحجار، يشحذُ السلالم والسلاسل، لكنه عبثاً يمرُّ فوق دروغو، لم يكن قد استطاع أن يتصل به في هروبه هذا حتى تلك الليلةِ التي كان من الممكن أن تغدو كمثيلاتها لو لم يحلم دروغو، كان قد عاد طفلاً، واقفاً في الليل بجوار النافذة، هناك عن بعد كان ثمة بيوت، شاهد واجهة قصر ثري و قد أضاءهُ نورُ القمر، كان اهتمام دروغو الطفل مأخوذاً بإحدى النوافذ الصغيرة مزينة بمظلة من المرمر، القمرُ، نافذاً من قلب الزجاج، يسقط شعاعه على طاولة، وكانت ثمة

سجادة أيضاً .

غناءٌ، و بعض التماثيل الصغيرة من العاج و هذه الأشياء القلائل التي كانت ترى، تُثير التصور في قلب الظلام بأن هناك في العمق ثمة صالوناً واسعاً في الخلف، كان هذا هو الأول في سلسلةٍ مملوءةٍ بأشياءَ ثمينةٍ، الفقر الداخلي كان ينام، إنه نوع من النوم المطلق و المثير، والمعروف لدى الأناس الأغنياء والسعداء، " أيُّ فرحٍ هو " فكَّرَ دروغو، إذا ما أمكن العيش في تلك الصالونات، و التَّجوال فيها، يمكنه اكتشاف المزيد من الكنوز، و ما بين النافذة التي كان واقفاً أمامها وبين القصر الرائع ـ ثمة مسافة تقرب من عشرين متراً ـ كان ثمة أشياء قد بدأت بالتموج، أشياء لها مظاهر هشة و رخوة، ربما كانت أشبه بساحرات، تجر وراءها أذيال خمارٍ كان يغمره فيض من نور القمر في الحلم، لم يكن ظهور مثل هذه الكائنات التي لم توجد أبداً في العالم الواقعي لم يكن يُثير دهشة جوفاني، كانت تتماوج في الهواء بحركات بطيئة ولولبية و هي تكاد تمس طرف النافذة مساً خفيفاً، و بسبب طبيعته هذه بدت على علاقة منطقية بالقصر، لكن لما لم تكن متنبهة إلى دروغو و لم تقترب من بيته أبداً، فإنَّ هذا كان يُثير في نفسه نوعاً من القهر،حتى الجنيات على كلِّ حالٍ تهرب من رؤية الأطفال الأليفين وذلك لكي تصب اهتمامها على الناس المحظوظين الذين لا يقعدون لمراقبتها، بل يحلمون بلا مبالاة وهم يضطجعون تحت مظلات من الصوف ؟ بست، بست، تمتم بذلك دروغو عدة مرات بخجل، وذلك عسى أن يثير انتباه الجنيات، و هو يكاد يكون متيقناً من صميم قلبه بأن جهده هذا لا طائل منه، لا يبدو أنَّ أحداً منها قد سمع شيئاً، أو أنه اقترب من دروغو أحدٌ، و لكن هاهي ذي واحدة من تلك الكائنات السحرية تتعلق بالطرف الآخر للنافذة بوساطةِ ما يشبه الذّراع، ثم تبدأ بالطَّرْقِ على الزجاج بشكل رزينٍ و كأنها تنادي على أحدٍ ما و لكن ما إنْ جرت بضع لحظات حتى ظهر، شكل هزيل آه، كم هو صغير بالقياس إلى تلك النافذة التي

تشبه نصباً تذكارياً، لقد ظهر من خلف الزجاج، و قد استطاع دروغو أن يتعرف فيه على شكل أنغوستينا الذي كان هو الآخر طفلاً، أنغوستينا الممتقع، كان يرتدي ثوباً من المخمل ذا ياقةٍ بيضاء تغطي رقبته و لم يبدو أنه كان مرتاحاً على الإطلاق لهذه " السيرينات "* الصامتة، خطر آنئذٍ لدروغو أنّ زميله كان يمكنه وإنْ من باب التلطف أن يدعوه إلى اللعب معه مع تلك الجنّيات لكن الأمر لم يكن كذلك، لم يَبْدُ أنَّ أنغوستينا قد لاحظ وجود صديقه، بل إنه لم يلتفت إليه حتى عندما ناداه جوفاني "أنغوستينا " أنغوستينا " بحركة متعبة، فتح الصديق النافذة ثم انحنى نحو الروح الملتصقة بالنافذة وكأنه كان على علاقة حميمة بها، وكما لو أنه أراد أن يقول لها شيئاً ما، أشارت الروح بيدها إلى جهة ماالتفت دروغو نحوها فألفى أنَّ ثمة ساحة متصحرة بشكل مُطلق، كانت تمتد أمام الأشياء، فوق تلك الساحة، و على ارتفاع عشرة أمتار عن الأرض، كان يتقدم في الهواء موكب مؤلف من عددٍ من تلك الأرواح التي كانت تجر محفة .

بشكل ظاهري نسبةً إلى أقصى وجود لهم، فإنَّ المحفة كانت تفيض بالخِماراتِ التي تغطي شعر النساء، و بالريش الذي يُزين شعورهن

أيضاً، أما أنغوستينا الذي كان يبدي شعوراً بالانفصال و السَأم كان يحدّق نحو المحفة و هي تقترب، كان واضحاً أنها تتجه نحوه،إنَّ شعورهُ بعدم وجود العدالة فَطرَ قلبه، لماذا كل شيء من أجل أنغوستينا أما من أجله هو فلا شيء؟ يحتاج إلى مزيدٍ من الصبر أمام الكثير من غطرسة أنغوستينا ووقاحته، تطلَّعَ دروغو من النوافذ الأخرى علَّهُ يرى أحداً ما يمكن له أن يُناصرَ مشاعره هذه بشكل عارض، لكن لم يفلح في أن يرى أحداً . أخيراً توقفت المحفة، متأرجحة بالضبط مقابل النافذة، ثم، و بنوبة واحدة، ظهرت الأشباح محيطة بالمكان مشكلة إطاراً مرتجفاً، كلها كانت تتطلع نحو أنغوستينا الذي لم يعد مهيب الطلعة، لكنه يحملق الآن بشَرَهٍ بل و ربما بخبْثٍ،تبتعد المحقّة متنائية عن نفسها، وتستقرُّ معلقة

***السيرنيات: هي أغنية غرامية تؤدى ليلاً تحت نافذة المحبوب في الهواء الطلق .**

في الهواء على شكل خطوط غير مرئية، و بدفعة واحدة لم يبقَ في صدر دروغو أيُّ إحساسٍ بالحسد، ذلك أنه فهم جيداً ما الذي كان يحدث، لقد شاهد أنغوستينا وهو ثابت أمام النافذة و قد تركزت أنظاره نحو المحفّة، أجل كان يمكن له أن يقرأ رسائل جنيات الليل، و لكن من أجل سفارة ما ! هذه المحفة يبدو أنها تصلح لسفر طويل، و لن تعود قبل الشفق،أوقبل الليلة القادمة،أو الليلة الثالثة، أو لن تعود أبداً.

عبثاً انتظرت صالونات القصر صاحبها الصغير، ثم ما تلبث أنْ تمتدَّ بحذرٍ يد امرأة لتغلق النافذة المفتوحة، خشية أنْ يهرب أحدٌ منها، وكانت النوافذ الأخرى قد غُلِّقَتْ، ثم ما يلبث أن يغرق المشهد في العتمة والقَفْر.

إذاً، فالجنيات اللطيفة لم تأتِ أصلاً لتلعب مع شعاع القمر، لم تكن تلك المخلوقات البريئة قد خرجت من حدائق معطرة و إنما من أسفل الهاوية .

ربما بكى الأطفال الآخرون، ربما نادوا أمهاتهم، لكن أنغوستينا لم يكن خائفاً بل كان يتسامر بكل أُنْسٍ مع تلك الأرواح، وكأنه بذلك يثبت نماذج كان من الضروري توضيحها، ملتصقة حول النافذة، و كأنها ثنيّاتُ الزَبَدِ، فإن الأرواح وقفت واحدة تلو الأخرى و قد جعلت تنضغط نحو الطفل الذي جعل يومي لها برأسه أنْ نعم و كأنه يقول لها هذا حسن، إني متفق تماماً، في النهاية، جَعْلُ الروح التي كانت قد توضّعت في البداية، ربما كان هو الزعيم يومئ بحركات تآمرية، أمَّا أنغوستينا، و دائماً بتلك الهيئة المملوءة بالسأم فإنه تخطى النافذة (بدا و كأنه قد تحول خفيفاً مثل الجنيات) ثم ثوى في المحفة كأنه سيد، واضعاً ساقاً فوق ساقٍ، ثم ما لبث عنقود الجنيات أنِ انْحَلَّ، متحولاً إلى ما يشبه تموّج خِمارٍ، عندئذ تحركت العربة المسحورة متهيئة للسفر .

تشكّل موكب ما، الأشكال الظاهرة تطورت إلى شكل نصف دائري عند مداخل البيوت كي ترتفع في السماء باتجاه القمر، وفي أثناء وصف نصف الدائرة تلك فإن المحفة اقتربت عن بعد عدة أمتار من نافذة دروغو الذي جعل يهز ذراعه

محاولاً أن يصرخ ـ أنغوستينا ـ أنغوستينا :
تحيات سامية .

أخيراً، حول الصديق رأسه باتجاه جوفاني، مثبتاً رأسه عليه بضع لحظات و قد لاحظ دروغو جدية مفرطة بالنسبة لطفل مثله، لكن وجه أنغوستينا رسم أخيراً ابتساماتٍ ضمنيةٍ كما لو أنَّه و دروغو يفهمان أشياء كثيرة لا تقدر الجنيات على فهمها ... رغبةٌ مطلقةٌ في المزاج، إنها الفرصة الأخيرة لإثبات أنه هو أنغوستينا لم يكن في حاجة إلى شفقة أحد ما، إنه مجردُ مشهد، و يبدو أنه يوحي أنه من الغباء أن يثير فينا الدهشة .

ابتعدتِ المحقّة، انتزع أنغوستينا أنظاره من على دروغو ثم وجَّه رأسه نحو الأمام باتجاه الموكب نفسه، وهو يغالب شعوراً بالفضول المسلي و الصادق، بدا و كأنه يجرب للمرة الأولى لعبة بالنسبة إليه لم تكن أبداً مهمة لكنه في الوقت نفسه لم يكن قادراً على رفضها .

و هكذا ابتعدت في الدُجى، بنبالةٍ لا إنسانية تقريباً، لم يلقِ حتى نظرة واحدة على قصره، على الساحة، على البيوت الأخرى أو على المدينة التي كان يعيش فيها، تقدم الموكب متسللاً بهدوءٍ و بطءٍ نحو السماء . دائماً نحو الأعلى، ثم تحول إلى شاهٍ مضطربٍ، ثم إلى حزمة من ضباب ثم إلى لاشيء، كانت النافذة قد تُركت مفتوحة ومازالت، ما زالت إشعاعات القمر تنير الطاولة،وفي غرفة أخرى كان ثمَّة جسدٌ مُمَدَّدٌ فوق سرير تحت ضوء الشموع، من الجائز أنه جسد إنسانٍ خالٍ من الحياة، كان الوجه يشبه وجه أنغوستينا ، و ربما كان يرتدي رداءً من المخمل، ذا ياقةٍ تغطي كل الرقبة و على الشفاه البيضاء تجمدت ابتسامة غامضةٌ .

في اليوم التالي، تولّى جوفاني دروغو رئاسة الحرس في المحرس الجديد الذي كان عبارة عن معقل صغير يبعد مسيرة ثلاثة أرباع الساعة عن الحصن، ويقع فوق ذرى بعض الصخور المخروطية الشكل، تطل على سهل التتار، لقد كان هذا هو الموقع الأكثر أهمية، فهو معزول تماماً، و يجب قرع أجراس الإنذار عند أول خطر يمكن أن يقترب منه .

خرج دروغو من الحصن مساءً على رأس سبعين رجل، كان الأمر يتطلب الكثير من الجنود، ذلك لأن مناطق الحراسة تبلغ عشراً عدا عن فريقين من المدفعية، لقد كانت هذه المرة الأولى التي يضع فيها قدميه خارج المعبر الرئيس، عملياً كان خارج الحدود .

كان جوفاني يحس بوطأة المسؤولية الملقاة على عاتقه، لكنه كان ما يزال منشغلاً في التفكير بالحلم حول أنغوستينا ، الذي ترك في روحه رجْعاً جعله يتصلب في رأيه لقد بدا له أن ثمة علاقة حميمةً بين الحلم و بين ما يخبئ له المستقبل، وإن لم يكن هذا مجرد خرافة . دخلوا المحرس الجديد، و من ثم تم التبادل بين الحرس، حرس اليوم السابق غادروا المكان و قد جعل دروغو يراقب ابتعادهم عبر ركامٍ من الحصى، من هناك كان يمكن مشاهدة الحصن و كان سوراً طويلاً جداً، فقط سور حيث لا يكمن خلفه أيّ شيء، لم يكن ليفطن الحرس إليه، ذلك لأنه كان نائياً، فقط كان يمكن بين الفينةِ و الأخرى مشاهدة البيرق الذي كان يرفرف كلما هزته الريح .

لقد ظل دروغو قائد هذا المعقل النائي لمدة أربعٍ و عشرين ساعة، و إذا ما صدف و حدث شيء لم يكن من الممكن طلب أي نجدة تُذْكر، وإن أتى الأعداء،

فعلى المحرس أن يعتمد على قواه الذاتية، و لمدة أربـــع و عشرين ساعة، وبين تلك الأسوار فإن دروغو يعد أهم من الملك نفسه .

و بينما كان جوفاني ينتظر حلول المساء، فإنه أمضى الوقت في تأمل السهل الشمالي، ذلك أنه لم يكن من الممكن أن يرى منه أكثر من مثلث منظورٍ إليه من داخل الحصن، ذلك بسبب الجبال التي تحول دون ذلك . وفجأةً يظهر أمام ناظريه السهل كله ممتداً حتى نهاية الأفق عندها يمكن رؤية الضباب الاعتيادي، كان عبارة عن صحراء، مبلطة بالحجـــارة و قد انتشرت هنا و هناك جنبات ترابية قصيرة، إلى اليمين وفي أعمق الأعماق كان ثمة شيء أسود ربما كان عبارة عن غابة، و على الجانبين انتشرت سلسلة من الجبال الوعرة و قد بدت جميلة المنظر ذات حواف مدببة و قد غطى الثلج الخريفي ذراها، و لكن لم يكن ليأبه بها أحد، دروغو أو الجنود، كأن الحواس كلها متجهة نحو الشمال نحو السهل المتصحر الخالي من أي معنى و المملوء بالأسرار.

لعل ذلك جاء نتيجة التفكير بأنه القائد الأوحد لهذا المحرس، أو لعلها نتيجة رؤيته لهذه الأرض الخالية، بل من الجائز أنها ذكرى الحلم، وفي مطلق الأحوال فإن دروغو صار يشعر أن جزءاً أخرس قد بدأ ينمو حوله متساوقاً مع امتداد الدجى .

كانت ليلة من ليالي تشرين الأول، في زمن غير محدود، كان ثمة بقع لأضواء صحراء مبددة هنا و هناك، من يدري من أين كانت تنعكس! ثم ما يلبث أن يبددها الغسق فتتحول إلى رصاصية اللون، وعند الغروب، و كما جرت العادة، فإن ما يشبه الأحاسيس الشاعرية قد بدأت تتغلغل في روح دروغو، لقد كانت هذه هي ســـاعة الأمل وقد تَأَوَّبَتْهُ المشاعر البطولية التي عززتها خدمـــات الحراسة الطويلة و التي جعلت تتأصل في داخله يوماً بعد يوم و قد انضاف إليها شـــيء جديد بشكل عام، كان يفكر بمعركة يائسة أُسْندتْ إليه، مع قلة من

الرجال، في مواجهة عدد هائل من الأعداء، و كأنما اكتظ المحرس الجديد في هذه الليلة بمئات التتار .

يوماً بعد يوم تزداد مقاومته، الآن، لقد قتل من قتل من الرفاق وجُرح من جُرح، حتى هو كان قد أصيب بقذيفةٍ مخلفةٍ جرحاً كبيراً فيه لكنه لم يكن قاتلاً، مما جعله قادراً على الصمود، ثم ما زالت القيادة في يده .

الآن هاهي ذي الذخيرة في سبيلها إلى النفاد . إنه يتوقع خروج رأس آخر من رجاله و قد ضُمّدتْ جبهته، وأخيراً تأتي القوات الداعمة و هاهو ذا العدو يفر من أمامه، لكنه يهوي أرضاً و قد تخضب خنجره بالدماء، لكن ثمة من يناديه ؟ " أيها الملازم دروغو، أيها الملازم دروغو " يناديه الصوت، يهزه محاولاً إحياءه، أما دروغو فإنه يفتح عينيه ببطء . إنه الملك، الملك شخصياً منحنياً صوبه و هو يقول له أحسنت .

إنها ساعة الأمل، و هاهو ذا يجتر القصص البطولية التي ربما لم تكن لتتحقق أبداً، لكنها على الرغم من ذلك تفيد في بث الشجاعة في حنايا الحياة و في أحيان كثيرة قد تثير القليل من الرضى، إنها ما تنفك ترفض قبوله على أنه البطل الوحيد ، ترفض الاعتراف بجرحه، كما ترفض فكرة أن يأتي إليه الملك ليقول له أحسنت .

في العمق لقد كانت مجرد معركة بسيطة، معركة وحيدة، لكنها جدية، مملوءة بالعديد من البزات العسكرية، و قدرته الهائلة على الإبتسام في الوجوه الغامضة للأعداء، إنها مجرد معركة، ثم سيغدو سعيداً العمر بكامله .

لكن في تلك الليلة لم يكن من السهل الشعور بالبطولة، كان الديجور قد ضم بكفيه العالم، و قد تعددت ألوان سهل الشمال لكنها لم تكن قد هجعت بعد. كأن ثمة بؤساً يولد في هذه اللحظة .

كانت قد بلغت الثامنة مساءً، و قد غطت السماء السحب، و كان دروغو ما

زال يحدق في السهل، إلى اليمين، بالضبط أسفل المحرس كانت ثمة بقعة سوداء تتحرك " من الجائز أن عيني متعبتان " فكر دروغو " بسبب التحديق المستمر تعبت عيناي و هاأنذا أشرع في رؤية هذه البقع، لقد سبق أن حدث له شيء من هذا القبيل، عندما كان مازال فتى يقضي الليل كله في الدراسة .

حاول أن يغمض جفنيه بضع لحظات، ثم فتحهما و حدق فيما حوله فشاهد دلواً، ربما كان يستخدم في غسل الشرفة، ثم شاهد خطّافاً من الحديد على السور، كما شاهد مقعداً، ربما كان ضابط الحراسة السابق قد حمله إلى هنا من أجل الجلوس، ثم بعد دقائق معدودات عاد يحملق نحو الأسفل حيث كان قد سبق له و أن شاهد البقعة السوداء، كانت ما تزال في مكانها تتحرك ببطء .

ـ ترونك

نادى دروغو بنبرةٍ مهتاجة، فرد عليه على الفور صوت قريب .

ـ حاضر سيدي الملازم .

ـ آه . أنت هنا .

قال دروغو ثم تنفس الصعداء و أردف :

ـ ترونك، أرجو أن لا أكون مخطئاً، و لكن يبدو لي أني أرى شيئاً ما يتحرك هناك في الأسفل .

رد ترونك بنبرة منتظمة :

ـ أجل يا سيدي، منذ دقائق و أنا أراقبه .

قال دروغو .

ـ ماذا ؟ هل رأيته أنت أيضاً ؟ ماذا رأيت ؟ .

ـ ذلك الشيء الذي يتحرك سيدي الملازم .

أحس دروغو بالدماء تغلي في عروقه، ها قد بدأنا، فكر و قد نسي تماماً كل تخيلاته الحربية، هل يجب أن يحدث هذا بالضبط لي، الآن سوف تحدث بلبلة ما .

تساءل مرةً أخرى و هو يأمل أن يجيب الآخر بالنفي :

ـ هل رأيته أنت أيضاً ؟ .

رد ترونك :

ـ أجل يا سيدي، منذ دقائق عشر كنت قد هبطت نحو الأسفل للتأكد من نظافة المدافع ثم صعدت هنا و رأيته .

صمت الاثنان، حتى بالنسبة إلى ترونك فإن الأمر بدا غريباً و مثيراً للقلق .

ـ ماذا تعتقد يا ترونك ؟ ما عساه أن يكون ؟

ـ لست أفهم، أنه يتحرك بتأنٍ مفرطٍ .

ـ أجل، كنت أعتقد أنه يمكن أن تكون نواصي القصب .

ـ نواصي ؟ أية نواصٍ ؟

ـ ثمة حقل صغير من القصب هناك في الأسفل .

قال ذلك ثم أشار بيده إلى الجهة اليمنى، لكنه لم يكن ثمة طائل من ذلك لأن الظلام كان يغطي كل شيء .

ـ إنها عبارة عن نباتات تنمو في هذه الأرجاء، و في مثل هذا الفصل تظهر لها نواصي سوداء، و أحياناً تقتلعها الرياح، تلك الأطراف، و لما كانت خفيفة جداً فإنها تتطاير هنا و هناك و تظهر وكأنها دخان، و لكن لا يمكن أن تكون هذه هي .

صمت برهة ثم أضاف .

ـ ذلك لأنها تتحرك في العادة بسرعة أكبر ...

ـ إذاً ما عساها أن تكون ؟

رد ترونك :

ـ لست أدري، أناس، يبدو هذا غريباً، يأتون من مكان ما، ثم إنها مستمرة في الحركة، إن هذا غير مفهوم .

ـ إنذار، إنذار ..

صرخ في تلك اللحظة أحد الحراس القريبين، ثم آخر و آخر، ثم مرةً أخرى، حتى الحراس كانوا قد لاحظوا، هذه البقع السوداء، و من داخل المخفر استنفر الجنود الذين لم يكونوا يقومون بالخدمة، احتشد الجميع عند الحاجز يدفعهم الخوف و الفضول، قال أحدهم :

ـ ألا تراه ؟ أجل إنه بالضبط في الأسفل، هاهو ذا يتوقف الآن :

و قال آخر :

ـ لعله الضباب، ذلك أنه في أحيان كثيرة تظهر من خلال الضباب بعض الثقوب، و يبدو الأمر كما لو أنّ ثمة إنسان يتحرك خلفها، على حين أنها مجرد ثقوب الضباب .

ثم سمع قائلاً يقول :

ـ أجل، أجل، الآن أراه، إنه ذلك الشيء الأسود هناك، إنها كومة حصى سوداء هذا كل ما في الأمر .

ـ و لكن أي حصى ؟ هل أنت كفيف، ألا ترى أنه يتحرك .

ـ أقول لك إنه حصى، لقد سبق لي أن رأيته مراراً يشبه راهبة .

يضحك أحدهم، فيتدخل ترونك :

ـ اذهبوا من هنا، اذهبوا من هنا، ادخلوا إلى الداخل .

كان ترونك يتوقع أن كل هذه الأصوات تثير هيجان الملازم، يدخل الجنود إلى الداخل و قد اعتصر الأسى قلوبهم، ثم ران الصمت مرةً جديدة .

تساءل دروغو و قد بدا أنه عاجز عن تقرير أي شيء بنفسه :

ـ قل لي يا ترونك، في حالة كهذه هل تقرع جرس الإنذار !

ـ إنذار في الحصن ؟ هل تريد أن تطلق طلقة أيها الملازم ؟

ـ مه، لست أدري بالضبط، و لكن يبدو أننا يجب أن ندق جرس الإنذار.

رد ترونك و هو يخفض رأسه :

ـ لو كنت في محلك لتريثت قليلاً، أن تطلق النار، فإن هذا سيثير هيجاناً في الحصن ثم لا شيء بعد ذلك .

أكد دروغو :

ـ هذا حق .

ثم أضاف ترونك :

ـ ثم إن هذا سيكون مخالفاً للأنظمة، فالأنظمة تقضي أن يقرع جرس الإنذار في حالة التهديد و حسب، إنها بالضبط كذلك، في حالة التهديد، في حالة ظهور مسلحين، وفي اللحظة التي يستطيع المرء أن يقرر عندما يقترب التهديد منه مائة متر بعيداً عن حدود السور، هذا ما تقرره الأنظمة .

أكد دروغو :

ـ هذا حق بالفعل هذا الشيء يبعد أكثر من مئة متر أليس كذلك ؟

رد ترونك :

ـ هذا ما أقوله أنا، ثم كيف يمكن أن تقرر أنه شخصٌ .

قال دروغو و قد اعتراه اضطراب :

ـ إذاً ما عساه أن يكون، هل هو روح ؟

لم يجب ترونك .

كانت تنهشهما الحيرة في هذه الليلة اللانهائية، و هما دروغو و ترونك مستندان إلى الحاجز و قد سمْرا أعينهما نحو العمق، هناك حيث يبدأ سهل التتار، على حين بدت البقعة الغامضة ثابتة في مكانها كأنها تغفو مضطجعة ثم رويداً رويداً أخذ يتملك دروغو شعورٌ أن هذا مجرد لا شيء .

إنه مجرد جلمود يشبه راهبة و أن عينيه مخدوعتان، إنه مجرد تعب، وهْمٌ أخرق، و هاهو ذا يشعر به مجرد ظل ذي كثافة مرّة، كما لو أنه يشبه ساعات

القدر التي تمر أمامه دون أن تمسه على حين يضيع صخبها في حين تبقى وحيده تائهة في لجة بعض الأوراق اليابسة ، و قد ثارت في داخله حسرة لهذه الفرصة الضائعة .

ثم بعد ذلك، و من أعماق الوادي تصاعدت أنفاس الخوف و ذلك بمرور الليل و بمرور الليل بدأ دروغو يستشعر ضآلته ووحدته، أما ترونك فقد كان جد مختلف و ذلك كي يتمكن من أن يمد له العون كصديق، آه، لو كان الرفاق بقربه في هذه اللحظة، واحد منهم على الأقل، فإن الوضع سيكون مختلفاً، ربما تمكن دروغو آنئذٍ من المزاح وربما لم يكن انتظار بزوغ الفجر ليسبب له كل هذا العذاب .

كانت لغات الضباب تنداح متشكلة على امتداد السهل، أرخبيل شاحب فوق محيط أسود، بعض الضباب كان يمتد عند أقدام المحرس، مخفياً ذلك الشيء الغامض و السري الذي سبق و شاهده، كان الهواء رطباً، وعلى أكتاف دروغو كان الرداء يتأرجح مترهلاً و ثقيلاً .

أي ليل مديد هذا ؟ كان دروغو قد فقد كل أمل في نهايته عندما أخذت السماء تبدو أكثر شحوباً، لكن الزوابع المتجمدة كانت تشير إلى أن الشفق لم يعد بعيداً، في هذه اللحظة كان يمكن أن يدهمه النوم و هو واقف على قدميه مستنداً إلى حاجز الشرفة، و لمرتين اثنتين ترك دروغو رأسه يتدلى، و لكن لمرتين اثنتين كان ينهضه مستقيماً، أخيراً يتناءى الرأس خاملاً ، على حين أذعنت الأجفان تحت وطأة ثقل النعاس، عندئذٍ ولد اليوم الجديد .

استقام فجأة، ذلك لأن أحداً ما مسّ ذراعه، فطفا من جديد ببطء فوق الأحلام و قد أذهله الضوء. ثمة صوت، إنه صوت ترونك يقول :

ـ سيدي الملازم، إنه جواد .

إذاً عاد يذكر الحياة، الحصن، المحرس الجديد، سر البقعة السوداء، نظر

من فوره إلى الأسفل، متلهفاً لمعرفة ذلك، و هو راغب في أن لا تظهر سوى أحجار و جنبات، لا شيء آخر سوى السهل هكذا كما كان دائماً منعزلاً وخاوياً .

لكن الصوت عاد يتكرر :

ـ سيدي الملازم، إنه جواد .

لكن دروغو كان يرى شيئاً غير حقيقي، واقفاً عند أقدام الصخور لقد كان جواداً، لم يكن كبيراً، بل قصيراً و سميناً، أقدامه نحيلة تثير الفضول، على حين كانت ذؤابته تسيل على رقبته، كان غريب المظهر، لكنه ذو لون مذهل، لون أسود لامع كان يلطخ المكان .

من أين يأتي ؟ من هو صاحبه ؟ ليس ثمة أي مخلوق ســوى الغراب والحيات الصغيرة فمن استطاع أن يغامر بالوصول إلى هنا منذ سنين عديدة، الآن على العكس يظهر حصان، و قد لاحظ فوراً أنه لم يكن وحشياً، ولكن بهيمة مصطفاة، حصان عسكر، (ربما كانت قوائمه جد نحيلة) .

كان شيئاً غير مألوف، ذا معنى مثير للقلق و الاستفهام، لذا فلم يكن لا دروغو و لا ترونك و لا الحرس، بل و حتى الجنود الذين يحدقون عبر كوى الطابق السفلي ـ لم يكن أحد منهم قادراً على رفع عينيه عنه .

ذلك الحصان كان يكسر القاعدة، حاملاً معه الخرافة القديمة للشمال، التتار،المعارك، لقد كان وجوده اللامنطقي يغطي الصحراء برمتها .

لكن الحصان بمفرده لم يكن يعني شيئاً كبيراً، إنما الأشياء التي تكمن خلف ظهوره بدت و كأنما يجب أن تظهر بعد ذلك أشياء أخرى ... لكن سرجه كان متوضعاً بنظام مما يدل على أنه كان مركوباً منذ أمد قصير، إذاً فهو يحمل معه قصة مثيرة للشك، الشيء الذي كان حتى البارحة أمراً غير معقول، خرافة مثيرة للسخرية، إذاً كان يمكن أن يكون هذا شيئاً حقيقياً و هو أمر يستشعره دروغو، الأعداء السرّيون التتار مختفون بين الجنبات بين حطام الصخور الجامدة و

الخرساء إنهم ينتظرون الليل من أجل الشروع بالهجوم ثم ربما لحق بهم آخرون ثمة خطر سوف يخرج ببطء من بين ضباب الشمال .

هؤلاء ليس لديهم موسيقى ولا أغانٍ، و لا سيوف لامعة، و لا بيارق جميلة، أسلحتهم غير شفافة ذلك لأنها لا تلمع تحت وهج الشمس، أما جيادهم فلا تصهل، لكن حصاناً صغيراً ـ هذا هو التفكير الذي كان يسود في المحرس الجديد ـ حصان جديد كان قد فر نحو أعدائهم و هو يركض أمامهم بغية خيانتهم، من الجائز أنهم لم ينتبهوا إليه، ذلك لأنه كان قد في أثناء الليل .

كان الحصان يحمل معه رسالة ثمينة، و لكن كم من الوقت بقي حتى يصل الأعداء ؟ هل يسبقهم بكثير ؟ حتى البارحة لم يكن بمقدور دروغو أن يخطر القيادة في الحصن، و في أي حال يمكن أن يكون التتار قريبين جداً .

إذاً هل نقرع جرس الإنذار ؟ يقول ترونك لا،فالأمر لا يتعدى وجود حصان صغير، و كونه وصل إلى أسفل المحرس الجديد يمكن أن يعني أنه وحيد، من الجائز أن صاحبه كان صياداً وحيداً اندفع بشكل طائش نحو الصحراء، أو أنه ميت، أو لعله مريض و عندما وجد الحصان نفسه وحيداً اندفع طالباً النجدة، ذلك لأنه شعر أن ثمة أناس في الحصن، و هو ينتظر أن يُحمل إليه العلف .

كل هذا كان يثير الشك في أن ثمة جيشاً يقترب، ما هو الدافع الكامن وراء هروب جواد هكذا من صحبته ليصل إلى هذه الأرض غير المضيافة ؟ .

ثم يضيف ترونك أنه قد سمع بأن جياد التتار بيضاء اللون، و حتى في لوحة قديمة معلقةٍ في إحدى صالات الحصن كان يمكن رؤية التتار وهم يمتطون جياداً بيضاء اللون إنما هذا الحصان أسود كالفحم .

و هكذا قرر دروغو أن ينتظر حتى المساء، و في تلك الأثناء كانت السماء قد غدت ناصعة، على حين أضاءت الشمس المكان مثيرةً الدفء في قلوب الجنود .

حتى جوفاني كان يشعر بالطمأنينة بسبب هذا النور الباهر المنتشر لقد فقدت

فانتازيا التتار كل مسوغات وجودها، كل شيء يعود إلى مكانه المعتاد، الحصان كان حصاناً بسيطاً، و فيما يتعلق بظهوره يمكن إيجاد العديد من التفسيرات دون الاضطرار إلى اللجوء إلى التأويل القائل بوجود عدو على وشك الانقضاض، إذاً فقد نُسيت المخاوف الليلية، كان يشعر أنه على استعداد للدخول في أي مغامرة مملوءة بالبهجة التي أثارتها أحاسيسه بأن قدره قد غدا على الأبواب، و بهذا الظهور المفاجئ الذي كان يمكن أن يجعله يقفز إلى ما وراء الآخرين .

انه يكمل تبصره الشخصي بأدق تفاصيل نظام خدمة الحراسة، و كأنه يظهر بذلك لترونك و لباقي الجنود بأن هذا الظهور المفاجئ للحصـــان وإن كان مثيراً للقلق و غريباً فإنه لم َيفُتّ من عَضُدِهِ و لم يهزه شخصياً وكان يجد هذا الشعور عسكري الطابع، أما الجنود ـ و الحق يقال ـ فإنهم لم يكونوا يشعرون بأي اضطراب لقد أثار الحصان في نفوسهم الرغبة في الضحك، و كان الأمر مستحباً للغاية، أن يتمكنوا من إحضاره إلى الحصن، بل إن أحدهم طلب الإذن بذلك من الرقيب، و قد اكتفى هذا الأخير بأن نظر إليه نظرة توبيخ و كأنه يقول له بأن ليس ثمة مجال للمزاح فيما يتعلق في أمور الخدمة.

في الطابق السفلي للمحرس، هناك حيث توجد المدافع، كان أحد الجنود قد هاج و ماج، كان اسم هذا الجندي هـــو جوزيف لاتزاري، و هو جندي دخل حديثاً في الخدمة و كان يدّعي بأن هذا الحصان هو حصانه، أنه يتعرف عليه تماماً، لا يمكنه أن يخطئه، و من الجائز أنه فرعندما خرجت الخيل من الحصن تريد أن ترد الماء .

ـ إنه فيكو... حصاني .

كان يصرخ و كأنه بالفعل حصانه و أن الآخرين قد سرقوه منه .

هبط ترونك إلى الأسفل، و على الفور لجم هيجان الجندي، و جعل يظهر للاتزاري بشكل جلف بأن جواده لا يمكن أن يكون قد هرب، ذلك لأنه من أجل

عبور وادي الشمـال، عليه أن يتجــاوز أسوار الحصن و صعود الجبال.

لكن لاتزاري أجاب بأنه سمع أنه ثمة ممر، ممر مريح عبر الصخور، إنها طريق قديمة مهجورة و قد نسيها الآن الجميع، و بالفعل كانت ثمة خرافة سائدة عند الكثيرين في الحصن و هي تقول الشيء نفسه، هذه الخرافة المثيرة للفضول ليست سوى أكذوبة، ذلك أنه لم يصادف وأن عثر أحد على هذا المعبر، فإلى يسار الحصن و إلى يمينه، و لعدة كيلو مترات كانت تنهض جبال شاهقة ووحشية لم يسبق أن تسلقها أحد .

لكن الجندي لم يكن متحمساً جداً و قد ثبت عند فكرة البقاء داخل المحرس دون الذهاب من أجل إحضار الحصان، ذلك أن الأمر يتطلب نصف ساعة من المسير ذهاباً و إياباً .

على كلٍّ، كانت الساعات تمضي، تتابع الشمس سيرها الوئيد نحو الغرب، في الوقت المناسب تم تبديل الحرس، و كانت الصحراء تبدو قاحلة أكثر من أي وقت مضى، كان الحصان الصغير مازال واقفاً مكانه، ثابتاً لا يتزحزح، و كأنه ينام، أو أنه كان يذهب أحياناً ليحِشَّ بعض الأعشاب هنا و هناك، كانت أنظار دروغو منساقة نحو البعيد لكنه لم يلحظ أي شيء جديد، ما زالت الصخور المشعة، الدغلات موجودةً، وضبابٌ في أقصى الشمال يبدأ بالتلوّن كلما اقترب المساء .

وصل الحراس الجدد من أجل نوبة التبديل، فغادر دروغو و جنوده المحرس و هم يشرعون بعبور ركام الحصى في أثناء عودتهم إلى الحصن، بين ظلال المساء البنفسجية، وصلوا إلى الأسوار، لفظ دروغو كلمة السر، فتحت الأبواب، اصطف الحرس فيما يشبه الباحـة و أخذ ترونك يباشر عملية التفقد على حين توجه دروغو إلى مركز القيادة ليعلمها بأمر الجواد الغامض كما سبق، فقد قدم دروغو نفسه إلى كابتن التفتيش ثم توجه الاثنان باحثين عن الكولونيل وحسب العادة المتبعة، فإنه فيما يتعلق بأي طارئ، يكفي إخطار الميجور المساعد أولاً، و

لكن في هذه المرة كان يمكن أن تكون الأمور خطيرة جداً لذا لم يكن من المجدي إضاعة الوقت، في كل الأحوال ما لبث أن انتشر الخبر بشكل صاعق في كل الحصن، ذلك أن أحداً ـ ربما كان أحد أفراد الحرس ـ كان قد أشاع أنه ربما كان التتار معسكرين عند أسفل الصخور، و عندما علم الكولونيل فإنه اكتفى بالقول " أنه من الواجب إحضار الحصان، فإن كان يحمل سرجاً فإن هذا سوف يمكننا من معرفة مصدر قدومه " .

و لكن لم يعد ثمة طائل من فعل أي شيء، ذلك أن الجندي جوزيف لاتزاري و بينما كان الحرس الذين أنهوا الخدمة في طريق عودتهم إلى الحصن فقد نجح في التخفي خلفَ إحدى الصخور دون أن ينتبه أحد إلى ذلك، ثم ما لبث أن انحدر بمفرده عبر ركام الحصن ثم وصل إلى الحصان واستطاع إحضاره إلى الحصن و قد استخلص و الدهشة تملؤه أنه ليس حصانه، و لكن لم يكن من الممكن فعل أي شيء آخر .

فقط عندما أدخلوا الحصان تنبه أحد زملائه إلى غيابه، و لو أن ترونك علم بحقيقة الأمر، لقضى لاتزاري شهريـــن على الأقل في السجن،

وكان يجب التنبه إلى حقيقة الأمر، ذلك أنه عندما باشر الرقيب بالتفقد، وعندما لفظ اسم لاتزاري فإن أحد رفاقه هتف حاضر .

لكن و بعد مضي بضع دقائق تنبه الجنود إلى أن لاتزاري لا يعرف كلمة السر إذ لم يعد الأمر مقصوراً على السجن و حسب بل و على حياة لاتزاري، ذلك أنه إذا اقترب من الأسوار و لم يلفظ كلمة السر فإنه سوف يعرض نفسه لإطلاق النار، و هذا ما حدا باثنين أو ثلاثة من زملائه إلى الذهاب باحثين عن ترونك و ذلك لكي يجد حلاً لهذا المأزق .

بعد ذلك أقترب لاتزاري من الأسوار و هو يجر الحصان من لجامه و فوق ممشى الدورية كان ثمة من ينادي ترونك الذي كان قد انتهى لتوه من أخذ التفقد و

سرعان ما اعترى هذا الأخير شعور بالجزع، لم يكن بإمكانه تخمين حقيقة الأمر لكنه شعر بأن ثمة شيئاً مثيراً للقلق، و أن الأمور لا تسير كالمعتاد .

حاول أن يفكر بما عساه أن يكون قد حدث، مستعرضاً بذهنه مسيرة اليوم حتى وقت دخولهم الحصن، لكنه لم يكن يساوره الشك بأي شيء، ثم بعد ذلك و كأنه قد اصطدم بعائق ما، فكّر، أجل ربما في أثناء التفقد كان ثمة مخالفة للقواعد، كما يحدث عادة في حالات كهذه دون أن يكون قد تنبه إلى ما عساه أن يكون قد حدث .

و بينما كان أحد الحرس يقوم بدوريته المعتادة فوق بوابة المدخل لاحظ في الظلام و فوق الحصى أن ثمة شكلين سوداوين يقتربان إلى الأمام على بعد مئتي متر .

لم يُعِرِ الأمر اهتماماً كبيراً، اعتقد أنه مجرد خداع بصر، و قد حدث في مرات عديدة و في هذه الأماكن المتصحرة، حيث يبقى المرء فترة طويلة في حالة انتظار فإنه تظهر حتى في أثناء النهار أشكال آدمية بين الجنبات و الصخور، يمكن أن يشعر المرء بأن هناك من يتلصص، ثم عندما يذهب ليتحقق من ذلك الشيء لا يجد أي شيء .

ولكي يبعد الحارس الفكرة عن ذهنه فإنه أخذ يتطلع إلى ما حوله، حيّى أحد زملائه، كان حارساً آخر على بعد ثلاثين متراً منه، ثم ما لبث أن أخذ يعدل الخوذة التي كان يعتمرها، ذلك أنها كانت تضغط على جبهته ثم حدق نحو اليسار فشاهد ترونك، ثابتاً في مكانه يحدق فيه بإمعان .

استدار الحارس، تطلع مرة أخرى أمامه، فلاحظ أن الظلين لم يكونا حلماً من أحلام اليقظة، هاهما الآن يقتربان إنهما على بعد سبعين متراً إنهم بالضبط جندي و جواد، إذاً فقد تناول بندقيته بيده، ثم وضعها في حالة جاهزية لإطلاق النار، بينما كان يشعر بتصلب من جرّاء القيام بهذه الحركة التي تعلمها مئات

المرات في أثناء فترة التأهيل، ثم صرخ " مَنْ هناك ؟ مَنْ هناك ؟ " لم يكن قد مضى على دخول لاتزاري الخدمة العسكرية زمن طويل، ذلك أنه لم يكن على علم بأنه لا يمكنه دخول الحصن دون معرفة مسبقة بكلمة السر، كل ما كان يحس به هو مجرد شعور بالخوف من العقاب المنتظر جزاء فعلته هذه ثم من يدري ؟ ربما عفا عنه الكولونيل بسبب قصة حصانه الضائع تلك، لقد كان بهيمة جميلة جداً كأنه جواد جنرال .

لم يتبقَ سوى أربعين متراً، كانت حوافر الجواد الحديدية الأربعة تطرق الصخور، كان الليل قد خيم تماماً و من بعيد كان يمكن سماع صوت بوق " مَنْ هناك ؟ مَنْ هناك " كرّر الحارس مرة أخرى ثم تهيأ لإطلاق النار .

اعترى لاتزاري ضيق مفاجئ عند سماعه نداء الحارس، بدا له الأمر غريباً بعض الشيء، إنه الآن في الوسط، و شعوره بأن أحد زملائه يستنطقه بهذه الطريقة، لكنه هدأ قليلاً عند سماعه النداء الثاني " مَنْ هناك ؟ " ذلك لأنه تعرف على صاحب الصوت إنه صوت صديقه من فصيلته نفسها، و كأنهم يداعبونه بدعوته مورينّو صرخ :

ـ هذا أنا، لاتزاري . أرْسِلْ من يفتح الباب لي لقد فقدت حصاني لا تحاول أن تنبه أحداً إلى وجودي، و إلا تعرضت لما لا يسر في الداخل.

لم يتزحزح الحارس، متقلداً بندقيته بيده، ثابتاً في مكانه لا يريم و هو يحاول أن يؤخر ما استطاع إلى ذلك سبيلاً النداء الثالث .

" مَنْ هناك ؟ " من الجائز أن لاتزاري كان قد تنبه إلى الخطر، عندئذٍ قد يعود أدراجه، ثم ربما استطاع أن ينتظر حتى اليوم التالي مع حامية المحرس الجديد، و لكن على بعد أمتارٍ كان ترونك يثبت أنظاره عليه بجدية تامة .

لم يتفوه ترونك يكلمه واحدة، إنه ينظر الآن إلى الحارس، الآن من الجائز أن ينال لاتزاري عقوبة على ما فعل، و إلا فما الذي توحي به نظرات ترونك، لم

يكن الجندي و الحصان يبتـــعدان أكثر من ثلاثين متراً، و سيكون من التهور الانتظار أكثر من ذلك، و لكن كلما زاد اقتراب لاتزاري ازداد احتمال إصابته .

" مَنْ هناك ؟ مَنْ هناك ؟ " صرخ الحارس الصرخة الثالثة، كان صوته يحمل في طياته تحذيراً، ربما مخالفاً للأنظمة و كأنه يقول إرجع إلى الخلف وانتظر الوقت المناسب للدخول و إلا عرضت نفسك للذبح .

أخيراً فهم لاتزاري، تذكر النظم القاسية للحصن، أحس بنفسه ضائعاً ولكنه بدلاً من أن يهرب ترك لجام الحصان - من يدري لم ؟ -

ثم اقترب وحيداً و هو يصرخ بصوت ثاقب :

- هذا أنا لاتزاري، ألا تراني ؟ موريتو . آه ... موريتو .

هذا أنا، و لكن ما الذي تفعله مع البندقية ؟ هل جننت موريتو؟

لكن الحارس لم يعد موريتو، إنه ببساطة جندي ذو وجه قاسٍ و هاهو الآن يرفع البندقية ببطءٍ و هو يصوب نحو الرفيق، كان قد أسند بندقيته إلى كتفه .. و بطرف عينه كان يرقب الرقيب و هو يأمل بأن يشير إليه بأن يدعه و شأنه، لكن ترونك كان يحدق فيه بنظرةٍ ثاقبة .

و دون أن يلتفت لاتزاري فإنه تقدم بضع خطوات وهو يدوس على الحجارة ثم يصرخ :

- ها أنا ذا لاتزاري ألا ترى أنه أنا ؟ لا تطلق النار موريتو .

لكن الحارس لم يعد أبداً موريتو المعتاد، و الذي كان يمزح طوال الوقت معه، كان حارساً للحصن و حسب، مرتدياً بزةٍ زرقاء غامقة وقد لف حول خصره حزام الرصاص، انه يشبه تماماً باقي الحرس في أثناء الليل، لقد كان عبارة عن حارس يستعد لإطلاق الرصاص و هاهو ذا الآن يضغط على الزناد، يتناهى إلى أذنيه صوت دويٍّ حاد، و بدا

و كأنه يسمع صوت ترونك المبحوح و هو يردد "سَدِّدْ جيداً " هذا وإنْ لم

ينبس ترونك ببنت شفة ، أحدثت البندقية ضوءاً خفيفاً، ثم قليلاً من غمامة من الدخان، لم تكن الطلقة لتحدث هذا الصخب كله، و لكن وفيما بعد، ترددت أصداؤها و هي تنتشر من سور إلى آخر، ظلت طويلاً مبثوثة في الهواء، ثم ما لبثت أن كُتمت مثل أنين بعيد، و كما يحدث عادةً عند الرعد .

الآن لقد قام بالواجب على أكمل وجه، و هاهو ذا الحارس يضع البندقية على الأرض ثم يتأكد من خلف الحاجز و هو يحدق نحو الأسفل آملاً أن تكون طلقته قد خابت، و في قلب العتمة بدا أن لاتزاري مازال واقفاً على قدميه .

لا، مازال لاتزاري واقفاً على قدميه، و حوله الجواد، ثم بعد ذلك و في عمق السكون الذي خلّفه دويُّ الطلقة، سمع صوتاً ذا نبرةٍ مملوءةٍ بالحسرة والأسى " آه ... يا موريتو . لقد قتلتني " .

هذا ما قاله لاتزاري، ثم ما لبث أن ترنح ببطءٍ متقدماً نحو الأمام كان ترونك ذو الوجه الذي لا يمكن معرفة ما يخبئه، ثابتاً لا يريم، على حين كان ثمة اضطراب عظيم كان قد بدأ ينتشر عبر إلتواءات الحصن وثناياه .

هكذا بدأت تلك الليلة التي لا تنسى، ريح صَرْصَرٌ، فوانيس متأرجحة، نفخ غير معتاد في الأبواق، خطوات في الردهات، غيوم كانت تهبط من الشمال، تمس بأطرافها قمم الصخور تاركةً أجزاء منها ملتصقة هناك،

و لكن لم يكن ثمة وقت للتوقف، ذلك أن شيئاً هاماً كان يدعوها .

لقد كان يكفي طلقة واحدة، ضربة بسيطة من فوهة البندقية، مما جعل الحصن يستيقظ، منذ زمن و الصمت يخيم، و هاهم الآن مشدودون نحو الشمال لسماع صوت الحرب،الذي بدأ يتناهى إليهم صمتٌ جدٌّ عميق، الآن لقد أطلقت رصاصة ـ محشوةً بالبارود قذيفة رصاص تزن اثنين و ثلاثين غراماً ـ وهاهم الرجال ينهضون و كأنما كانت تلك إشارة البدء .

بالتأكيد، فحتى تلك الليلة، لم يكن ثمة من تلفّظ بالاسم الذي كان مرسوماً في القلب باستثناء بعض الجنود، أما الضباط فقد كانوا يفضلون أن يخرسوه ذلك أن هذا كان أملاً،لقد نهضت أسوار الحصن من أجل التتار، وهاهم يستهلكون جزءاً من حياتهم، من أجل التتار، كان الحرس يروحون و يجيئوون ليل نهار كأنهم آلات تتحرك، من الذي كان يتغذى من هذا الأمل كل صباح فتنشأ بداخله ثقةٌ جديدةٌ، من كان يحتفظ به مخبىءٌ إياه في أعمق أعماقه، من لم يكن قادراً على الإلمام به والسيطرة عليه، و هو يعتقد بأنه قد فقده، و لكن في الوقت نفسه لاأحد قادر على البوح به، كان يمكن أن يكون هذا نذير شؤم، وفوق ذلك بدا و كأنه يبوح بالأفكار الأكثر غنىً، على حين كان الجنود يشعرون بالخجل من جرّاء ذلك، حتى الآن، لم يتعَدَّ الأمر سوى جندي ميت وحصان مجهول الهوية .

في موقع الحراسة، و عند الباب الذي يفضي إلى الشمال، هناك حيث حدثت المأساة كان ثمة هيجان كبير، حتى و إن يكن مطابقاً للأنظمة، وكان ترونك يفكر

فـي العقـاب الـذي ينتظــره، فهـو وحـده المـسؤول، وهـو مـن كـان يجـب أن يمنـع لاتزاري من الهروب، هو من كان يتوجب عليه أن يتنبه فور غيابـه عنـد عـودتهم و أن يتنبه إلى أن جندياً كان قد رد عليه باسم لاتزاري في أثناء التفقد .

و الآن، هاهو الميجـور مـاتّي، قلـقٌ مـن شـعوره بـأن عليـه أن يمـارس سـلطته وقوته، كان ذا وجه غريب، غامض و غير مفهوم، إنه يكـاد يعطـي الانطبـاع بأنـه يبتسم، من الواضح أنه كان قد أحيط علماً بكل ما حـدث، و هـاهو ذا يعطـي الأمـر إلى الملازم منتانا الذي كـان مسؤولاً عـن الخدمـة فـي تلـك الليلـة بـأن يـسحب جثـة الجندي .

منتانا كان عبارة عن ضابط خامل، إنه أكبر ملازمي الحصن سنــاً، و لـو لـم يكن يحمل في إصبعه خاتماً مرصعاً بالماس، لو لم يكن ماهراً بلعبة الشطرنج لمـا تنبه أحد إلـى وجـوده، لقد كانـت قطعـة المـاس الثمينـة التـي يحملهـا خاتمـه ضـخمةً للغايـة، كمـا أن القليـل مـنهم كـان يـستطيع أن يغلبـه فـي لعبـة الـشطرنج، لكنـه فـي مواجهة الميجور ماتّي كان يرتجف و قد كاد يفقد صـوابه مـن جـرّاء تكليفـه بعمـل بسيط مثل جر الجثة و لحسن حظه فقد ظهر الميجور ماتّي واقفاً علـى قدميـه عنـد إحدى الزوايا، و قد نادى الرقيب ترونك قائلاً :

ـ ترونك، لمّا لم يكن لديك ما تفعله، فلتتولَّ قيادة البعثة المكلفة بإحضار الجثة .

قال ذلك بنبـرة جد طبيعيـة، علمـاً بـأن ترونـك هـو صـف ضـابط لا قيمـة لـه، وليس له أي علاقة شخصية بما حدث، ذلك أن ماتّي لم يكن قادراً علـى توجيـه أي تأنيب مباشر له، لذا فقد بدا وجهه أبيض من الغضب، و لم يعد يجد مـا يقولـه، لقد كان يفضل أن يتعـرض لـسلاح التحقيـق الأمضـى و الأشد قسوة، تحقيقـات هادئـة وثائق مكتوبة، تؤدي إلى تضخيم كبير لهذا التقصير، و من ثم تؤدي إلى عقاب .

لم يرفّ جفن ترونك، بل اكتفى بالإجابة،حاضر سيدي، ثم أسرع إلى الباحـة

وراء البوابة، بعد قليل، خرجت من الحصن مجموعة صغيرة تحت ضوء الفوانيس، على رأسهم ترونك و أربعة جنود حاملين نقالة و أربعة آخرون مسلحون من أجل حمايتهم، آخرهم كان ماتّي نفسه، مرتدياً ملاءةً حائلة اللون، و هو يحك بخنجره الحصى .

هاهم أولئك يجدون لاتزاري الميت، الوجـــه مدفون في التراب، والذراعان ممدودتان إلى الأمام .

بندقيته المحمولة على نِجَادٍ، كانت قد حشرت في أثناء سقوطه بين صخرتين، ثم نهضت نحو الأعلى، هكذا بحيث كان مقبضها متجهاً إلى الأعلى، كان شيئاً غريباً رؤية مثل هذا المنظر .

و عند سقوط الجندي أرضاً جُرِحَتْ يده، و قبل أن يبرد الجسد خرج الدم منه مشكلاً بقعةً فوق صخرةٍ بيضاء، الجواد الغامض كان قد اختفى، انحنى ترونك على الميت، ثم أمسكه من كتفيه لكنه سرعان ما نهض مبتعداً عنه و كأنه أدرك أنه خالف الأنظمة لذلك أنهضوه، قال آمراً الجنود بصوت منخفض وسيئ "و لكن ارفعوا البندقية قبل ذلك " انحنى أحد الجنود من أجل حل الحزام وهو يركن المشكاة على أحد الصخور بالقرب من الميت، لم يكن لاتزاري قد أغلق جفنيه تماماً، لذا فقد انعكس ضوء خفيف من بياض عينيه .

ـ ترونك .

نادى الميجور ماتّي و قد وقف في الظل .

ـ أمرك سيدي الميجور.

رد ترونك متأهباً، و الجنود توقفوا عن فعل أي شيء.

سأل الميجور و هو يكاد يجر الكلمات، كما لو أنه يتحدث بفضول وسأم :

ـ أين حدث ذلك ؟ إلى أين يهرب ؟ هل كان عند النبع ؟ هناك حيث توجد الحجارة ؟

ـ أجل يا سيدي عند الحجارة .

رد ترونك دون أن يضيف أي كلمة :

ـ و لم يشاهده أحد عندما هرب ؟

رد ترونك :

ـ لا يا سيدي، لم يشاهده أحد .

ـ عند النبع أليس كذلك ؟ كان المكان معتماً ؟

ـ أجل يا سيدي كان معتماً .

انتظر ترونك بضع لحظات، و لما كان ماتّي قد صمت، فإنه أشار إلى الجنود كي يتابعوا عملهم، أحدهم حاول أن يحل نجاد البندقية، لكن الماسك كان قاسياً لذا فقد وجد صعوبة في سحبه، و لما حاول سحب الميت وجد أن الجسد ثقيلٌ جداً، ثقل غير مألوف، كأنه قُدَّ من رصاص .

نزعت البندقية، قام الجندي بقلب الجثة بأناة، فاتجه الوجه إلى الأعلى، الآن يمكنه رؤية وجهه بشكل كامل، الفم مغلق، و خالٍ من أي معنى، العينان كانتا نصف مفتوحتين، و جامدتان و هما تقاومان ضوء المشكاة .

ـ في جبهته ؟ تساءل صوت ماتّي الذي كان قد لاحظ على الفور وجود ما يشبه الثقب فوق الأنف تماماً .

رد ترونك دون أن يفهم :

ـ أمرك .

رد ماتّي و هو يكاد يتأفف من تكرار عبارته :

ـ كنت أعني أنه قد أصيب في جبهته .

رفع ترونك المشكاة، ثم أضاء وجه لاتزاري، لاحظ هو الآخر وجود ثقب في جبهته، و بدافع غريزي مد إصبعه كي يلمسه، لكنه سرعان ما سحبها إلى الوراء و هو يشعر باضطراب .

ـ أعتقد ذلك يا سيدي الميجور، هنا بالضبط في وسط الجبهة .

(و لكن لم لا يأتي هو لرؤية الميت إذا كان الأمر يهمه كثيراً ؟ لِمَ يكتفي بهذه الأسئلة الغبية ؟) .

الجنود و قد لاحظوا اضطراب ترونك تابعوا عملهم، اثنان منهم رفعا الجثة من كتفيها، اثنان رفعا القدمين و ظل الرأس يتأرجح نحو الخلف بشكل مثير للرعب، كان الفم الذي تجلد بفعل الموت قد عاد و انفرج قليلاً .

تساءل ماتّي الذي مازال يقف في الظل :

ـ و لكن من أطلق النار عليه ؟

كان ترونك غافلاً في تلك اللحظة، كان انتباهه محصوراً بالميت وحَسْبَ

.

" ارفعوا الرأس عالياً " كان يصدر الأوامر بسخط عميق، كما لو أنه كان هو الميت بالذات، ثم ما لبث أن تنبه إلى أن ماتّي كان يحدثه فانتصب في وضعية المهتم قائلاً :

ـ أرجو المعذرة سيدي الميجور ... كنت ...

ـ لقد قلت ...

كرر الميجور ماتّي، و هو يدقق الكلمات موحياً بأنه إذا لم يفقد جسده حتى الآن، فالفضل يعود إلى الميت .

ـ لقد قلت، من الذي أطلق الرصاص عليه ؟

ـ سأل ترونك الجنود بصوت منخفض :

ـ ماذا كان يُدعى ؟

رد أحد الجنود :

ـ مارتللي . جوفاني مارتللي .

رد ترونك بصوت عالٍ :

ـ جوفاني مارتللي .

ـ مارتللي .

كرر الميجور بينه و بين نفسه (هذا الاسم لا يبدو أنه غريب عنه يجب أن يكون أحد الفائزين بمسابقة الرمي، كان ماتّي هو الذي يدير مدرسة الرمي، و كان يذكر أسماء أفضل الرماة) قال متسائلاً :

ـ من الجائز أنه ذلك الذي كانوا يدعونه موريتو ؟! ...

رد ترونك و هو ثابت :

ـ أجل يا سيدي، أعتقد أنه كانوا يدعونه موريتوّ، هل تعرفه سيدي الميجور ؟ بين الزملاء ...

قال ذلك و كأنه يلتمس العذر له، كأنه يود أن يظهر مارتللي ليس مسؤولاً عن حمله لهذا اللقب و أن موريتو ليس ذنباً من ذنوبه و هو لهذا السبب لا يستحق العقاب، لكن الميجور لم يكن يفكر أبداً في عقابه، لم يخطر بباله أبداً شيء من هذا القبيل، هتف دون أن يخفي تعاطفاً ما :

ـ آه ... موريتو :

ثبته العريف الأكبر بعينين قاسيتين، ثم أكد :

ـ و لكن نعم، أجل .

فكّر " إنه أحد أمهر الرماة، يا للجيفة، لقد أصابه بشكل جيد مركز عظيم أليس كذلك ؟ مركز عظيم إن هذا مؤكد، و هذا بالضبط ما كان يعنيه الميجور ماتّي (مفكراً إنه عندما أطلق موريتو رصاصته كان ثمة ظلام شديد، رماته كلهم ماهرون) في هذه اللحظة كان ترونك يحقد عليه " أجل، أجل، قل له إنك سعيد بهذا " ثم فكّر " أن يكون لاتزاري قد قُتِلَ فإنه أمر لا يعنيه، بل أَقِمْ للقاتل احتفالاً .

لقد كان هذا حقيقياً، كان الميجور مطمئناً، كرّر بصوتٍ عالٍ و مملوءٍ

بالرضى :

ـ أجل، لا يخطىء أبداً موريتوّ .

هتف و كأنه يريد القول " يا للخبث، لقد اعتقد لاتزاري بأنه من الجائز أن يخطئ موريتو التصويب، لقد حاول إدعاء الشجاعة، ثم آه ... لاتزاري ؟ و هكذا تعلم أي رامٍ عساه يكون موريتوّ، و ترونك ؟ حتى العريف تمنى أن يخطئ موريتو (كأن شيئاً كان سيتم إصلاحه بقضاء بضعة أيام في السجن) .

ـ آه ... أجل . أجل .

كرر الميجور و قد نسي بشكل كامل أنه بإزاء ميت، " لقد كان موريتو رامياً محترفاً " .

أخيراً صمت الميجور، و كان العريف قد أدار رأسه ليرى ما إذا كانوا قد وضعوا الجثة فوق النقالة، كان قد مُدِّدَ فيها بشكل جيد و قد غطوا وجهه ببطانية عسكرية، و لم يكن يظهر منه شيء عارٍ سوى الكفين، كفي فلاح كبيرتين، و قد بدتا كأنما مازالتا تسري فيهما الدماء الحية الحارة .

أومأ ترونك برأسه، فحمل الجنود النقالة، تساءل :

ـ هل يمكن الذهاب يا سيدي الميجور ؟

ـ و ما الذي تريد أن تنتظره ؟

رد ماتّي بنبرةٍ قاسيةٍ، نبرة فيها اضطراب، إنه يشعر الآن بحقد ترونك عليه، وقد أراد أن يرد على ذلك بالتعبير عن احتقاره له، وتعاليه عليه .

ـ تقدموا .

أمر ترونك، كان يجب أن يقول إلى الأمام سرّ، و لكن هذا بدا له نوعاً من الاستهتار، فقط في هذه اللحظة خالَ إنه يرى أسوار الحصن . حارس الشرفة، و قد أضيئت بشكل غامض من انعكاس أضواء القناديل، خلف هذه الأسوار، وفي إحدى الغرف، يقبع سرير لاتزاري، درجه حيث خبأ أشياءه المألوفة والتي حملها

معه من بيته، صورةً مقدسة ولاعة سجائر، مناديل ملونة، أربعة أزرار من الفضة من أجل رداء الحفلات التي كانت بالأصل ملكاً لجده التي لم يكن لوجودها في الحصن أي معنى .

من الجائز أن آثار رأسه مازالت مطبوعة على وسادته، تماماً كما هي منذ يومين عندما استيقظ، من الجائز أن ثمة قارورة مداد ... يضيف ترونك مفكراً في سره، قارورة مداد و قلم، كل ذلك سوف يوضع في طرد و سيرسل إلى بيته مع رسالة من السيد الكولونيل، والأشياء الأخرى، التي كانت الحكومة قد أعطته إياها سوف تحرر إلى جندي آخر بما فيها قميص الخدمة، بزته الجميلة، لا، على العكس و حتى البندقية، البندقية و البزة العسكرية سوف يدفنان معه، إنه تقليد قديم للحصن .

- XIV -

و في المحرس الجديد، عند بزوغ الفجر، و فوق سهل الشمال، شاهدوا بقعةً سوداء، شيئاً ضئيلاً كان يتحرك، و لم يكن من الممكن أن يكون خداعاً بصرياً، ذلك لأنه كان قد شاهدها في البداية الحارس اندرونيكو ثم الحارس بييتري، ثم العريف ساتّا الذي انخرط يضحك، ثم الملازم مادرنا قائد المحرس .

بقعةٌ سوداء كانت تتقدم من الشمال عبر الأرض المتصحرة، و قد بدت وكأنها آيةٌ غير معقولة، ذلك أن هاجساً ما كان يطوف خلال الليل أرجاء الحصن، حوالي السادسة مساءً أرسل الحارس أندرونيكو إشارة الإنذار، ثمة شيء يتقدم مقترباً من الشمال شيء لم يخطر أبداً في بال إنسان، و عندما ازدادت كثافة الضوء، و في العمق الأبيض للصحراء ظهرت واضحة هيئة آدمي يقترب، بعد بضع دقائق، و كما كان يفعل منذ زمن موغل في القدم (يوم كان هذا عبارة عن

أمل صافٍ و نقي، ثم ما لبث أن تحول إلى وسواس عملي، أما الآن فقد تحول إلى مجرد عادة)، يصعد الخياط بروسدوشيمو سطح الحصن ليلقي نظـرة، و كان صعوده تقليداً لذا فإن الحرس يتركونه بفعل ذلك دون أن يعترضوا طريقه، كان يدير وجهه باتجاه دورية الحرس، ثم ما يلبث أن ينخرط في الثرثرة مع عريف الخدمة، ثم ما يلبث أن ينحدر نحو مخبئه تحت الأرض .

و لكن في ذلك الصباح كان يتطلع بأنظاره نحو المثلث المرئي من الصحراء، ثم اعتقد بأنه ميت، لم يفكر أنه من الجائز أن يكون هذا حلماً و لا يترك المجال مفتوحاً أمام الإحساس الغامض بأن كل شيء هو عبارة عن زيف وحسب، و أن لحظة محببة يجب أن تترك ليستيقظ النائم . في الحلم، لا تبدو أبداً الأشياء زائفة و شفافة أو مادية كهذا السهل المنعزل، الذي ينطلق منه متقدمين رجال مجهولون .

لكن الأمر كان جد غريب، إنه يبدو مطابقاً تماماً لبعض هذياناته عندما كان في مقتبل العمر .

ذلك أن بروسدوشيمو لم يكن ليفكر أبداً بأن هذا الشيء حقيقي، و أنه اعتقد بأنه ميت، لقد خطر بباله أنه ميت، و أن الله قد غفر له، خطر بباله أنه موجود في العالم الماورائي، و هو يبدو في الظاهر مشابهاً لعالمنا هذا، الفارق أن الأشياء الجميلة تتحقق وأنه بعد أن تشبع الرغبات الصحيحة، فإن الروح تعيش بسلام، و ليس كما يحدث هنا عادةً إذ يتم تسميم النهارات الجميلة .

بروسدوشيمو الذي اعتقد أنه ميت لم يأتِ بأية حركة، مفترضاً سلفاً بأن عليه أن لا يتحرك، كأي متوفى . لكن شيئاً مبهما بدا أنه أخذ يهزه ... لقد كان هذا هو العريف الذي لمس ذراعه باحترام وهو يقول " أيها الماريشال .. ماذا أصابك ؟ هل أنت متوعك ؟ " .

فقط في هذه اللحظة بدا بروسدوشيمو أنه يفهم .

بعد قليل، و كما يحدث في الأحلام، ينحدر من الشمال أناس غامضون، كان الزمان يمرّ بسرعةٍ كبيرةٍ، حتى الأجفان لم تكن لترف و هي ترقب هذه الصورة غير المألوفة، كانت الشمس مازالت تسطع عند حافة الأفق الحمراء، ورويداً رويداً بدا أن الغرباء قد اقتربوا أكثر، ببطء شديد، أحدهم قال بأنهم راجلون،أو يمتطون جياداً كانوا يقتربون مشكلين صفاً هندياً، و أنه كان ثمة بيرق ، هكذا كان يقول أحدهم، وقد خُيّل للآخرين أنهم يرون هذا، كان قد دخل في نفس الجميع أنهم يرون راجلين وفرساناً و نسيج البيرق و الصف الهندي، لكنهم في الحقيقة كانوا يؤكدون وجود بقعةٍ سوداء صغيرة تقترب ببطءٍ شديد .

- التتار .

تجاسر الحارس أندرونيكو على القول كأنه هزل جريء، و قد بدا وجهه بعد نصف ساعة أبيض كالميت، أمر الملازم ماديرنا بإطلاق طلقة مدفعية في المحرس الجديد كإجراء وقائي، طلقة تحذير، كما جرت العادة عند رؤية غرباء مسلحين و هم يقتربون من المحرس ، منذ سنين عديدة لم يسمع هناك في الأعلى طلقة مدفع، ارتجفت الأسوار ارتجافةً خفيفة، امتد الدوي متسعاً و صوت الإنفجار، مثيراً للغم وانبثت الكآبة بين الصخور .

و كانت عين الملازم ماديرنا تتجه صوب الجزء المرئي من الحصن منتظراً إشارة تدل على أي تنبيه ، لكن المدفعية لم تترك أي جلبةٍ، ذلك أن الغرباء كانوا يتقدمون بدقةٍ باتجاه ذلك الجزء المرئي من الواجهة المركزية للحصن و كان الجميع قد تنبه إلى هذا كله، بما في ذلك من هم في الدهليز الجانبي، حيث المحرس الذي يقع إلى اليسار، و ينتهي عند الصخور .

المسؤول هنا عن حراسة المخزن الأرضي للقناديل و عتاد البناء و لم يكن يرى أي شيء، فهو منغلق على ذاته في المخزن الفاقع اللون، كان النبأ قد وصل

إليه و قد أثاره جريان الزمان بهذه السرعة و أثاره أن تنتهي مأموريته، لذا فقد صعد فوق ممشى الحرس ليلقي نظرة،لكن كل شيء استمر كسابق عهده، الحرس بقوا في أمكنتهم يتمشون في مكانهم المعتاد، الكَتَبَة مازالوا ينسخون التقارير على حين تخشخش أقلامهم وهم يغمسونها في دواية الحبر بالنغم المألوف نفسه، و لكن من الشمال، كان يتقدم رجال غامضون، و قد كان من الطبيعي افتراضهم كأعداء، في الإسطبلات، كان الرجال يمشطون بهائمهم، ومن مدخنة المطابخ كان الدخان يتصاعد خاملاً، كان ثمة ثلاثة جنود يقطعون الساحة الرئيسة، لكن إحساساً بالرهبة و الوجل كان قد دهم الجميع، إنه توقف هائل للأرواح، كما لو أن ثمة شيئاً جسيماً قد بدأت تصل أصداؤوه و لم يعد أحد قادراً على إيقافه .

كان الضباط و الجنود يجترون من أعماق أنفاس الصباح كما لو أنهم راغبون بالشعور بحيوية الحياة، رجال المدفعية أخذوا يجهزون مدافعهم، و هم يتمازحون فيما بينهم و يعملون كبهائم طيّبة و ناعمة، ويحدقون بنظرةٍ ذات مغزى، ربما، بعد مرور وقت طويل، قد يحدث أن لا تطلق هذه المدافع، من الجائز أن أعمال التنظيف التي كانت تجري عليها لم تكن بالمستوى المطلوب، لذا كان من المتوجب عليهم أن يحتاطوا للأمر، ذلك أن كل شيء سيقرر بعد قليل، ذلك أنه لم يحدث أبداً أن خف حاملو الأوامر، إلى أن يصعدوا السلالم بهذه السرعة، ولم يحدث أبداً أن كانت البزات بهذه الأناقة العسكرية، والحراب مضيئة بهذا الشكل، رنين الأبواق عسكرية الطابع و لم يكن الإنتظار عبثياً و بلا معنى، لم تسفك دماء السنين عبثاً، وهاهو ذا الحصن القديم يبدو أخيراً و كأن لوجوده معنى ما .

و هاهم أولاء ينتظرون أن تقرع أبواق خاصة، رنين الإنذار الأكبر، الذي لم ينل الجنود أبداً شرف سماعه، في أثناء التدريبات التي كانت تجري خارج الحصن في الوادي الضيق و الوعر والمنعزل ـ و لكي يتجنبون وصول الرنين

إلى الحصن و حدوث سوء فهم ـ فإن نافخي الأبواق كانوا قد جربوا ـ في أثناء الظهيرات الصيفية الكئيبة ـ الإشارة الشهيرة و ذلك كنوع من الحماس المفرط (لم يخطر ببال أحد أن هذا ذو فائدة ترتجى) الآن إنهم يلومون أنفسهم للتقصير بالدراسة، كانت معزوفةً طويلةً جداً، تناهت إلى البعيد، بعض أصوات النشاز ـ مما لابد منه ـ تناهت إلى الأسماع، فقط قائد الحصن كان له الحق بإعطاء الأمر بإطلاق الإشارة، و كان الجميع يفكر فيه، كان الجنود يقفون بانتظار أن يأتي لتفقد الأسوار من طرف لآخر، و قد رأوه يتقدم تعلو شفتيه ابتسامةٌ فخورةٌ، و هو يرمق الجميع بأنظاره، من المفترض أن يكون هذا يوماً جميلاً بالنسبة له، ألم يقضِ العمر كله في انتظار هذه الفرصة ؟ إلا أن السيد الكولونيل فيلموري كان إلى الآن في مكتبه، يرقب من النافذة، محدقاً نحو الشمال، في ذلك المثلث البادي من السهل، الذي لم تكن لتخفيه الصخور، كان يرى نقطاً سوداء صغيرة تتحرك كأنها تتجه بالضبط صوبه، صوب الحصن، كانوا يبدون بالفعل كأنهم جنود، و بين الفينةِ و الأخرى يدخل عليه ضابط، المقدم نيكولوزي أو كابتن التفقد أو ضباط الخدمة، كانوا يدخلون عليه باقتراحات جمة وهم يكادون يفقدون صبرهم من انتظار أوامره أو يحملون إليه كل جديد حتى و لو كان خالياً من أي معنى كأن يقولوا له إنه قد وصلت من المدينة عربة تموين جديدة أو لقد بدأت أعمال إصلاح الفرن، أو أنه في شرفة الحصن تم تحضير المدفعية و هم آملين أن يستغل السيد الكولونيل تلك الفرصة السانحة .

كانوا ينقلون هذه الأخبار، و هم يحيونه بخبط كعب الحذاء، و لم يكونوا يفهمون لمَ كان الكولونيل ثابتاً في مكانه لا يأتي بأي حركة، و دون أن يصدر أوامره بأن يتأهب الجميع، لم يشدّ من عزيمة الحرس و يبث الحماس في نفوسهم، لم يضاعف من الحرس و من المسؤولين عن الذخيرة، لم يعطِ بعد الأوامر بإطلاق شارة الإنذار الكبير .

تقريباً كان كمن أصيب بوهن سري و غامض، و هو يراقب ببرود قدوم الغرباء لم يكن حزيناً و لا مبتهجاً، و كأن كل شيء لم يكن ليعنيه، كان يوماً رائعاً من أيام تشرين الثاني، الشمس رائعة، و الهواء خفيفاً، إنه الوقت المناسب من أجل خوض غمار المعركة، كانت الريح تعصف بالبيارق المعلقة على سطح الحصن،على حين تشع أرض الباحة الرئيسة الصفراء، و كان الجنود الذين يمرون فيها يتركون ظلالاً نقية، إنه صباح جميل سيدي الكولونيل .

لكن القائد كان قد أفهم الجميع بأنه راغب في البقاء وحيداً، و عندما خلا مكتبه أخذ يغدو و يجيء بين مكتبه و النافــذة، و بين النــافذة ومكتبه، دون أن يكون قادراً على حسم الأمر، يصلح دون أي سبب وجيه شاربيه الرصاصيين، يرسل زفراتٍ طويلة، تماماً كما يفعل العجائز و لكن الآن، لم يعد من الممكن رؤية البقعة السوداء عبر المثلث المرئي من السهل، و هو ما يدل على أنهم اقتربوا أكثر فأكثر من الحدود،بعد ثلاثة أرباع الساعة سوف يصلون إلى أسفل الجبال .

لكن السيد الكولونيل مازال منخرطاً ـ دون سبب واضح ـ في تنظيف عدسات نظارتيه بمنديل، يصفف التقارير المكدسة فوق طاولته، الأوامر اليومية التي تحتاج إلى توقيعه،طلب نقاهة،التقرير اليومي للضابط الطبيب، مهمةٌ جيدة لمحل يبيع عدة الخيل .

ما الذي ينتظره سيدي الكولونيل ؟ لقد صعدت الشمس إلى أعــلى والميجور ماتّي الذي دخل منذ قليل لم يخف امتعاضه من أي شيء، وهو الذي لم يكن يؤمن بشيء ما أبداً، إظّهَرْ على الأقل ليراك الحــرس،.. جولةٍ حول الأسوار، وقد قال الكابتن فورتز الذي ذهب لتفقد المحرس الجديد إنه يمكن الآن تمييز الغرباء فرداً فرداً و قد بدوا مسلحين، إنهم يحملون على أكتافهم البنادق، لا يجب إضاعة الوقت لكن فيلموري كان يفضل التريث، هل هم جنودٌ أولئك الغرباء ؟ إنه لا ينفي ذلك

بالطبع لكن كم عددهم ؟ أحدهم قال مئتان، الآخر قال مئتان وخمسون لكن الجميع أوضح بأنه إذا كانت هذه هي طلائع المقدمة فإنه في المؤخرة سيكونون في أقل تقدير ألفي رجل .

لكن الشيء المهم لم يكن قد شوهد بعد، و من الجائز أنه غير موجود البتة. الجزء الضخم من الجيش لم يشاهده أحد قط، سيدي الكولونيل ؟ وذلك بسبب ضباب الشمال، لقد ازدادت كثافته هذا الصباح، و قد دفعته رياح الشمال باتجاه الأسفل مما جعله يغطي أرجاء السهل كافة، وهؤلاء المئتان لن يكون لوجودهم معنى إذا لم يكن خلفهم قوة مسلحةٌ، و قبل منتصف الظهر سوف يظهر بالتأكيد الآخرون، بل إن أحد الجنود كان قد صرح بأنه شاهد شيئاً ما يتحرك عند حدود الضباب .

لكن القائد كان يذرع الغرفة جيئةً و ذهاباً من النافذة إلى طاولة الكتابة وبالعكس، يتفحص بفتور التقارير، لماذا يجب أن يجتاح الغرباء الحصن ؟ إنه يفكر، من الجائز أنهم مجرد دورية جاءت لتفحص الصعوبات التي تكتنفها الصحراء، لقد انقضى زمن التتار، لم يعد سوى خرافةٍ ميتةٍ، و من عساه يكون الآن مهتماً بتقوية الحدود ؟ ثمة شيء في كل هذا يدفعه إلى عدم التحمس .

إنهم ليسوا التتار، لا، سيدي الكولونيل، لكنهم بالتأكيد جنود، منذ سنين عديدة ثمة حقد شديد من جانب مملكة الشمال، إنه ليس سراً خفياً على أحد، لقد دار الحديث أكثر من مرة عن حرب، إنهم بالتأكيد جنود بعضهم راجل و بعضهم ممتطٍ جياداً، من الجائز أن يقلل أيضاً قوات المدفعية، قبل المساء، و دون مبالغة، لعلهم سوف ينجحون في الهجوم في الوقت المناسب، إن أسوار الحصن قديمة و متداعية، البنادق   قديمة، المدافع قديمة، كل شيء متخلف بشكل مطلق، و فيما يتعلق بقلب الجنود الموجودين في الخارج، أرجو أن لا تثق به كثيراً سيدي

الكولونيل .

المشكلة هي أنه، و في خاتمة حياته، فإن فيلموري قد واتاه الحظ بشكل مفاجئ، درع من الفضة، و سيف مغموس بالدم، إنه (حيث أنه لم يعد يفكر أبداً بهذه الطريقة) يراه الآن قادماً بشكل غريب وعلى سيمائه علامات وجه صديق، على حين فيلموري، و لنقل الحقيقة، لا يتجرأ على الاقتراب منه وهاهو ذا يجيبه بابتسامة، لقد سبق له أن خُدع مرات عديدة، الآن كفى .

الآخرون، ضباط الحصن، كانوا قد انصرفوا يحتفلون، بخلافه فإنهم ممتلؤون ثقة و متحمسون .

هاهم أولئك يجربون هذا الحساس مرةً أخرى، لاذعةً و قوية رائحة المعركة إلا أن الكولونيل كان على العكس منهم ينتظر، و ما دام أنه لم يمس هذا المظهر بيده فإنه لن يأتي بأي حركة، كأنه نوع من الوهم، ومن الجائز أنه يكفي أي شيء،إشارة تحية بسيطة، تقبل رغبة ما، كان أي شيء كفيلاً بأن يجعل الصورة تنحل في العدم .

لذلك فإنه كان يكتفي بانحناء رأسه في إشارة لا، و أن الحظ لن يواتيه، بمزيد من التشكك يحدق فيما حوله، فيما خلفه، حيث كان من المتوقع أن يجد أشخاصاً آخرين، و هو ما يبحث عنه الحظ بشكل حقيقي، على العكس، لم يكن ليظهر أي شخص آخر، لا يمكن أن يكون الأمر مجرد خطأ في تمييز الأشخاص، كان يجب أن يقتنع بأنه قد قدر عليه هو بالذات ظهور مثيراً للحسد .

كانت لحظة ما، عند بزوغ تباشير الفجر، عندما بدأت تظهر له البقعة السوداء فوق الصحراء البيضاء، كانت لحظة ما، عندما تصاعد الفرج من جوف قلبه، ثم ما لبثت أن تحولت صورة درع الفضـــة و السيف الدامي إلى شيء غامض، نعم كانت الصورة تتقدم نحوه لكنها لم تكن لتصل أبداً أو لتضيق المسافة اللانهائية بينه و بينها .

كانت علة ذلك أن فيلموري كان قد انتظر طويلاً، و لمّا بلغ أرذل العمر أخذ يشعر بالتعب من آماله، لم تعد لديه الثقة نفسها التي كان يشعر بها منذ عشرين عاماً، لقد انتظر طويلاً عبثاً لقد قرأت عيناه قرارات يومية كثيرة، و قد رأت عيناه في صباحات كثيرة هذا السهل الملعون و المتصحر أبداً .

الآن و قد ظهر الغرباء، فقد راوده الشعور بأن هذا مجرد خطأ آخر (إلا أنه مفرط في الجمال من ناحية أخرى) يجب أن يكون واقعاً تحت تأثير خطأ جسيم .

في كل الأحوال، فإن الرقاص المركون بجانب طاولة الكتابة يستمر في طحن الحياة،على حين استمرت أنامل الكولونيل النحيلة في الإمساك بالمنديل و هو منهمك في تنظيف النظارة دون أن يكون ثمة داعٍ لذلك .

عقارب الرقاص كانت تقترب من العاشرة و النصف عندما دخل الميجور ماتّي و ذلك ليذكر القائد بأن ثمة تقريراً من الضباط، كان فيلموري قد نسي الأمر تماماً، و قد فوجئ بذلك بشكل مقيت من الجائز أنه كان يتوجب عليه التحدث عن الغرباء الذين ظهروا في السهل، لم يكن بإمكانه تأجيل اتخاذ قرار ما بعد ذلك، كان يجب عليه إما أن يصفهم بشكل رسمي على أنهم أعداء أو يهزأ من كل هذا أو أن يتخذ موقفاً وسطاً بين هذا و ذاك فيأمر باتخاذ إجراءات وقائية ويظل متشككاً في الوقت نفسه، و كما لو أنه لم يكن ثمة داعٍ للشعور بالغطرسة، لكنه في كل الأحوال كان يجب عليه أن يتخذ قراراً، و هذا ما كان يوده ، لقد كان يفضل الاستمرار في الانتظار، وأن يبقى ثابتاً بشكل مطلق تقريباً إنه يثير القدر ليظهر أمامه جلياً واضحاً، قال الميجور ماتّي و هو يرسم ابتساماته الغامضة المعروفة : " لقد شوهد آخرون و هم يقتربون الآن، إنهم ثلاثة صفوف، يمكن رؤيتهم من هنا أيضاً " حدق الكولونيل في عينيه ثم اقترب منه كأنه يود رؤيته بشكل أفضل " هل تقول بأن ثمة آخرين يقتربون ؟ "، " يمكن رؤيتهم من هنا سيدي الكولونيل، إنهم كثر الآن " .

توجها صوب النافذة، و من المثلث المرئي للسهل الشمالي خرجت بقعة سوداء أخرى و هي في حركة دائبة، لم تعد واحدةً كما كانت عند الفجر، ولكنها ثلاثُ بقع متجاورة و لم يكن من الممكن تميز نهاية لها .

الحرب، الحرب، فكّر (الكولونيل) و عبثاً حاول أن يبتعد عن التفكير فيها، و كأنها كانت رغبة محرمة و تحت تأثير كلمات ماتّي استيقظ الأمل من جديد و بدا أنه يملؤه لذة .

الكولونيل و قد ثارت زوبعة في دماغه، وجد نفسه في قاعة الاجتماعات محاطاً بحشد من الضباط المتأهبين (باستثناء أولئك القائمين على الخدمة)، وفوق الزي الأزرق الموحد كانت تلتمع وجوه كامدة، كان الكولونيل يكابد مشقة من أجل التعرف عليهم، شِيِبَةٌ و شبان كانوا يرددون القول نفسه، و قد أضاءت الحمّى عيونهم و هم يلحون في الطلب منه ليعطي إشارة الإنذار بأن العدو قادم، منتظرين بتأهب، يحدق فيه الجميع، يحدوهم الأمل بأن لا يكونوا مخدوعين وفي ذروة الصمت الذي ران على القاعة، لم يكن يسمع سوى الفحيح العميق للضباط، لذا فقد فهم الكولونيل بأن عليه أن يتحدث، كان يشعر في تلك اللحظات بأنه عرضة لغزو مشاعر جديدة و جامحة، و بشكل مدهش، و دون أن تظهر أسباب مقنعة، فإن فيلموري جعل يؤكد بأن الغرباء القادمين هم بالفعل أعداء و قد قاربوا الحدود، لم يكن يفهم أحد كيف حدث ذلك، وهو الذي كان منذ لحظة قد اتنصر على محاولة الاعتقاد بذلك، كان يشعر و كأنه يُجر جراً من قبل الضغط المشترك لهذه الأرواح، لقد أدرك بأنه كان قد تكلم دون تحفظ من الجائز أنه قال " أيها السادة الضباط لقد أزفت اللحظة التي كنا بانتظارها منذ أمدٍ بعيد " ربما كان قد قال هذا، أو لعله شيءٌ من هذا القبيل، وقد استمع الضباط إلى كلماته و هم يقرّون بجميله هذا، أنه وعد فرحٍ طاغٍ .

في هذا الاتجاه كان يتكلم، لكن روحه كان يعتريها التردد، كانت تقاوم صوتاً

مختلفاً " هذا مستحيل أيها الكولونيل " هكذا كان الصوت يقول " انتبه حتى تتأكد، ربما كان ثمة خطأ ما (بالمقابل كان مثل هذا الخطأ مفرطاً في حلاوته) انتبه، فثمة خطأ جسيم " .

في غمرة الانفعال الذي كان يغزوه، كان يتناهى إليه هذا الصوت المعادي، لكن الأوان كان قد فات،إن التسويف سيغدو مثيراً للحيرة و الارتباك .

تقدم الكولونيل خطوة إلى الأمام، رفع رأسه كما اعتاد أن يفعل كلما همّ بالحديث، و قد لاحظ الضباط أن حمرةً ما قد غطت وجهه، أجل، كان وجه السيد الكولونيل يندى خجلاً مثل طفل، و قد تأهبت شفتاه للنطق بالنبره الأولى عندما دهمه الصوت المعادي متصاعداً من أعمق أعماق روحه، و كأن فيلموري يختلج من فكرة التأجيل تلك، خُيّلَ إليه أنه يكاد يسمع وقع خطوات مدركة تصعد السلالم، و كأنها تقترب من الصالة التي كان قد أنعقد اجتماع فيها، خطوات لم يكن لينتبه إليها أي من الضباط و هم مشدودون إلى قائدهم، لكن أذني فيلموري كانتا قد تدربتا على تمييز أخفض الأصوات في الحصن، تقترب الخطوات، ليس ثمة أدنى شك في ذلك، إنه يدركها بشكل غير مألوف كانت تصدر نفحة غريبة و كئيبة، إنها نغمة تفتيش إداري، كانت تتناهى بشكل مباشر، أجل يمكن القول إن مصدرها كان عالم السهل، و هاهي ذي الضجة تترى حتى غدت مسموعة حتى من قبل الضباط، فتجرح بشكل متوحش روحهم، دون أن يتمكن أحدٌ من تحديد سبب ذلك، أخيراً يُفْتح الباب، يبرز ضابط مجهول من سلاح الفرسان، كان قد نال منه التعب، و عفرّه الغبار قال وهو يدفع نفسه نحو المنتظرين :

ـ أنا الملازم فرناندز، من سلاح الفرسان السابع أحمل هذه الرسالة من المدينة، و هي موجهة من قبل صاحب السعادة، زعيم الدولة الأكبر، أمسك بأناقة بساعده الأيسر قبعته الطويلة و قد انثنت مثل قوس، ثم اقترب من الكولونيل، و سلّمه ظرفاً مختوماً .

ضغط فيلموري على يده قائلاً :

ـ شكراً أيها الملازم .

ثم أضاف :

ـ لقد قمتَ باجتياز طريق طويل هذا ما يبدو لي ، سوف يصحبك زميلك سانتي الآن لكي ترتاح من وعثاء السفر .

و دون أن يقدر على مداراة ملامح الاضطراب التي اعترته، أشار بيده إلى الملازم سانتي، و كان هذا الأخير هو أول من وقعة عليه عيناه، و قد أشار إليه لكي يقوم بمهمة الاستضافة المنزلية، خرج الضابطان، ثم أغلقا الباب، هل يسمعوني ؟ تساءل فيلموري وهو يرسم ابتسامة رقيقة مشيراً إلى الظرف، موحياً بأنه يفضل الإسراع في قراءته في الحال، فضت كفاه الختم بشكل مرهف، مزقتا أطراف المظروف ثم تناول ورقتين مملوءتين بالكتابة .

كان الضباط يرمقونه بأنظارهم بينما انخرط هو في القراءة، و هم يبحثون عن تأويلٍ، عن مغزىً لتعبير وجهه، و لكن لا شيء، لقد بدأ كمن تناول جريدة بعد مأدبة عشاء، ثم ثوى بجانب الموقد، في ليلة شتائيةٍ، لكن الاحمرار كان قد زال عن وجه القائد الذي بدا أكثر جفافاً، و ما إن انتهى من القراءة حتى طوى الكولونيل الورقتين ثم دسهما من جديد في المظروف ثم وضعه في جيبه، و رفع رأسه مشيراً بذلك إلى أنه يهم بالكلام . كان ثمة شعوراً سائداً بأن شيئاً ما قد حدث، و أن الجاذبية و السحر اللذين كانا يخيمان منذ هنيهة قد تمزقا .

" أيها السادة الضباط " قال، و كانت نبرة صوته مرهقة جداً، ثم أردف "إن لم أكن مخطئاً، كان ثمة هَرَجٌ بين الجنود هذا الصباح ثم بيننا نحن أيضاً وإن لم أكن مخطئاً إن مَدْعاة ذلك هو السرية المرابطة فيما يسمى بسهل التتار".

كانت كلماته تبدو مجهدة و هي تجد طريقها في عمق الصمت المخيم، كان ثمة ذبابة تحوّم في الصالة هنا و هناك .

تابع الكولونيل :

ـ إن الأمر يتعلق بفصيلة من الفصائل الشمالية للدولة و قد أُسْندت إليها مهمة تجديد خط الحدود، كما كنا نفعل ذلك نحن منذ سنوات عدة، ربما كانوا موزعين في مجموعات هابطين من جهة الجبال، و هم لهذا لم يأتوا من جهة الحصن، هذا ما يعلمني به في هذه الرسالة الزعيم الأكبر للدولة .

كان فيلموري يتكلم وهو يزفر زفرات طويلة، و لم يكن مدعاة ذلك فقدان الصبر أو الألم و إنما كان تنفساً جسماني الطابع بشكل قاطع، تماماً كما يفعل العجائز، و لما كانت تشبه أنفاس العجائز فإن صوته بدا مفاجئاً لدناً أجشاً، كذلك نظراته كانت غدت بالمثل صفراء و كثيفة .

لو أنهم علموا ذلك منذ البداية لكان الكولونيل فيلموري يعلم جيداً أنهم لا يمكن أن يكون هؤلاء هم الأعداء، إنه لم يولد أبداً من أجل البهجة لقد خُدِعَ مرات عديدة كغبي، لماذا ؟ ـ يسأل نفسه غاضباً ـ ؟ لماذا ترك نفسه تُخْدع! فقط لو كان يعلم منذ البداية أن الأمر سوف ينتهي بهذه الصورة .

تابع بنبرة مفرطة في الفتور مجاهداً أن لا تظهر مرارتها :

ـ كما يعلمون هم، لقد قمنا نحن منذ أمد طويل بتجديد العلائم التي تفصل بين الحدود، و إشارات التحديد، و لكن كما يعلمني صاحب السعادة فقد بقي قسم منها لم يحدد بعد، لذا يتوجب عليَّ إرسال بعض الرجال يقودهم كابتن و ملازم أول، بغية إتمام هذا العمل، إنها منطقة جبلية، ثمة سلسلتان أو ثلاث سلاسل من الجبال، و من غير الضروري أن نضيف بأنه من المستحسن التقدم نحو الأمام قدر المستطاع و ذلك لكي نطمئن على الحافة الشمالية، و هذا لا يعني أن الأمر جوهري من الناحية الاستراتيجية، لو أنهم يفهمونني جيداً، في الأعلى لا يمكن أن يوفر المكان إمكانية لمناورة .

قطع حديثه هنيهة و قد تاهت أفكاره ثم أردف :

ـ إمكانية المناورة، حسناً ما الذي كنت أنوي أن أقوله ؟ .

رد الميجور ماتّي بتشكك نادم :

ـ كنت تقول إنه من الضروري التقدم إلى الأمام ما أمكن .

ـ آه، هذا حق، كنت أقول إنه من الضروري التقدم إلى الأمام ما أمكننا بكل أسف، الأمر ليس سهلاً، ذلك أننا نجد أنفسنا الآن متأخرين جداً بالنسبة إلى الأوائل الموجودين شمالاً، على كل حال، هِمْ، يمكننا التحدث عن هذا لاحقاً.

اختتم حديثه و هو يصوّب نظراته إلى المقدم .

صمت و قد بدا مجهداً لقد لاحظ أنه بينما كان يتحدث أن حجاباً من خيبة كان قد غطى وجوه الضباط، لقد رآهم، كأنهم محاربون سئموا من الكفاح، لقد تحولوا إلى ضباط حامية لا لون لهم لكنهم كانوا شباباً، جعل يفكر أن لديهم وقتاً كافياً لبلوغ غاياتهم .

ـ حسناً يتوجب علي القيام الآن بتسجيل ملاحظة تتعلق بالكثير منهم لقد لاحظت أكثر من مرة أنّ بعض السرايا، في أثناء نوبات الحرس، تقف في الساحة دون أن يرافقها ضباط فمن الواضح أن هؤلاء الضباط يعتقدون بأن لديهم الحق في أن يلحقوا بهم فيما بعد .

الذبابة تحوم هنا و هناك في أرجاء الصالة، السارية التي كانت فوق سطح الحصن أخذت بالترهل، على حين كان الكولونيل يتحدث عن مبادئ و نظم وفي سهل الشمال كانت تتقدم فرقة عسكرية مسلحة، إنهم ليسوا أعداء شرهون إلى المعركة، و إنما جنود غير مؤذين، هكذا كما إنهم لا يحملون معهم الدمار ولكنها مجرد عملية مسح عقاري، كانت بنادقهم خاوية، خناجرهم دون خيوط هناك في أسفل سهل الشمال،انتشر خبر المسلحين المسالمين، على حين هنا في الحصن يعود كل شيء إلى سابق عهده، الإيقاع المعتاد للأيام نفسها .

- XV -

البعثة التـي أُرْسِلَتْ من أجل ترسيم الحدود في الجزء الذي بقي منها دون تحديد، غادرت في اليوم التالي عند الشفق، كان يقودها الكابتن الضخم مونتي يرافقه الملازم أنغوستينا كما يصحبها عريف، و قد اطلّعَ كلٌّ من الثلاثة على كلمة السر في ذلك اليوم و للأيام الأربعة القادمة، كان من غير المحتمل أن يهلك الثلاثة دفعة واحدة، على كلِّ حالٍ، كانت قد أُسْنِدتْ إلى الجندي العجوز مهمة فتح ثياب القادة الثلاث الذين من الممكن أن يموتوا أو يطرأ عليهم طارئ و أن يبحث في الجيوب الداخلية كلها، ليُخْرِجَ المظروف المختوم الذي يحتوي على كلمة السر و هكذا يستطيع الجنود في حالة حدوث أزمات من هذا النوع العودة إلى الحصن، خرج أربعون من الرجال المسلحين من بوابة الحصن، متجهين نحو الشمال، بينما كانت الشمس تولد للتو كان الكابتن مونتي ينتعل حذاءً ثقيلاً ذا مسامير شبيهة بما ينتعله الجنود، لكن الملازم أنغوستينا كان ينتعل حذاء فرسان، و قد لاحظ الكابتن ذلك و هو ينظر إليه بفضول مفرط،لقد حدث ذلك قبل أن ينطلقوا لكن لم ينبس ببنت شفة، انحدروا مائة متر و هم يسيرون على الحصباء، ثم انعطفوا ناحية اليمين، متجهين صوب الأفق و هم يلجون مدخل وادٍ مملوء بالحجارة، و يكاد يغوص في قلب الجبال .

بعد أن ساروا نصف ساعة قال الكابتن مشيراً بحديثه إلى حذاء أنغوستينا:

ـ سوف يتعبك جداً هذا الحذاء .

لم يجب أنغوستينا، فكرر الكابتن حديثه بعد هنيهة :

ـ لا أرغب في أن تضطر للتوقف، سوف تؤلمك جداً، أنظر .

رد أنغوستينا :

ـ الآن لقد قُضي الأمر إن كان الأمر كما تقول كان بإمكانك أن تقول لي ذلك قبلاً يا سيدي الكابتن .

رد مونتي :

ـ في كل الأحوال كنت ستفعل ما يحلو لك أنغوستينا، إني أعرفك جيداً كنت ستنتعلها حتى وإن قلت لك ذلك .

لم يكن مونتي قادراً على تحمل المعاناة من جرّاء ذلك، لذا فقد فكر " كل هذا الصلف الذي تحمله، سوف أريك بعد قليل " ثم دفع المسيرة بقوة، مجتازاً الانحناءات الأكثر وعورة، و هو على علم بأن أنغوستينا لم يكن صلباً لدرجة كافية، كانوا قد دنوا من قاعدة السفوح حيث غدت الحصى أكثر دقة و صغراً، و قد جعلت الأقدام تغوص فيها بصعوبة .

قال الكابتن :

ـ في العادة تنطلق في هذه الأنحاء ريح صَرْصَرٌ، قادمة من هذه الجهة، لكن الجو هادئ اليوم، ظل الملازم أنغوستينا صامتاً، فتابع مونتي حديثه :

ـ ثم إنه من حسن حظنا أنه ليست ثمة شمس قوية، إن الجو بالفعل جميل .

تساءل أنغوستينا :

ـ و لكن هل سبق لك أن مررت من هنا ؟

رد مونتي :

ـ مرة واحدة فقط كان يجب فيها أن نبحث عن جندي هنا ..

قطع حديثه فجأة، ذلك أنه تناهى إلى سمعه صوت تساقط جلاميد صخرية من أعلى القمة الرصاصية للسفح الذي يظهر فوقهم تماماً، كان يمكن سماع دويّ الجلاميد الصخرية التي كانت تنفجر و هي تصطدم بالصخور، مما دفع بالجميع

إلى الوثوب خلفاً باندفاع فوضوي نحو الهاوية و قد تصاعد الغبار من كل الأنحاء

.

كان الدويُّ يثير صداه من سفحٍ إلى آخر، و في قلب المنحدر كان الدويُّ السريُّ للجلاميد الصخرية قد استمر لدقائق ثم ما لبث أنِ انطفأ في قلب الأقنية قبل أن يصل إلى الأسفل، و على الحصى حيث كان الجنود قد صعدوا هناك لم تصل سوى بضع حُصيّاتٍ .

كان الجميع صامتين، و كانوا يحسون إحساساً عدائياً تجاه هذا الهدير الذي نجم عن تساقط الصخور، حدّق مونتي في وجه أنغوستينا بنظرة غامضة ومملوءة بالتحدي، كان يأمل في أن يجده خائفاً و لكن لاشيء، كان يبدو أن الملازم قد غدا أكثر سخونة بسبب هذا المسير، على حين بدت بزته الأنيقة كأنها محللة .

فكر مونتي" كل هذا الصلف الذي تبديه، أرغب برؤية حالك بعد قليل" ثم تابعوا المسير، وقد جعل الكابتن يحثهم أكثر و أكثر، و هو يلقي بين الفينة والأخرى نظرةً نحو الخلف متفحصاً أنغوستينا .

أجل، كما كان يأمل و يتوقع، كان يمكن ملاحظة أن حذاء الفرسان الذي ينتعله أنغوستينا قد بدأ يؤثر على قدميه، ذلك أن أنغوستينا كان يُبَطِءُ من سيره، ثم يستدير خلفه ليخفي مشاعر الألم التي كان يحسها، كان يمكن لمونتي ملاحظة ذلك من خلال إيقاع سيره ، و من خلال التعبير الصارم الذي ارتسم على جبهته .

قال الكابتن :

ـ أحس اليوم بأني قادرٌ على السير لست ساعات متواصلة لولا وجود الجنود، إن الطقس جميل جداً اليوم (ثم ملمّحاً بخبث ساذَجٍ) كيف تسير الأمور معك أيها الملازم ؟

رد أنغوستينا :

ـ عفواً سيدي الكابتن ماذا قلت ؟

ابتسم بخبث قائلاً :

ـ لا شيء البتة كنت أسأل كيف تسير الأمور معك ؟

رد أنغوستينا و هو يكاد يتهرب من الحديث :

ـ آه، أجل، شكراً .

ثم تابع بعد برهة و هو يحاول إخفاء اللهاث الذي سببه الصعود :

ـ من المؤسف أن .

تساءل مونتي و هو يأمل أن يعترف الآخر و هو منهك :

ـ من المؤسف ماذا ؟

رد و هو يبتسم ابتسامة ذات نغم متقطع :

ـ من المؤسف أنه لا يمكننا التردد على مكان جميل كهذا في مناسبات عديدة .

دفع مونتي المسير قدماً حاثاً الجميع على زيادة مسيرهم، كان يخلف أنغوستينا وراءه الآن غدا وجهه شاحباً بسبب الجهد الذي يكابده، كان العرق يسيل من أطراف القبعة، حتى نسيج سترته التي يضعها فوق ظهره غدا قذراً، لكن لم ينبس ببنت شفة و لم يخفف أبداً من سيره، الآن، لقد توغلوا بين الصخور، و قد جعلت تنهض حولهم سفوح مهولة رمادية اللون، مدببة الحواف، على حين بدا الوادي على ارتفاع كبير لدرجة أنه يتوجب الصعود عالياً جداً، لقد توقفت مظاهر الحياة المألوفة مفسحةً المجال أمام الجبال الثابتة و المقفرة .

كان أنغوستينا قد أخذه المشهد، لذا فقد أخذ يرفع عينيه نحو الذرى المعلقة فوقهم محدقاً فيها .

قال مونتي الذي يرقبه بطرف عينه :

ـ سوف نتوقف للاستراحة بعد هنيهة، مازال المكان بعيداً، و لكن قل لي بصراحة هل أنت متعب ؟ في بعض الأحيان نمر بظروف صعبة، من الأفضل

التصريح بذلك حتى لو أدى الأمر إلى تأخرنا بعض الوقت .

ـ لنذهب ... لنذهب .

كان هذا جواب أنغوستينا ، و قد بدا أنه هو القائد .

ـ هل تعلم ؟ أني أقول هذا الآن لأن كل منا معرضٌ لموقفٍ صعبٍ كهذا، فقط لهذا السبب أقول هذا .

كان أنغوستينا شاحب الوجه، و كان العرق يسيل من أطراف قبعته، وسترته غدت مبللة بشكل كامل، لكنه كان يكزُّ على أسنانه، و لن يستسلم وإن أدى ذلك إلى موته، وهو يجاهد كي لا يراه الكابتن بهذه الصورة، كان يرسل النظرات نحو نهاية الوادي، باحثاً عن نهاية لما يكابده من عناء المسير .

على كلٍّ، كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، مضيئةً القمم الأكثر عُلوّاً، و لكن السطوع المنعش لهذا الصباح الخريفي الجميل كان قد اختفى تماماً، خِمارٌ من الضباب الكثيف كان يمتد ببطءٍ في السماء، مخادعاً و منسجماً .

الآن بدأت أحذية الفرسان تسبب له ألم الجحيم بأسره، كان الجلد ينهش عنق القدمين، و بدا أن الجلد قد تآكل تماماً إذا ما أردنا أن نقيّم المعاناة التي يحس بها أنغوستينا .

وعند نقطة معينة بدا أن الصخور قد انقطع سيلها، و أنَّ الوادي قد انقطع مفضياً إلى سهلٍ صغير مملوء بالأعشاب القصيرة عند أعتاب السفوح، و من قسم إلى آخر كانت ترتفع بعض الأســوار المهشمة والمملوءة بالأبراج و كان يصعب تحديد مدى ارتفاعها، و على مضضٍ أعطى الكابتن مونتي أمراً بالتوقف و ذلك كي يتمكن الجنود من إزدراد بعض الطعام، جلس أنغوستينا بوقار على إحدى الأحجار، على حين كانت الريح ترتجف مجففةً عرقه، تقاسم و الكابتن القليل من الخبز، قطعةً من اللحم، جبناً ثم زجاجة نبيذ .

كان أنغوستينا يشعر بالبرد، حدق في الكابتن و في الجنود علّهُ يجد أحداً و

قد خلع رداءه و ذلك كي يتمكن من فعل الشيء نفسه، لكن كان يبدو أن الجنود لا يكابدون عناء المسير لذا فقد انخرطوا يتمازحون فيما بينهم، كان الكابتن يأكل بشراهة و هو يلقي بين اللقمة و الأخرى نظرةً على الجبال التي نهضت فوقهم .

قال الكابتن و هو يشير إلى السفوح الضاغطة و التي تنتهي في أعلى القمة:

ـ الآن، الآن، أفهم إلى أين يجب أن نصعد، يجب أن نذهب بشكل مستقيم من هنا، لمسافة طويلة سيراً على الأقدام أليس كذلك ؟ ما هو رأيك أيها الملازم ؟

حدّق أنغوستينا في السفح، و لكي يصلوا إلى أعلى القمة كان يتوجب عليهم الصعود من هناك، هذا إذا لم يكن من الممكن الدوران حولها عابرين أحد الممرات، و لكن في هذه الحالة فإن الأمر سيتطلب الكثير من الوقت، لذا فيجب عليهم الإسراع، أما أولئك الذين قدموا من الشمال فقد كانوا محظوظين أكثر من ذلك لأنهم جاؤوا قبلاً و كان الطريق من طرفهم أقل و عورة و أيسر، يجب مواجهة السفح من جبهته .

ـ إلى الأعلى من هنا ؟

تساءل أنغوستينا و هو يلاحظ الصخور الممتشقة، و من ثم لاحظ أنه يتوجب قطع حوالي المائة المتر من الطرف الأيسر عندئذ قد تغدو الطريق أكثر سهولة و يسراً .

ردد الكابتن :

ـ بالضبط، بشكل مستقيم، إلى الأعلى من هنا، هذا مؤكد، ما الذي تعتقده ؟

قال أنغوستينا :

ـ الكل يجاهد للوصول قبلاً .

حدّق الكابتن بنظرة مملوءة بالسخط و هو يقول :

ـ حسناً، الآن لنلهو قليلاً .

ثم أخرج من جيبه حزمة من ورق اللعب، ثم فردها فوق إحدى الأحجار وقد

غطاها برداءه و هو يدعو أنغوستينا إلى اللعب قائلاً :

ـ هذه الغيوم، إنك تنظر إليها بطريقة معينة، و لكن لا تخش شيئاً أبداً، إنها لا تشير إلى طقس رديء .

ثم ضحك،لا يدري لماذا، ربما اعتقد بأنه قد أتى بمزاح خفيف الظل،ثم انخرطا باللعب، كان أنغوستينا يحس بأنه يكاد يتجمد من البرد، بينما ثوى الكابتن بين صخرتين شكلتا حاجزاً واقياً له، كان الهواء يندس إليه من جهة ظهره . فكر قليلاً " هذه المرة سيعتريني المرض " هتف، بل بالأحرى صرخ الكابتن مونتي دون إنذار :

ـ ها، هذا كثير بالنسبة لك، بحق الله، أتركْ لي " آساً " واحداً . أنت لطيف أيها الملازم، و لكن إلى أين يتجه بصرك، فها أنت ذا تستمر في التحديق نحو الأعلى دون أن تهتم بالورق أبداً .

رد أنغوستنا :

ـ لا، لا، لعلّي أخطأت !

ثم حاول أن يضحك فلم يفلح، على حين قال مونتي و هو يشعر برضا المنتصر :

ـ قل لي الحقيقة، قل الحقيقة، هنا تشعر بالألم، لقد أقسمت بذلك منذ أن بدأنا المسير .

ـ أين ؟

ـ حذاؤوك الفرساني الجميل، إنه ليس مؤهلاً من أجل رحلة كهذه، عزيزي الملازم، قل الحقيقة هل تشعر بألمٍ ما ؟

ـ إنها تثير سَأمي .

أقرّ أنغوستينا ، بنبرة مملوءة بالاحتقار و كأنه يكاد يقول إنه غير راغب في الحديث عن ذلك، ثم أضاف :

ـ بالفعل، إنها تثير سَأَمي .

ضحك الكابتن فرحاً و هو يقول :

ـ آه، آه، كنت أعلم بذلك، إن ارتداء أحذية الفرسان و السير بها فوق الحصن هو بحق مصيبة كبرى .

أشار أنغوستينا و هو يكاد يتجمد من البرد :

ـ أنظر، لقد وضعت هنا ملكاً بسيف، هل لديك ما تجيبني به ؟

رد الكابتن، و هو يشعر بالغِبطة :

ـ أجل، أجل، كنت مخطئاً، آه، أحذية الفرسان ! .

في الحقيقة لم يكن حذاء أنغوستينا قادراً على مقاومة صخور السفح و هو غير مزود بمسامير، و قد كاد الحذاء يزحلقه، بينما كان حذاء الكابتن و أحذية الجنود تجعلهم قادرين على التشبث بالنتوءات الصخرية، و ليس هذا هو السبب الذي جعل أنغوستينا في المؤخرة، ذلك أنه كان يشعر بالتزام متزايد، لكنه كان متعباً جداً على حين يثير فيه ألماً مضنياً ذلك العرق المتجمد، لكنه تمكن من اللحاق بالكابتن صاعداً السور المتصدع .

كان يبدو أن الجبل أقل وعورةً وأكثر مما كان يوحي به منظوراً إليه من الأسفل، كان محدداً بأنفاق، كسور، أطراف حجرية، و كانت الصخور الجبلية ذات نتوءات لا حصر لها، لذ غدا الاتكاء عليها أيسر، الكابتن الذي لم يكن بطبعه رشيقاً كان يتسلق بصعوبة، و بقفزات متلاحقة، و هو ما ينفك ينظر نحو الأسفل آملاً أن يكون أنغوستينا قد تحطم، لكن أنغوستينا على العكس كان يجاهد بعناد و صلابة، و هو يحاول باذلاً أقصى جهد ممكن لكي يتشبث و يستند إلى الصخور بشكل واثق، و كان يدهشه أنه بينما هو قادر على النهوض بهذا الشكل فأنه في الوقت نفسه يكابد الشعور بأنه قد فَنِيَ تماماً و رويداً رويداً بدا أن الوهدة قد أخذت بالإتساع من تحتهم، لكن القمة النهائية كانت تبدو متنائية أكثر فأكثر، و قد

صُفحت بسور من الرصاص أصفر اللون بينما كان المساء يقترب مسرعاً، و لما كانت السماء قد تغطت بغيوم فضية فقد كان من الصعب التكهن بمدى ارتفاعها، ثم ما لبث أن دهم البرد القارس، والريح الصّرْصَرُ تصّاعد من أسفل الوادي، على حين تزداد كثافة اللهاث المنبعث من قمة الجبل.

ـ سيدي الكابتن .

عند لحظةٍ ما تناهى إلى سمعهم صوت العريف الذي يقود المسير وهو يصعد من الأسفل، توقف مونتي، و توقف أنغوستينا ، ثم توقف سائر الجنود حتى آخرهم، يسأل الكابتن ؟ و كأنه يكابد الشعور بالقلق من جرّاء أسباب أخرى مختلفة :

ـ ماذا هناك ؟

صرخ العريف :

ـ إنهم هنا . فوق القمة، أولئك القادمون من الشمال .

رد مونتي معترضاً :

ـ هل جُنِنْتَ ؟ أين هم ؟ كيف أمكنك رؤيتهم ؟

ـ هناك إلى اليسار، في الأعلى، بالضبط إلى يسار ذلك الشيء الشبيه بالأنف .

و بالفعل فقد كانوا هناك، ثلاثة أشكال ضئيلة سوداء بارزة تحت السماء الفضية، و كانوا يتحركون بشكل مرئي، كان من الواضح أنهم سبق لهم أن احتلوا ذلك القسم السفلي من القمة، و تحت أي احتمال فقد بدا أنهم قد وصلوا قبلاً إلى هناك .

ـ يا الله .

صرخ الكابتن و هو يصوب بنظرة ساخطة نحو الأسفل، و كأن الجنود وأنغوستينا هم المسؤولون عن التأخير، ثم أردف .

ـ كان يتوجب علينا احتلال القمة قبلهم، ستثار حكايات إذا لم نُرْضِ الكولونيل .

قال أنغوستينا :

ـ يجب عليهم أن يتوقفوا قليلاً، ذلك أنهم من مكانهم هذا و حتى أعلى القمة يحتاج الأمر إلى أكثر من ساعة تقريباً، و إذا لم يتوقفوا، فسنصل بعدهم بالتأكيد .

إذاً فقد قرر الكابتن قائلاً :

ـ يجب عليّ أن أسرع بصحبة أربعة من الجنود، ذلك أننا إذا كنا قليلين سنصل بسرعة، اتبعنا أنت بهدوء، أو انتظر هنا إن كنت تشعر بالتعب .

فكّر أنغوستينا " هذا هو بالضبط ما يبتغي الوصول إليه هذه الجيفة " .

كان يرغب بتركه خلفه، و ذلك ليترك انطباعاً حسناً عن نفسه لدى القيادة .

رد أنغوستينا :

ـ كما تأمر سيدي، لكني أفضل أن أصعد أنا أيضاً نحو الأعلى، لو بقيت هنا سوف أتجمد .

تابع الكابتن السير مصطحباً معه أربعة من الجنود الأشداء كفصيل متقدم، على حين تولى أنغوستينا قيادة الباقي، عبثاً كان يأمل باللحاق بهم، سيبقى في الخلف بشكل مؤكد ذلك أن جنوده كانوا أكثر، صف طويل، و من أجل حثهم على المسير، سوف يبتعد بشكل قياسي، على كلٍ كان من الصعب رؤية كل الجنود .

و هكذا شاهد أنغوستينا فصيلة الكابتن الصغيرة و هي تبتعد نحو الأعلى، مخلفة وراءها رفاً من الصخور الرمادية التي جعلت تتهاوى، و للوهلة الأولى كان يمكن سماع دويّ الصخور و هي تتساقط في القناة، ثم بعد ذلك اختفت الأصوات و من ثم تلاشت بعيداً .

السماء عبوسة، الصخور مُنْبَثَّةٌ في كل جانب، السفوح الشاحبة من كل جانب، من الطرف الآخر للوادي، عمق الهاوية، كل شيء كان مصبوغاً بصباغ

الكآبة، غربان صغيرة كانت تتقافز على طول الحواف و هي تصّر صريراً حاداً، و قد بدوا و كأنهم ينادون على بعضهم بعضاً محذرين من خطرٍ داهم .

قال الجندي الذي يسير خلف أنغوستينا مخاطباً هذا الأخير :

ـ سيدي الملازم، سيهطل المطر بعد قليل .

توقف أنغوستينا قليلاً و هو يحملق حوله، لكنه لم ينبس ببنت شفة، لم يعد الحذاء يسبب له ذلك الاضطراب الشديد، و لكن تعباً عميقاً أخذ يدب في حناياه، كان كل متر يصعده يكلفه جهداً بالغاً، و لحسن الحظ كانت الصخور في تلك المنطقة أقل وعورة، و أكثر تهشماً من تلك التي سبق أن مروا بها، فكّر أنغوستينا ، من يدري إلى أين وصل الكابتن الآن ؟ من الجائز أنه وصل إلى القمة، ربما كان قد غرس العَلَمَ راسماً بذلك الحدود، بل و ربما كان في طريق العودة الآن .

حدّق في الأعالي، و من ثم تنبه إلى أن ذروة الجبل لم تعد بعيدة عنه، ولكنه لم يدرك تماماً أيُّ الطرق يجب عليه أن يسلكها، كان الموقع المحيط به جدٌّ وعر و أملس .

أخيراً، ظهر فجأة في الأعلى من الخلف، كتلة من الصخور والحصى، وجد أنغوستينا نفسه على بعد أمتار من الكابتن مونتي، الذي كان صاعداً على كتفي أحد الجنود، كان الضابط يحاول أن يتشبث بحافة صخرية ومدببة، لم تكن أعلى من بضعة أمتار لكنها بدت في الظاهر عسيرة المنال، كان واضحاً أن مونتي كان يجاهد منذ بضع دقائق و لكن دون أن يفلح في تحقيق مراده .

تحسس بيده أربعة مرات محاولاً أن يجد نتوءاً صخرياً، ثم بدا أنه يكاد يحصل عليه، كان يمكن سماعه و هو يسب و يلعن، ثم ما لبث أن ترجل عن كتف الجندي، و بقفزة واحدة كان فوق كتلة الصخور .

كان مونتي يلهث بسبب التعب، محدقاً بشكل عدائي في وجه أنغوستينا ثم قال :

ـ كان يمكنك الانتظار في الأسفل أيها الملازم، من هنا، بالتأكيد لا يمكن أن يعبر الجميع، كان كافياً أن أذهب أنا إلى الأعلى مصطحباً زوجاً من الجنود، كان من الأفضل أن تنتظر في الأسفل، الآن سيهبط الظلام، و سيغدو طريق العودة شيئاً صعباً .

رد أنغوستينا دون أدنى اهتمام :

ـ لقد سبق أن قلته لي سيدي الكابتن، لقد قلت لي إنه بإمكاني أن أفعل ما أرغب به، أن أنتظر، أو ألحق بكم نحو الأعلى .

رد الكابتن :

ـ حسناً، الآن يجب علينا أن نجد الطريق، لم يبقَ سوى بضعة أمتار للوصول إلى القمة .

تساءل الملازم بنبرةٍ مملوءةٍ بالتهكم، نبرةٍ لم يكن ليتوقعها مونتي نفسه.

ـ كيف ؟ هل وصلتَ إلى القمة ؟ .

رد الكابتن لاعناً :

ـ لقد تبقى حوالي اثني عشر متراً، بحق الله، أريد أن أرى هل سأتمكن من المرور حتى لو كلفني ذلك ...

قطع حديثه صراخٌ مليءٌ بالعجرفة تناهى إلى مسامعهم من الأعلى، ثم ما لبث أن ظهر وجه رجلين باسمين من الحافة العليا، صرخ أحدهم ربما كان ضابطاً .

ـ مساء الخير أيها السادة، لاحظوا أنكم لا يمكن أن تمروا أبداً من هنا، يجب عليكم المجيء من القمة .

ثم ما لبث الرجلان أن انسحبا، وكان يمكن سماع مجرد أصوات رجال مختلفة و هم يتحدثون، كان مونتي ممتقع الوجه من الغضب، لم يعد من الممكن فعل أي شيء، لقد احتل أولئك القادمون من الشمال القمة، تهالك الكابتن فوق

جلمود صخري، دون أن يلاحظ جنوده الذين ينحدرون إلى الأسفل .

بالضبط، و في هذه اللحظة، بدأ الثلج يدِفُّ، ثلج غزير و ثقيل، تماماً كما يحدث في الشتاء، و بعد بضع لحظات، غدت حجارة الكتلة الصخرية بيضاء اللون، و من ثم أخذت الألوان بالتضاؤل، كان الليل رصاصياً، و فيما يتعلق بهذا لم يفكر أحد بما قد يحدث، حلّ الجنود قبعات أرديتهم و غطوا أنفسهم بها دون أن يتلقوا أمراً بفعل ذلك .

صرخ الكابتن :

ـ ما الذي تفعلونه بحق الله، ارفعوا قبعاتكم على الفور، لا يمكن أن يخطر على بالكم أننا سنقضي الليلة هنا ؟ يجب أن ننزل نحو الأسفل .

قال أنغوستينا :

ـ إذا سمح لي سيدي الكابتن، مادام قد بقيَ أولئك في القمة ..

تساءل الكابتن ساخطاً :

ـ ما الذي تريد قوله ؟ ماذا تعني ؟

ـ إنه لا يمكننا العودة من حيث أتينا، كما يبدو لي، مادام أولئك قد بقوا في القمة، لقد وصلوا قبلنا،و لم يعد لدينا ما نفعله، لكننا بإمكاننا إن بقينا هنا أن نعطي انطباعاً حسناً عنا .

لم يجب الكابتن، بل بدأ يتمشى هنا و هناك حول الكتلة الصخرية الضخمة ثم قال :

ـ و لكن حتى هم سوف ينصرفون، ذلك أن الوضع هناك في القمة أسوأ بكثير من هنا .

ـ أجل يا سيدي .

نادى صوت من الأعلى، بينما برزت أربعة أو خمسة رؤوس من خلف حافة السفح، ثم أضاف :

ـ دون أية مجاملة، اتبعوا هذا الذيل، ثم تعالوا هنا في الأعلى، ذلك أنكم لن تقدروا على نزول سفح الجبل وسط هذا الدجى .

ثم ألقوا بحبلين غليظين من الأعلى، و ذلك لكي يتمكن أولئك القادمون من الحصن من صعود المرتفع الصغير .

رد الكابتن بلهجةٍ متهكمة :

ـ شكراً، شكراً، من أجل هذه الفكرة، و لكن نحن من سيعتني بأمورنا الخاصة .

هتفوا مرةً أخرى من القمة :

ـ ما الذي تعتقدونه ! على كل حال، سوف نترككم هنا إنْ كان هذا يريحكم .

ثم انداح صمت طويل، لم يكن يسمع خلاله سوى حفيف الثلج المندوف، سعل بعض الجنود، لم يعد ـ تقريباً ـ من الممكن رؤية أي شيء، وبالكاد يمكن تمييز حافة السفح حيث انبعث من هناك شعاع ضوء أحمر.

حتى العديد من جنود الحصن، الذين تلفحوا بأرديتهم الواقية، أشعلوا بعض الأنوار، ثم حمل أحد هذه الأنوار إلى الكابتن، عله ينفعه .

قال أنغوستينا بصوت متعب :

ـ سيدي الكابتن .

ـ ماذا هنالك الآن ؟

ـ سيدي الكابتن، ما رأيك بأن نباشر اللعب الآن .

رد الكابتن الذي كان قد أدرك تماماً أنه بسبب الظلمة لم يعد من الممكن النزول إلى الأسفل :

ـ ليذهب اللعب إلى الجحيم .

و دون أن يقول شيئاً ساخراً، سحب أنغوستينا من جعبة الكابتن التي كان يحملها أحد الجنود حزمة الورق، أفرد على إحدى الحجار رداءه ثم ثوى بجانب

المشكاة وانخرط يخلط الورق، ثم كررّ :

ـ سيدي الكابتن، استمع إليّ، حتى لو لم تكن لديك الرغبة .

أدرك الكابتن ما الذي يرمي إليه الملازم بحديثه هذا أمام أولئك القادمين من الشمال، أولئك الذي انخرطوا ـ ربما ـ في السخرية منهم، و لكن لم يعد من الممكن فعل أي شيء، و بينما كان الجنود يحتجبون أسفل السفح، مستفيدين من أي مكان واقٍ، أو انخرطوا يلتهمون طعامهم بين مزاح و ضحك، و تحت الثلج، بدأ الضابطان بلعب الورق، على حين كانت فوقهم الصخور المدببة وتحتهم الهاوية السوداء، ثم ما لبث أن تناهى إليهم صوت من الأعلى، صوت مملوء بالسخرية و التهكم صائحاً :

ـ كابوتوّ، كابوتوّ .

لم يرفع مونتي أو أنغوستينا رأسيهما، بل تابعا اللعب، لكن الكابتن كان يلعب دون حماس و هو يلقي الورق على الرداء غاضباً، و عبثاً حاول أنغوستينا المزاح ـ عظيم .. آسان في صف واحد ـ، و لكني أنا من سيربح ذلك ... قل الحق .. لقد نسيت ذلك الباستون ... ثم أنخرط يضحك بين لحظةٍ و أخرى ضحكة مملوءة بالصدق والود، و من الأعلى كان يمكن سماع أصوات مختلفة، ثم تساقط بعض الحصى، من الجائز أنهم في سبيلهم إلى الرحيل، ثم تناهى إليهم صارخاً الصوت الذي سبق لهم أن سمعوه :

ـ حظاً سعيداً، لعباً موفقاً، لا تنسوا الحبلين .

لم يجب الكابتن و لا أنغوستينا ، بل استمرا في اللعب دون أيِّ إيماءة أو إشارة مظهريْن تفاخراً و تركيزاً عميقيْن .

نأى انعكاس الضوء عن القمة، فربما كان أولئك القادمون من الشمال في سبيلهم إلى الرحيل، أما ورق اللعب فقد غدا تحت الثلج المندوف متسخاً و لم يعد من الممكن خلطه بسهولة .

قال الكابتن و هو يلقي فوق الرداء أوراقه :

ـ يكفي الآن، يكفي من هذه المهزلة .

ثم دفن بنفسه بين الصخور، لف نفسه بعناية في الرداء ثم نادى :

ـ طوني، إحملْ إليّ الحقيبة، و جُدْ لي بقليلٍ من ماء الشرب .

قال أنغوستينا :

ـ مازالوا يروننا، مازالوا يروننا من الذروة .

لكنه لمّا أدرك أن مونتي لم يكن قادراً على احتمال المزيد، فإنه تابع اللعب وحيداً، مفترضاً أن اللعبة ما زالت مستمرة و بين الصخب المتعلق باللعب، وبينما كان الملازم يمسك بيسراه أوراق اللعب على حين يسند عينيه إلى ذيل الرداء متصنعاً أنه يلم بقايا الورق، و تحت الثلج الكثيف، فإنه لم يكن بوسع الغرباء ـ بالتأكيد ـ من أعلى القمة التمييز بأنه كان يلعب وحيداً .

لكن إحساساً رهيباً بالتجمد كان قد تسلل إلى أعماقه، و قد بدا أنه يشعر بعدم القدرة على التحرك أو الاضطجاع، إنه لم يذكر أبداً أنه شعر بألم من هذا النوع، و فوق القمة كان يمكن رؤية ضوء المشكاة التي بدأت تبتعد، مازال بإمكانهم رؤية (عبر نافذة القصر السري و الغامض) تلك الصورة الهزيلة والواهنة، إنه هو أنغوستينا الطفل، امتقاع مؤثر، مرتدياً ثوباً أنيقاً من المخمل، ذا ياقةٍ بيضاء مدببة، يفتح النافذة بحركة متعبة، منحنياً لرؤية الأرواح المتماوجة التي تجمعت أمامه، و كأنه منسيٌّ معهم و يريد أن يقول شيئاً ما) .

ـ كابوتوّ، كابوتوّ

حاول أن يصرخ لكي يسمع الغرباء سخريته منهم، لكن الصوت كان يخرج من فيه متهالكاً .

ـ بحق الله، إنها المرة الثانية سيدي الكابتن .

و بينما كان مونتي يحشو نفسه داخل معطفه الثقيل طلباً للدفء، و هو يمضغ

في فمه شيئاً ما، بدا أنه يلاحظ أنغوستينا جيداً، لكن غضبه كان قد خف .

ـ يكفي، تعال هنا، أيها الملازم، الآن لقد مضى أولئك القادمون من الشمال، و لكن أنغوستينا كان يلح لإنهاء اللعبة، و قد بدأ صوته يخْفِتُ رويداً رويداً ...

ـ أنت أكثر مهارة مني سيدي الكابتن .

ـ يبدو لي أنك لست على ما يرام هذا المساء، لماذا تستمر بالتحديق نحو القمة ؟ ربما كنت عصبياً بعض الشيء ؟

عندئذ، و تحت النديف المستمر للثلج، الذي كان يشبه دبيب النمل، بدأت تهرب من بين يدي الملازم أنغوستينا آخر الأوراق المتعفنة بل أن يده نفسها تهالكت خاليةً من أي حياة، و بدا أنه قد فقد أي نشاط له و هو ملقى على الرداء، و تحت ضوء المشكاة المرتعش .

و الظهْرُ مستندُ إلى صخرة، بدا كأن الملازم قد نأى كثيراً مبتعداً إلى الخلف، و كأن نعاساً غريباً قد غزاه (و باتجاه القصر الراقد تحت ليلٍ مملوءٍ بقمرٍ، تقدم عبر الهواء موكب صغير لأرواح أخرى كانت تجر وراءها محفة) .

ـ أيها الملازم، تعال إلى هنا لتصيب شيئاً من الطعام، ذلك أن الطعام نافع جداً في ليلة قارسة كهذه، وإنْ لم تكن لديك الرغبة في ذلك .

هكذا كان يصرخ الكابتن، و قد خيّمت ظلال من الجزع "متأرجحة " على نبرته .

ـ تعال إلى الأسفل، إن الثلج في سبيله إلى التوقف .

و بالفعل كان الأمر كذلك، فعلى حين غرة، غدت ندف الثلج اقل كثافةً و ثقلاً، غدا الطقس نقياً أكثر، و غدا من الممكن رؤية بعض الصخور الممتدة على بضعة أمتار و قد انعكس ضوء المشكاة عليها .

ثم، وبغتةً عبر مزق العاصفة التي هبت، و عن بعد لا يمكن تحديده، لمعت أضواء الحصن وبدت كأنها أضواء لا نهائية، كأنها أضواء قصر مسحور،

منغمس في مهرجانات قديمة جذلة، لقد رآها أنغوستينا ، و قد ارتسمت على شفتيه اللتين كدرهما الجليد ابتسامة رقيقة عاد الكابتن ينادي و قد فهم ما حدث :

ـ أيها الملازم، أيها الملازم، إلقِ بهذه الأوراق و انزل نحو الأسفل لتقي نفسك من الريح .

لكن أنغوستينا كان يحدق في الأنوار، و في الحقيقة لم يكن يعرف ما هي، أهي أنوار الحصن أم أنوار المدينة البعيدة ؟ أم هي أنوار قصره حيث لا ينتظر أحد رجوعه إليه ، من الجائز أنه في هذه اللحظة و من أحد جدران الحصن، استدار أحد الحراس مجيلاً الطرف بشكل عفوي نحو الجبال و قد تعرّف على الأنوار التي كانت تشع من أعلى القمة، وعن ذلك البعد بدت الجدران الخبيثة أقل من لا شيء، و من الجائز أن من يقود خدمة الحراسة في هذه اللحظة هو دروغو نفسه، و قد كان من المحتمل، لو أنه رغب بذلك، أنه يصاحب كلاً من الكابتن مونتي وأنغوستينا ، و لكن كان قد خطرت ببال دروغو فكرة حمقاء، الآن و قد تلاشى خطر التتار، ومن ثم بدا له أن خدمة الحراسة هذه هي شيء مثير للضجر، إذ لم يعد ثمة أي أمل يذكر، لكن دروغو يرى الآن اهتزاز أنوار المشكاة فوق القمة، و من ثم انخرط في البكاء لأنه لم يرافقهم، إذ ليست الحرب وحدها هي من تهب المنح و الفرص، و ربما رغب الآن في أن يكون هو في الأعلى، و في قلب الظلام و في سُرَّةِ العاصفة، لكن الوقت متأخر جداً، لقد مرت الفرصة من أمامه ثم تركها تملص من بين يديه .

ربما كان دروغو يحدق الآن بحسد نحو الأنوار البعيدة و هو ملتف بردائه الثقيل و الدافئ بينما أنغوستينا و قد غطتة قشره من الثلج يجاهد في صقل شاربيه المبللين، محاولاً أن يتدثر بشكل مفرط بردائه، و هو لا يفعل ذلك لأنه يرغب في نيل قسط من الدفء، وبينما كان الكابتن مونتي يحدق فيه وهو مندهش و متسائل ما عسى أنغوستينا يفعل الآن ؟ ومن ثم يتساءل عساه يرى وجهاً شبيهاً بوجهه، و

لكن عبثاً يحاول التذكر فلا يفلح .

في إحدى صالات الحصن، كان ثمة لوحة تمثل نهاية الأمير سيباستيانو وقد أصيب بجرح قاتل، كان الأمير سيباستيانو جاثماً في قلب الغابة، مسنداً ظهره إلى جذع شجرة، و قد أطرق رأسه قليلاً، وقد سقط عنه رداؤه ذو الطيات المتجانسة، لم يكن يبدو في الصورة ما يشير إلى أنه ميت جسمياً، و إذا ما نظر المرء إليه فإنه سرعان ما سيكتشف أن الفنان حاول أن يحافظ على مظهره الأنيق و النبيل، الآن أنغوستينا ، آه إنه لا يفكر حتى بهذا، لكنه يكاد يشبه الأمير سيباستينو الجريح في قلب الغابة، لم يكن أنغوستينا يرتدي مثله درعه الوضاء، و لم يكن لديه خوذة مضرجة بالدم و قد هوت عند قدميه، و لا السيف المثلم، لم يكن يسند ظهره إلى جذع شجرة و إنما إلى صخرة صماء صلدة، لم يكن يضيء جبهته آخر شعاع من إشعاعات الشمس بل مشكاة باهتة، و مع ذلك فإنه كان يشبهه تماماً، وضعية أوصاله نفسها، كان بالضبط مثله ملتفاً ُبردائه، التعبير نفسه عن التعب المتهالك .

الآن، و مقارناً مع أنغوستينا ، كان الكابتن، العريف، والجنود الأشداء كلهم والجسورين قد بدوا الآن و كأنهم حراثون و فضيون، و في أعمق أعماق روح مونتي بدأت تولد دهشة مملوءة بالحسد .

توقف الثلج، والريح ترسل شكواها عبر الصخور، و تطاير غبار مثلج، ومن ثم تتراقص أضواء من خلف زجاج المشكاة، كان يبدو أن أنغوستينا لم يكن يحس بذلك، كان ثابتاً لا يريم، مستنداً إلى صخرة، وعيناه مثبتتان على أنوار الحصن البعيدة .

حاول الكابتن مونتي مرة أخرى مناداته :

ـ أيها الملازم، أيها الملازم، هلاّ قررت النزول إلى هنا في الأسفل،لن تقدر على المقاومة هناك، سوف تتجمد، تعال إلى هنا في الأسفل و انظر لقد صنع طوني ما يشبه السور .

ـ شكراً أيها الكابتن .

قال أنغوستينا و هو متهالك من التعب، مجاهداً بصعوبة لكي يتمكن من الكلام، ببطءٍ رفع يده، ثم رسم إشارة ما و كأنه يريد أن يقول إنه لا يهتم و إنّ هذا كله كان عبارة عن ترّهات ليس لها أيُّ وزنٍ (في النهاية، أتى زعيم الأرواح بحركة متغطرسة، على حين كان أنغوستينا و هو ممتلئ بالسأم يتخطى النافذة، و يجلس ـ مملوءاً بالغفران ـ على المحفة، العربة السحرية تتحرك برفق مستعدة للرحيل) لبضع دقائق لم يكن يسمع سوى صراخ الريح المبحوح، والجنود كانوا قد تكوموا حول الصخور بغية الحصول على شيء من الدفء .

كانوا قد فقدوا الرغبة في المزاح وهم يجاهدون البرد بصمت .

ولما خَفَّ طغيان الريح لبرهة، رفع أنغوستينا رأسه بضع سنتمترات حرك فمه محاولاً الكلام فلم تخرج منه سوى هاتين الكلمتين (غداً قد يتوجب..) ثم لا شيء بعد ذلك، كلمتان واهنتان لدرجة أن الكابتن نفسه لم يشعر بأنه يتكلم .

كلمتان ومن ثم انثنى رأس أنغوستينا نحو الأمام وهو ينأى عن نفسه كانت إحدى يداه مندسة بين طِيّات الرداء، كانت رقيقة بيضاء ومتصلبة، ومن ثم تمكن من إغلاق فمه، ومن جديد عادت ترتسم ابتسامة على شفتيه،(انطلقت العربة، رفع عينيه ولم يعد ينظر نحو الصديق، متجهاً برأسه نحو الأمام باتجاه المحفة، وقد اعتراه ما يشبه الفضول المفرح والصادق، وهكذا ابتعد في الظلام، بنبل غير إنساني تقريباً، المحفة السحرية زحفت ببطء نحو السماء، دائماً نحو الأعلى تحولت إلى شاه مضطرب، ثم حزمة ضئيلة من الضباب، ثم لا شيء) .

ـ ما الذي كنت تريد قوله يا أنغوستينا ؟ ماذا غداً ؟

أخيراً نهض الكابتن مونتي، خرج من مكمنه حرّك بقوة كتفي الملازم كي يبث الحياة فيه، لكنه لم يفلح في حل الطِيّات النبيلة للكفن العسكري، وللأسف لم يكن أيٌّ من الجنود قد تنبه إلى ما حدث .

أخذ مونتي يلعن ويسب، فلم يجبه من داخل الهاوية السوداء سوى فحيح الريح، " ما الذي كنت تريد قوله يا أنغوستينا ؟ لقد غادرْتَ قبل أن تكمل جملتك، ربما كانت حماقة، أو أي شيء آخر، ربما كانت أملاً غير معقول، وربما كانت لاشيء " .

وُوريَ جثمان الملازم أنغوستينا الثرى، واستمر الزمان يمر في الحصن تماماً كما كان في السابق .

سأل الميجور أورتيز دروغو :

ـ كم مضى من الوقت على وجودك هنا ؟

رد دروغو :

ـ إني هنا منذ أربع سنين .

كان الشتاء قد هجم بشكل مفاجئ، فصل طويل وربما نَثَّ الثلج، في البداية بضع سنتمترات، ثم بعد فترة فاصلة، وصل إلى مستوى عالٍ جداً ثم بعد ذلك أصبح من المستحيل معرفة كم بلغت سماكته، كان ثمة وقت طويل (ومع ذلك ففي يوم أقرب كثيراً مما هو متوقع، أقرب بكثير كان يمكن أن يحس المرء بسيلان الماء من على أطراف الشرفات، كان الشتاء قد انقضى) .

كان تابوت الملازم أنغوستينا، و قد عُلِّقَ عليه عَلَمٌ، يثوي تحت التراب مسيجاً بسياج صغير وفي أحد أطراف الحصن، كان ثمة صليب فوقه، صليب منحوت من حجارة بيضاء نقش اسمه عليها، أما من أجل الجندي لاتزاري، بعيداً، فكان ثمة صليب خشبي صغير .

قال أورتيز :

ـ أحياناً أفكّر، نحن نرغب في خوض غِمار الحرب، ننتظر الفرصة السانحة، لكننا نفقدها بسبب سوء الطالع، لماذا لا يحدث أبداً أي شيء و مع ذلك هل رأيت ؟ أنغوستينا ...

رد جوفاني دروغو :

ـ هل تعني، هل تعني أن أنغوستينا لم يكن في حاجة إلى الحظ، وأنه كان سيظل طيباً في كل الأحوال ؟

قال الميجور أورتيز :

ـ لقد كان ضعيفاً، و أعتقد أنه قد يكون مريضاً، في واقع الأمر، كان أسوأ حالاً منا جميعاً، إنه مثلنا لم يقابل العدو، لم تكن الحرب قد قامت في أيامه أبداً، و مع ذلك فقد مات كما لو أنه كان يخوِّض غِمار معركةٍ، هل تعرف أيها الملازم كيف مات ؟

قال دروغو :

ـ أجل، لقد كنت حاضراً عندما كان يروي الكابتن مونتي الحادثة لنا .

كان قد حَلَّ الشتاء، و غادرتِ الغربان المكان، بيارق الأمل الجميلة كانت قد نُكِّسَتْ ببطءٍ، و غدتِ الروح مطمئنة مجدداً، لكن السماء كانت خاوية، عبثاً تحاول العين البحث عن شيء ما في أقصى أقاصي الأفق .

قال الميجور أورتيز :

ـ لقد عرف فعلياً كيف يموت في الوقت المناسب، كأنه تلقى قذيفة، بطل، هناك القليل مما يمكن قوله، و مع ذلك لا أحد يعرف، بالنسبة للآخرين، أولئك الذين كانوا بصحبته في ذلك اليوم، الاحتمالات كلها كانت متشابهة،أمّاهو فلم يكن لديه ما يميزه عنهم إلاّ أنه و ببساطة كان يمكنه أن يموت، و لكن في الحقيقة ماذا فعل الآخرون؟ بالنسبة إليهم كان يوماً مثل سائر الأيام .

قال دروغو :

ـ أجل، فقط كان أكثر برودة من المعتاد .

رد أورتيز :

ـ أجل، أكثر برودة من المعتاد، حتى أنت أيها الملازم كان بإمكانك مرافقتهم لو أنك طلبت ذلك .

كانا يجلسان على أريكة من الخشب، في أقصى شرفة المحرس الرابع، كان أورتيز قد ذهب إلى رؤية الملازم دروغو الذي كان يؤدي الخدمة، وقد تشكلت صداقة وطيدة بين الاثنين .

كانا يجلسان على أريكة، مرتديين معطفيهما، نظرتهما كانت زائفة، باتجاه الشمال نحو نفسيهما إذ كانت تتكوم غيوم كثيرة مملوءة بالثلج، و بين الفينة و الأخرى تزأر ريح الشمال مجمدةً الثياب فوق الأجسام، كانت الذرى العالية إلى يمين الوادي و يساره قد غدت سوداء اللون .

قال دروغو :

ـ أعتقد أن الثلج سَيَدِفُّ غداً هنا في الحصن أيضاً .

ـ هذا جائز .

رد الميجور دون أيِّ اهتمامٍ ثم صمتَ .

كرّر دروغو القول :

ـ سوف يَدِفُّ الثلج، و ما تنفك الغربان تمر .

قال أورتيز و هو يلاحق تفكيراً عنيداً :

ـ و نحن يقع على عاتقنا جزء من الذنب، بعد كل شيء سيصيبنا ما نستحقه، أنغوستينا مثلاً، كان مهيئاً لكي يدفع الثمن غالياً، نحن على العكس لا، ربما تكمن القضية كلها هنا، ربما كنا مفرطين في آمالنا، بالفعل يصيب المرء كل ما يستحقه .

تساءل دروغو :

ـ إذاً ؟ إذاً ماذا يتوجب علينا فعله ؟

قال أورتيز مبتسماً :

ـ آه، أنا لا شيء، لقد انتظرتُ طويلاً، أما أنت ...

ـ أنا ماذا ؟

ـ سيكون لديك المتسع من الوقت لمغادرة هذا المكان، تؤوب إلى المدينة، ثم ما تلبث أن تتأقلم مع الحامية، ثم فوق هذا كله لا أعتقد أنك ذلك النموذج الذي يزدري ملذات الحياة سيكون مكانك مناسباً أكثر من هنا، هذا مؤكد ! ثم إننا لم نولد لنكون أبطالاً .

" صمت دروغو على حين تابع أورتيز " .

ـ لقد أمضيتُ أربع سنين و قد حصلتُ على مكاسب تتعلق بقلق المهنة، لنفترض أن هذا قد حصل، و لكن انظر كم سيكون مفيداً لك المكوث في المدينة، لقد بقيت منقطعاً عن العالم، لم يعد يذكرك أحد أبداً حاولْ أن ترجع في الوقت المناسب .

ثم تابع الميجور :

ـ لقد رأيت الكثيرين، رويداً رويداً تملكتهم عادات الحصن، لقد ظلوا سجناء هنا في الداخل لم يكونوا أبداً قادرين على الحراك، يبلغون سن العجز فعلياً في ثلاثين سنة .

قال دروغو :

ـ أني أعتقد ذلك سيدي الميجور، و لكن في مثل سني ...

رد أورتيز :

ـ أنت مازلت شاباً، و ستكون كذلك لفترة ما قادمة، هذا حقيقي . ولكني لست واثقاً من ذلك، فقط عندما تمر سنتان أخريان، أجل يكفي أن تبقى هنا مدة سنتين أخريين حتى تجد أن طريق الإياب سيكلفك المزيد من الجهد و المشقة .

قال دروغو دون أن تبدو عليه أمارات التأثر :

ـ أشكرك، ولكن في الحقيقة هنا في الحصن يمكن للمرء أن يأمل بشيء أفضل، قد يكون لا معقولاً، و مع ذلك حتى أنت أيضاً إذا كنت صادقاً يجب أن تعترف .

قال الميجور :

ـ ربما نعم بكل أسف ـ كلنا نصر على الأمل، البعض يأمل قليلاً، البعض الآخر أكثر، لكنه غير معقول أن نفكر في الأمر قليلاً (ثم أشار بيده نحو الشمال) من هذه الأنحاء لن تأتي الحرب أبداً، الآن و بعد هذا كله، و بعد التجربة الأخيرة، من تعتقد أنه مازال يؤمن بذلك بجدية ؟ ، قال هذا ثم نهض واقفاً وهو ما يزال مُسَمِّراً نظراته نحو الشمال، هكذا تماماً كما حدث في ذلك الصباح البعيد، و عند حافة السهل كان دروغو قد رآه و هو يثبت أنظاره مسلوب اللب إلى الأسوار الغامضة للحصن، لقد مرت على ذلك سنون أربع، جزء مهم من الحياة ثم لا شيء، إطلاقاً لم يحدث أي شيء يمكن أن يبرر بروز مثل هذه الآمال، كانت الأيام تنداح هكذا الواحد تلو الآخر، لقد ظهر بعض الجنود الغرباء الذين كان من الممكن أن يكونوا أعداء عند أطراف السهل الأجنبي، ثم انسحبوا بعد أن نفذوا مهمة ترسيم حدود غامضة، ثم عاد السلام يخيّم على العالم، لم يعد الجنود يقرعون جرس الإنذار، لم يعد ثمة ما يدعو للتفكير بأن الوجود في سبيله إلى التغيير، كما في السنين الماضية، وبالأشكال نفسها، الآن يكاد أن ينصرم الشتاء و ما زالت أنفاس الرياح الشمالية ترسل إلى الحراب صفيراً واهناً، ثم هاهو ذاك هناك الميجور أورتيز، واقفٌ على قدميه في شرفة المحرس الرابع متشكك بكلماته الحكيمة، محدقٌ مرةً أخرى في الشمال، كما لو أن النظر إليه من حقه وحده وحسب، من حقه وحده البقاء هنا، دون أن يكون للهدف من وراء ذلك أهمية خاصة، وخلاف ذلك فقد بدا دروغو، و كأنه شاب مهذب جاء في غير مكانه المناسب فقد أخطأ الحسابات ومن الأفضل له أن يقفل عائداً إلى المدينة .

- XVII -

عندما غدا الثلج فوق شرفات الحصن هشاً، و قد أخذت الأقدام تنغمس فيه كأنه طين، بدأ يتناهى إلى الأسماع بشكل مفاجئ، الموسيقى الحلوة لخرير الماء وهو ينسكب من الجبال الشاهقة القريبة، ثم بدأت تظهر هنا وهناك وعبر كل الأرجاء بقع بيضاء عمودية كانت تهتز تحت الشمس، وأخذ الجنود يترنمون بالألحان وهم مأخوذون بهذا المنظر وكما لم يفعلوا منذ شهور خلت .

لم تعد الشمس تركض كما كانت سابقاً، إنها الآن تسأم الغروب، وقد بدا كأنها توقفت متوسطة كبد السماء، وهي تفترس الثلج المكدس، وكان من العبث أن تتساقط الغيوم من ثلج الشمال ذلك أنها لم تعد قادرة على تشكيل الثلج، فقط المطر، ولم يفعل المطر أكثر من إذابة تلك البقية المتبقية من الثلج، فقد حَلَّ آب الفصل الجميل .

وهاهم الآن يستمعون إلى زقزقة الطيور التي اعتقد الجميع أنهم قد نسوها، بالمقابل لم تعد تتكوم الغربان حول سهل الحصن و هي تنتظر جمع الفتات، و إنما كتعويض لذلك تاهت في الوديان باحثةً عن طعام طازج .

و في أثناء الليل و في الحجرات، كانت ألواح الخشب التي تسند الخروج*، مناشر البنادق، الأبواب نفسها، حتى جوز الهند اللذيذ المكدس في غرفة السيد الكولونيل، أخشاب الحصن كلها، حتى تلك التي التفت دروغو نحوها فألفى أنَّ ثمة

*الخروج : جمع خُرْجٍ .

ساحة متصحرة بشكل مُطلق، كانت تمتد أمام الأشياء، فوق تلك الساحة، و على ارتفاع عشرة أمتار عن الأرض، كان يتقدم في الهواء موكب مؤلف من عددٍ من تلك الأرواح التي كانت تجر مِحَفَّةً .

بشكل ظاهري نسبةً إلى أقصى وجود لهم، فإنَّ المحفة كانت تفيض بالخِماراتِ التي تغطي شعر النساء، و بالريش الذي يُزين شعورهن تقادمت، كانت ترسل صريراً في غيهب الدجى، و أحياناً كانت تصدر ضربات جافة كأنها طلقات مسدس كأن شيئاً قد تحطم إلى نُثَارٍ، أحدهم يستيقظ، ثم يتوجه إلى الشرفة و هو يصيخ السمع، لكنه لا يفلح في سماع أيِّ شيءٍ، اللهم إلا مزيداً من الصرير الذي يهمهم في الظلام .

هاهو ذا، تأوه الحياة العنيدة بدأ يتصاعد من الألواح الخشبية التي تقادم الزمان عليها، منذ أمد طويل، و في أيام المسرات، كان ثمة شاب يقطر حرارةً وقوة، من أغصان الشجر كانت تنتأ حزم من البراعم،ثم هاهي النبتة تنهار كلياً، و الآن حيث الربيع، إنها أقل بشكل لا نهائي نبْضُ الحياة، يوماً ما كانت أوراقاً و زهوراً، الآن تحولت إلى مجرد ذكرى غامضة، أنها لحظة يصدر عنها مجرد (تِرْكْ) ثم تلغى حتى السنة المقبلة .

هاهو ذا الوقت الذي ظهر فيه رجال الحصن و قد دهمتهم أفكار فضولية بأنهم لم يعودوا يملكون أي شيء مما يمكن اعتباره عسكرياً .

لم تعد تظهر الأسوار بمظهر نظيف و محببٍ و إنما بدأت تعطي انطباعَ أنها أسوار سجن، مظهرها العاري، الخطوط السوداء للنَزِّ البطيء و المتواصل، الحوافُّ المتمزقة للتحصينات، لونها الضارب إلى الصفرة،هذا كله لم يعد يستجب و لا بأيِّ شكلٍ كان للأوضاع الروحية الجديدة .

أحد الضباط ـ لم يكن من الممكن التعرف عليه من الخلْفِ، ربما كان جوفاني دروغو نفسه ـ كان يتمشى بسَأمٍ، في هذا الصباح الربيعي في الأماكن الواسعة و

المخصصة للغسيل التابعة للفوج، التي غدت في هذه اللحظة متصحرة، لم يكن يقوم بجولة مراقبة أو تفتيش، إنه يدور هكذا، فقط لمجرد التحرك، على كلٍّ و في المحصلة النهائية كان هذا لا يعارض النظام، الأحواض النظيفة الأرضية المكنسة، و ذلك الصنبور الذي يسرّب الماء، على كلٍ لم تكن هذه غلطة الجنود .

يتوقف الضابط، ثم يحدق عالياً، صوب إحدى النوافذ العالية، كان الزجاج مغلقاً، و من الجائز أنه منذ سنين عديدة لم يتم تنظيفه، فقد بنى العنكبوت أعشاشه و قد تدلت من الزوايا، ليس ثمة أي شيء قادر بطريقة أو بأخرى على تعزية الروح الإنسانية و خلف الزجاج يمكن رؤية شيء ما يبرز وهو يكاد يشابه السماء، هذه السماء نفسها ـ ربما فكر الضابط بهذا الشكل ـ الشمس نفسها مازالت تضيء المغاسل الشاحبة و بعض المروج البعيدة .

كانت المروج خضراء، لقد ولدت للتو بعض الزهور التي اكتست باللون الأبيض، حتى الأعشاب، وهذا حقيقي، فقد ولدت فيها وريقات جديدة، كم هو جميل القيام برحلة على ظهر جواد، ينطلق نحو الجبال، و إذا ما صدف وظهرت في الطرق و في وسط السياج فتاة جميلة، وعندما يمر المرء بجانبها يحييها بابتسامة و لكن ويا للسخرية، ليس مسموحاً على الإطلاق أن يفكر ضابط من ضباط حصن باستياني بأفكار من هذا القبيل .

وعبر نافذة المغاسل المغبرة، و كم يبدو هذا غريباً، كان يمكن رؤية غيمه بيضاء بهية الطلعة، في هذه اللحظة بالذات تبحر في سماء المدينة البعيدة غيوم من هذا النوع، و أناس يمرون، و بين الفينةِ و الأخرى يحدقون فيها بوداعة وأنس، و هم يشعرون بالغِبطة لأن الشتاء انصرم، كلهم تقريباً يرتدون ألبسة جديدة و مهندمة، النساء اليافعات يزين شعورهن بزهور و يرتدين ألبسة ملونة، كلهم يشعرون بالبهجة والحبور، و كأنهم ينتظرون من وقت لآخر أشياء جميلة،

على الأقل في يوم كانت هذه هي حال الأشياء، من يدري ما إذا كان قد طرأ تغيير جديد الآن ؟ و إذا ما صدف ووقفت أمام أحد الشبابيك فتاة جميلة فمر شاب وحياها دون أي سبب خاص يذكر، فهل سترد هي التحية بابتسامة؟ هذه الأشياء كلها، في العمق، مثيرة للسخرية، إنها ترّهات ساكني الكليات العسكرية، و عبر الزجاج القذر يمكن رؤية طرف من السور بشكل موارب، حتى هذا كان عارياً تحت الشمس ولم يكن يثير أية بهجة، إنها جدران ثكنة وبالنسبة للسور تبرز الشمس أو يطلع القمر فالأمر سِيّان، يكفي أن لا تولد عقبات بوجه مسيرة الخدمة، إنه سور ثكنة و لا شيء أخر، و مع ذلك، ففي يوم من أيام أيلول البعيد، وقف الضابط يحدق في السور و هو مشدوهٌ تماماً، إذاً هذه الأسوار كانت تحرس قدره الجدي و المثير للحسد، و إذا ما صدف ووجدها كريهة المنظر فأنه يقف إزاءها كأنه يقف أمام آية .

يتجول الضابط في أرجاء المغاسل المتصحرة، الآخرون يقضون فترة خدمتهم في مختلف المحارس و الآخرون يمتطون صهوات جيادهم و يسرحون في السهل وآخرون ثاوون في مكاتبهم، و لكن لا أحد منهم قادر على فهم ما حدث، لكن وجوه الآخرين تثير حفيظته، إنها دائماً الوجوه نفسها، غريزياً، دائماً الأحاديث نفسها، الخدمة نفسها، الوثائق نفسها وعلى أيّةِ حالٍ فإن هذا كله يثير رغبات رقيقة، ثم إنه ليس من الممكن بالدقة تحديد الهدف من كل هذا، بالتأكيد ليس الهدف هو هذه الأسوار، أو هؤلاء الجنود، أو الأبواق .

فَلتَخُبَّ إذاً أيها الجواد الصغير، أُرْكُضْ عبر السهل، أُرْكُضْ قبل أن يفوت الأوان لا تقف أبداً وإنْ كنت متعباً، لا تقف قبل أن ترى المروج الخضراء، والأشجار المألوفة، ومساكن الناس، والكنائس، والأجراس .

إذاً وداعاً أيها الحصن، إنَّ التوقف مرة أخرى سيغدو أمراً خطيراً، لقد هوى لغزك البسيط، ذلك أن سهل الشمال سيظل أبداً متصحراً، لن يأتي الأعداء أبداً، لن

يـأتي أحـد ليـصعد أسـوارك الفقيـرة، وداعـاً أيهـا الميجـور أورتيـز، أيهـا الـصديق الكئيب، يا من لم يعد يملك القدرة على انتزاع نفسه من هذا الكوخ، ومثلك هناك كثيرون، سوف تصمدون بوجه الأمل لأمد طويل، لقد كان الزمان أكثر تيقظاً منكم، و لكن ستقدرون على البدء من جديد، وعلى العكس منكم، لا يستطيع جوفاني دروغو فعل ذلك، ليس لديه أيٌّ التزام يشده نحو الحصن، الآن يعود إلى السهل، سيدخل كومونة الرجال، و ليس من الصعب أن يسندوا إليه مهمةً خاصةً، ربما كانت بعثة نحو الخارج كمرافق لأحد الجنرالات، في هذه السنين التي أمضاها في الحصن، ربما كان قد فقد الكثير من الفرص المواتية، لكن جوفاني مازال شاباً، و سيبقى له الوقت الكافي من أجل تعويض ذلك، وداعاً إذاً أيها الحصن، و دائماً أيتها المحارس اللامعقولة، أيها الجنود الصابرون، الكولونيل الذي يتفحص كل صباح ودون أن يراه أحد بمنظاريْهِ صحراء الشمال، و لكن عبثاً يحاول، ليس ثمة أي شيء و لن يكون أبداً، سلام إلى مثوى أنغوستينا ، ربما كان من بين الجميع الأكثر حظاً، على الأقل مات كجندي حقيقي، وهذا ربما كان أفضل من ميتة محتملة في مشفى، سلام إلى غرفته، حيث رقد دروغو فيها آلاف المرات، سلام أيضاً إلى الفسحة الرئيسة التي تتهيأ هذا المساء أيضاً لتنظيم مسيرة الحراسة المعتادة حسب النظم المألوفة، لكن آخر تحية هي إلى سهل الشمال و هو خاوٍ من الوهم .

لا تفكر بذلك أبداً يا جوفاني دروغو، لا تلتفت إلى الوراء، الآن وقد وصلت إلى حافة السهل، يأخذ الطريق بالإتساع نحو الوادي، سيكون هذا ضعفاً أحمق ... إنك تعرفها صخرةً صخرةً، و يمكن القول، إن حصن باستياني لن يجازف بنسيانها، الجواد يَخِبُّ مبتهجاً والطقس جميل، والهواء دافئٌ وخفيفٌ، الحياة أمامك ما زالت طويلة، إنها تكفي لبداية جديدة، ما الداعي إذا إلى إلقاء نظرة أخيرة إلى الأسوار، إلى الثكنات إلى حرس الدورية و هم يسيرون على حافة المحارس ؟

هكذا تقلب صفحة ببطء و هدوء، تمتد إلى القسم المعاكس مضافةً إلى الصفحات الأخرى التي سبق لك أن انتهيت من قراءتها، حتى الآن إنها مجرد طبقة رقيقة، أما ما تبقّى، و لم يقرأ بعد، فهو بالمقابل كومةٌ من المتعذر إنهاؤها، و لكن دوماً تُستنفد صفحةٌ أخرى، أيها السيد الملازم، جزءاً من الحياة .

من حافة السهل المملوء بالحصى، لن يلتفت دروغو إلى الوراء محدّقاً، ودون أية مسحة ارتياب هاهو ذا يحث الجواد على المنحدر الذي يعبر الوادي، ليس ثمة إشارة أنه سيستدير برأسه و لو سنتيمتراً واحداً، فلتدندن أغنية برشاقة، وإنْ كان ذلك متعباً بالنسبة لك .

- XVIII -

كان مدخل البيت مفتوحاً، و قد اشتم دروغو الروائح القديمة المألوفة بالنسبة له، و كما كان يحدث عندما كان صغيراً، يعود إلى البيت بعد قضاء عطلة الصيف في الفيللا، كانت رائحة مألوفة و صديقة، و مع ذلك، و بعد وقت طويل، ينتشر بعض الشيء ما يشبه الشح، أجل إنها تذكره بالسنين البعيدة، حلاوة بعض الآحاد، العشاء الخفيف، الصبا الضائع، لكنه تحدث أيضاً عن نوافذ مغلقة، عن واجبات، عن التنظيف الصباحي، عن الأمراض، عن المشاجرات، عن الفئران .

ـ آه، سيدي الصغير .

صرخت مدهوشة جوفانّا الطيبة التي كانت قد فتحت الباب له، و من ثم وصلت الأم على الفور " آه، شكراً لله، لم تتغير بعد " ، جلس في الصالون، وبينما كان يحاول الإجابة عن الأسئلة المتعددة شعر بأن السعادة بدأت تتحول إلى حزن فاتر، لقد بدا له أن المنزل خاوٍ قياساً إلى زمنٍ ما، كان أحد إخوته قد سافر إلى الخارج،وآخر كان في رحلة من يدري إلى أين ؟ الثالث في الريف، لم يبق في البيت سوى الأم، حتى هي كان يتوجب عليها الخروج بعد برهة لقضاء حاجة في الكنيسة حيث كانت إحدى صديقاتها في انتظارها .

لقد بقيت غرفته كما كانت في السابق، هكذا كما تركها، لم يتم تحريك أي كتاب من كتبه، لكنه مع ذلك شعر بأنه يخص شخصاً آخر، جلس على الأريكة، أصاخ السمع إلى صخب السيارات العابرة في الطريق، إلى الضجيج المتناوب الذي كان يتناهى إليه من المطبخ، كان وحيداً في غرفته، الأم تصلي في الكنيسة .. الإخوة بعيدون، إذا العالم كله يعيش دون حاجةٍ إلى جوفاني دروغو، فتح النافذة، شاهد المنازل الرمادية، الأسطح بعد الأسطح، السماء الضبابية، بحث في

أحد الأدراج عن صورة قديمة للمدرسة، بعض اليوميات التي أحتفظا بها طويلاً، بعض الرسائل، دهش من كونه هو الذي كتب هذه الأشياء، إنه لا يذكرها بالضبط، كان كل شيء ينتمي إلى أشياء منسية، جلس إلى البيانو، حاول البحث عن انسجام، لكنه ما لبث أن أعاد لوحة مفاتيح البيانو، والآن ؟ إنه يتساءل ؟ هاهو ذا غريب يتجول في المدينة، باحثاً عن أصدقائه القدامى، علم أنهم جد منشغلين بأعمالهم، في مشاريع كبيرة، بالمهام السياسية، كانوا يحدثونه عن أشياء جدية و هامة، عن منشآت، عن طرق تعبّد، عن مشافٍ، بعضهم دعاه إلى طعام الغداء، بعضهم كان قد تزوج، الكل أختار طرقاً مختلفة، و قد نأوا عنه بعيداً خلال السنوات الأربع المنصرمة، كم حاول (و لكن ربما كان هو أيضاً غير قادر) لكنه فشل في سَوْقِ أحاديث معينة كما كان يحدث يوماً ما، المزاح، طرق التعبير، راح هائماً في المدينة بحثاً عن أصدقاء قدامى ـ كانوا كثراً ـ لكنه انتهى إلى حيث وجد نفسه وحيداً على الرصيف، كانت ثمة ساعات فراغ طويلة قبل أن يأتي المساء .

في الليل، ظل خارج المنزل حتى ساعة متأخرة، محاولاً الترفيه عن نفسه وفي كل مرة كانت تبرز الآمال الغامضة المعتادة لأيام الصبا والحب، وفي كل مرة كان يعود خائباً، دفقات من الكراهية للطريق الذي يقوده إلى المنزل وحيداً، إنها دائماً الطريق نفسها، إنها متصحرة .

في ذلك الوقت كان ثمة حفلة رقص كبيرة، و قد دخل دروغو إلى القصر بصحبة صديقه فيسكوفي، كان الوحيد الذي استطاع أن يجده، كان يشعر بأنه في حالة روحية مثالية، ذلك لأن الوقت مازال ربيعاً ربما كانت الليلة طويلة جداً، إنها فرجة من الوقت غير محدودة، و قبل الفجر يمكن أن تحدث أشياء كثيرة، و بالضبط دروغو لم يكن قادراً على تحديدها، من المؤكد أنه كانت تنتظره ساعات طويلة من لذة غير محددة، و بالفعل فقد انخرط يمازح فتاة ترتدي لباساً بنفسجي

اللون، و لم تكن الساعة قد أعلنت بَعْدُ منتصف الليل، ربما ولد الحب قبل أن يطلع النهار، عندما ناداه صاحب البيت لكي يطلعه بشكل دقيق و مفصل على أرجاء القصر، أدخله في بعض المتاهات و الدهاليز، تركه منفياً في غرفة المكتبة، ثم أكرهه على التدقيق بمجموعة من الأسلحة وتقدير أهميتها، حدثه عن قضايا إستراتيجية، عن نكات عسكرية، عن حكايات البيوت الملكية، و على كلٍ كان الوقت يمر، كانت التواقيت تركض بشكل مثير للتعجب عندما استطاع دروغو أن يتحرك و هو يكابد الشعور بالسَأم من العودة إلى الرقص، كانت الصالات نصف خاوية، و قد اختفت الفتاة ذات الرداء البنفسجي، ربما كانت قد عادت إلى منزلها، عبثاً حاول دروغو معاقرة الشراب، عبثاً حاول الضحك دون سبب، حتى النبيذ لم يعد يجذب اهتمامه وقد بدأت موسيقا الكمان تبدو أكثر وهناً، لدرجة أنهم في لحظةٍ ما كانوا يعزفون دون جدوى لأن أحداً لم يعد يرقص، وجد دروغو نفسه وقد غدا فمه مراً، بين أشجار الحديقة، تناهت إلى سمعه أصداء غير مؤكدة لرقصة الفالس بينما كانت فتنة الحفلة قد تلاشت، على حين غدت السماء أكثر شحوباً بسبب اقتراب الشفق .

أَفِلَتِ النجومُ، و ظل دروغو ثاوياً بين الظلال السوداء للنباتات وهو يرقب بزوغ اليوم الجديد، بينما كانت العربات المزركشة تبتعد عن القصر الواحدة تلو الأخرى، الآن لقد صمت عازفو الموسيقا، و أحدهم كان يدور في غرف القصر وهو يطفئ الأنوار، و من فوق إحدى الأشجار، وبالضبط من فوق دروغو، تصاعدت دندنة دقيقة و طازجة لأحد العصافير الصغيرة، ثم غدت السماء تالياً أكثر صفاءً، كل شيء يستريح بسكينة منتظراً بثقة بزوغ يوم جميل، في تلك اللحظة ـ فكر دروغو ـ لقد سبق أن وصلت إشعاعات الشمس الأولى إلى حراب الحصن على حين يشعر الحرس الآن بالبرد، و عبثاً حاولت أذناه سماع تصاعد نفخ الأبواق .

وعبر المدينة، العائمة في بحر النوم، فتحت بوابة البيت و هي تصدر صخباً مفرطاً، على حين بعض شعاع من الضوء كان يتسلل عبر الفتحات الموجودة في الشبابيك والأبواب .

ـ ليلة هانئة يا أمي .

قال و هو يعبر الممر، و من الحجرة، من خلف الباب، بدا أنه يسمع كما هي العادة، و كما كان يحدث في الأيام الخوالي عندما يعود متأخراً إلى المنزل نغماً مضطرباً يجيبه قرارٌ محبب، وإنْ كان ممتلئاً بالنعاس، ثم ما لبث أن تابع مسيره هادئاً مطمئناً نحو غرفته، عندئذٍ انتبه إلى أنها هي أيضاً تتحدث " ما بك يا أمي ؟ " يتساءل في قلب السكون الفسيح، في اللحظة نفسها يفهم بأنه يتبادل الدحرجة مع عربة بعيدة ذات صوت محبب، في الحقيقة لم تُجِبْهُ الأم، لم تعد توقظها الخطوات الليلية لغلامها كما كان يحدث يوماً ما، لقد غَدَتْ خطواته غريبة، كأن نغماتها قد تبدلت بمرور الأيام .

يوماً ما، كانت خطواته تصل إليها و هي غائصة في قلب الكرى وكأنها نداء محدد، صخب الليل كله، وإنْ كان جَدٌّ قوي، لا يكفي لإيقاظها، و لا حتى صوت السيارات في الشارع، و لا حتى بكاء طفل ما، ولا نباح الكلاب، ولا نعيب البوم، ولا العوارض التي تطقطق، ولا الريح على الأسطح، ولا المطر، ولا قرقعات الأثاث، وَقْعُ خطواته وحده كان يوقظها من نومها، و ليس مدعاة ذلك أنها خطوات صاخبة جداً (على العكس كان جوفاني يسير على رؤوس أصابعه)، و ليس ثمة أي سبب وجيه لذلك،إلاّ لأنه كان ولدها .

و لكن الآن على كل حال لم يعد الأمر كذلك، الآن لقد حيّا أمه كما كان في السابق انسياب الصوت نفسها، وربما استيقظت على الصوت المألوف لخطواته، وعلى العكس لم يُجِبْهُ أحدٌ سوى دحرجة العربة البعيدة، يا للغباء، فكّر، مصادفة مثيرة للسخرية ربما كان هذا جائز أيضاً، و مع ذلك دهمه شعور بالمرارة بينما

كان يَنْدَسُّ في سريره، تقريباً كان الحُنُوٌّ الذي شعر به دائماً قد غدا ضبابياً و معتماً، كان الزمان والهجرقد نشرا ببطء بين الاثنين حجاباً من الانفصال .

ثم إنه ذهب للقاء ماريا، شقيقة صديقه فرانشيسكو فيسكوفي، كان بيتهم ذا حديقة، و لما كان الوقت ربيعاً فقد أفرعت الأشجار وريقات جديدة، على حين كانت تُسقْسِقُ العصافير فوق الأغصان .

لاقته ماريا عند الباب وهي تبتسم، كانت تعرف بأنه آتٍ، لذا فقد ارتدت رداءً أزرق، رهيفاً، يشبه لباساً آخر أعجبه يوماً ما .

كان دروغو يعتقد بأن هذه اللحظة ستكون جد مؤثرة و معبأة بالانفعالات، و ربما دق قلبه، لكنه ما إنْ اقترب منها ولاحظ ابتسامتها حتى سمع رنين صوتها وهو يقول له " آه، أخيراً، جوفاني "،(كانت هكذا مختلفة عما فكّر به) فقد خالجته مشاعر الزمن الغابر.

لقد كان هو نفسه كما كان في الغابر ـ هكذا كان يعتقد ـ من الجائز أن منكبيه أصبحتا أعرض من السابق، و أن وجهه قد أصبح غامقاً بعد أن لفحته شمس الحصن، حتى هي كانت قد تغيرت، لكن شيئاً ما كان قد دق إسفينه بين الإثنين .

دخلا إلى الصالون الكبير، ذلك أن الشمس كانت صيهوداً في الخارج، كانت الغرفة غارقة في ظلال حلوة، أثيرٌ من شعاع الشمس كان ينعكس على السجادة، وكانت ثمة ميقاتٌ تجري .

جلسا فوق أريكة، بشكل مواربٍ لكي يتمكنا من رؤية بعضهما بعضاً، كان دروغو يثبتها بنظراته دون أن يجد الكلمات، و لكن كانت تُجيلُ بحيويةٍ أنظارها فيما حولها، قليلاً نحوه، قليلاً نحو الأثاث، قليلاً نحو سوار من الفيروز يزيّن معصمها وكان يبدو جديداً .

قالت ماريا وهي مبتهجة :

ـ سيكون فرنشيسكو هنا بعد لأيٍ، على كلٍّ ستبقى قليلاً معنا، من يدري كم

من الأشياء لديك لتحكيها لي ؟ .

رد دروغو :

ـ أوه، الحقيقة لا يوجد شيء ذو أهمية خاصة، هناك دائماً ...

تساءلت هي :

ـ و لكن لم تنظر إلي بهذا الشكل ؟ هل تجدني تغيرت كثيراً .

لا، لم يكن دروغو يجدها قد تغيرت كثيراً، بل على العكس، كان شيئاً مذهلاً أن لا تتعرض فتاة لتغيرات ملحوظة في خلال أربع سنوات، لكنه كان يعاني من شعور غامض بخيبة الأمل و بالبرود، يحس بعجز عن اجترار ذلك النغم الذي كان يملأ صوته يوماً ما، عندما كانا يتحادثان كأخوين، و كان بإمكانهما المزاح دون أن يؤذيا بعضهما بعضاً، لماذا كانت تجلس هكذا على الأريكة وتتحدث بهذه الطريقة السمحة ؟ ربما رغب في أن يشدها من ذراعها ويقول لها " ولكن هل جننت؟ ما الذي يدفعك الآن لتظهري بهذا المظهر الجدي؟ " عندئذ ربما تحطم الجليد الصلب بينهما، ولكن دروغو شعر بعجز عن فعل ذلك، كان بإزائها شخصٌ مختلفٌ و جديدٌ، ذو أفكار مجهولة ربما هو نفسه لم يعد ذلك الشخص الذي كانه يوماً ما، وأنه هو الذي بدأ بهذه النغمة المزوّرة .

رد دروغو :

ـ تغيرت ؟ لا، لا، مطلقاً .

ـ آه، إنك تقول هذا لأنك تجدني قد غدوت أقل جمالاً، هيّا، قُلِ الحقيقة .

هل كانت ماريا هي التي تتحدث ؟ ألم تكن تمزح ؟ كان جوفاني يستمع إلى كلماتها وقد غمره الشك، وفي كل لحظة كان يأمل أن تلقي جانباً هذه الابتسامة الأنيقة، وأن تتخلى عن هذا الموقف المعذب وأن تطلق عالياً ضحكةً مجلجلة .

" قبيحة، أجل إني أجدك قبيحة " لو أن الأمر كما كان في السالف، فإنه كان سيجيب بهذا الكلام، كان جوفاني يهم أن يطوق خصرها بذراعيه، عندئذ ستلتصق

به أكثر، أما الآن فإن مزاحاً قبيحاً من هذا النوع يبدو شيئاً غير معقول.

رد دروغو :

ـ ولكن لا، أني أقول لك، لم تتغيري البتة، إني أو أكد لك ذلك،

حملقت فيه وقد خفت حماسة ابتسامتها، ثم قالت وهي تغيرمجرى الحديث :

ـ والآن قل لي، هل أتيت لكي تبقى أبداً هنا ؟

كان يتوقع مثل هذا السؤال (وربما فكر بأن يجيبها قائلاً إن هذا يعتمد عليك أنتِ أوأيّ شيء من هذا القبيل)،ولكنها لو سألت هذا السؤال قبلاً، عند لقائهما، كم كان سيبدو طبيعياً، لوكان الأمر يضغط عليها بهذا الشكل، الآن، فقد تناهى السؤال إليه بشكل مباغت، وهذا شيء مغاير، لقد بدا سؤالاً يدل على الكياسة وخالياً من أية أحاسيس، مرت لحظة صمت، وإلى الصالة القابعة في الظلال كان يتناهى من الحديقة شدو العصافير، ثم كان يصل عزفٌ على البيانو صادر من غرفة أخرى، كان بطيئاً وآلياً، ربما كان عزف تلميذ متدرب .

قال دروغو :

ـ لست ادري، حتى الآن لست أدري، إني في إجازة فحسب .

ـ مجرد إجازة ! بعد كل هذا الوقت الطويل ! .

ردت ماريا على الفور، وكان صوتها مملوءاً بترجيعات رهيفة حيث كان يمكن أن يكون مصادفة أو لعله خيبة أمل أو لعلّه ألم، لكن إسفيناً ما كان قد دُقَّ بينهما، ربما وُلِدَ ببطءٍ، وفي أثناء فترة الانفصال الطويلة، يوماً بعد يوم، والإسفين يبعدهما عن بعضهما البعض ولم يكن أي منهما على درايةٍ كافيةٍ به .

ـ شهران، ربما عُدْتَ بعدها، وربما ذهبت إلى مكان آخر، ومن الجائز أن أبقى هنا في المدينة .

قال دروغو شارحاً، لقد غدا الحوار الآن مثيراً للألم، ثمة لا مبالاة كانت قد دلفت إلى الروح،صمت الإثنان، كانت الظهيرة تجثم على صدر المدينة، وقد

خرس شدو العصافير، لم يكن يسمع سوى النغم البعيد للبيانو، جزئياً ومنتظماً، فقد أخذ يتصاعد و يتصاعد، وهو يملأ مناحي البيت، كان اللحن ينطوي على تعب عنيد وصلب، شيءٌ من الصعب قوله، بل لا يمكن البتة التعبير عنه .

قالت ماريا وقد تنبهت إلى أن جوفاني كان يصغي إلى البيانو :

ـ إنها ابنة ميتشيل هي التي تعزف على البيانو في الطابق العلوي .

ـ وأنتِ كنتِ تعزفين مثل هذه الموسيقيا يوماً ما .

ـ لا، لا، إنها صعبة للغاية، ربما كنت قد سمعتها في مكان آخر .

قال دروغو .

ـ كان يبدو لي ...

كان البيانو يعزف عذاباً رتيباً، حدّق جوفاني في أثيرالشمس المتساقط على السجادة، فكر في الحصن، تخيّل الثلج وهو يذوب، السيلان المتتابع فوق الشرفات، ربيع الجبال الفقير، إذ يمكن للمرء أن يجد زهوراً صغيرة في المروج، وروائح تبن كانت تحملها الريح .

ردت الفتاة :

ـ لكنك ستنتقل الآن، أليس كذلك ؟

ـ بعد وقت طويل، لي الحق في فعل ذلك، هناك ثمة سَأَمٌ لا يطاق،

نطق هذه الكلمات الأخيرة بسخط واضح، وكأن الحصن كان يشكل بالنسبة له شيئا عدائياً، " ربما كان مثيراً للسأم بعض الشيء، أفضّل البقاء هنا معكِ " .

لمعت هذه الفكرة البائسة في ذهن دروغو وكأنها إمكانية مملوءة بالشجاعة لكنها كانت تافهة، من الجائز أنها كانت كافية، ولكن الرغبات كانت تجمح دفعةً واحدة، ولكن دروغو فكّر بخلاف ذلك وبدون أدنى رغبة، كم كانت ستكون مثيرة للتهكم هذه الكلمات التي تلفّظ بها، إذاً، فقد قال :

ـ إيه، أجل، إن الأيام تمر هكذا بسرعة .

مازال يسمع عزف البيانو، ولكن لم تستمر هذه الألحان في التصاعد إلى أي حد ؟ كانت ألحاناً مدرسية عادية، تردد انقطاعاً مستسلماً لقصة قديمة عذبة، كانت تتحدث عن مساء ضبابي بين مصابيح المدينة، وعن اثنين كانا يذهبان تحت الأشجار العادية، عَبْرَ الشارع الخالي،ويحسّان بسعادةٍ مباغتةٍ، وهما يأخذان بيديهما أطفالاً، ودون أن يعيا لماذا، وفي ذلك المساء، كان يمكن تذكر كل شيء، كان ثمة العديد من آلات البيانو التي تعزف في البيوت، وكان الليل يخرج عَبْرَ النوافذ المضاءة، ومع ذلك ربما كانت مجرد تدريبات مثيرة للسأم لكن جوفاني وماريا لم يسمعا أبداً موسيقى حلوة وإنسانية كتلك، أضاف دروغو مازحاً :

ـ بالتأكيد، هناك، ليس ثمة إمكانيات كبيرة لتزجيةِ الوقت، ولكن المرء يعتاد بمرور الأيام .

كان الحوار، في وسط الصالون المعبأ بأريج الزهور، قد بدا وكأنه يكتسي ببطءٍ نغماً شاعرياً، وهذا ما يرافق اعترافات الحب " من يدري ؟ " فكّر جوفاني، أن هذا اللقاء الأول، بعد طول فترة انقطاع، لم يكن من الممكن أن يكتسي حلةً أخرى ربما كان بإمكاننا أن نجد أنفسنا، عندي من الوقت شهران، لا يمكن محاكمة الأمر هكذا دفعة واحدة، ربما مازالت تحبني، لكن الفتاة قالت :

ـ وأسفاه، سوف أسافر مع أمي و جورجينا بعد ثلاثة أيام، وسيطول غيابنا بضعة شهور حسبما اعتقد .

كان يبدو أن الفكرة تثير في داخلها بهجة خاصة، ثم أردفت :

ـ سنسافر إلى هولندا .

ـ إلى هولندا ؟ .

بدأت الفتاة الآن الحديث عن الرحلة، ممتلئة بالحماس، عن الأصدقاء الذين ستسافر معهم، عن جيادها، عن الحفلات التي كانت تتم في أثناء الكرنفالات، عن حياتها، عن أصحابها، وهي تكاد لا تحس بوجود دروغو .

الآن يمكن للمرء أن يشعر بها بيسر، وقد بدت أكثر جمالاً .

قال دروغو وهو يحس بأن حنجرته قد غَصَّتْ بالمرارة:

ـ إنها فكرة مذهلة، هذا هو الفصل الرائع في هولندا، لقد سمعت عن ذلك، يقولون إن ثمة الكثير من السهول المملوءة بزهر الخزامى .

ردت ماريا موافقة :

ـ أوه، أجل، يجب أن يكون الأمر ممتعاً للغاية، تابع جوفاني وقد تصاعدت موجات صوته عالياً :

ـ وبدلاً من أن يحصدوا القمح، يَجْنُوْنَ الورود، ملايين وملايين من الورود حيث تتيه العين، وفي الأعالي يمكن مشاهدة طواحين الهواء، وقد صُبِغَتْ حديثاً بألوان ممتلئة بالحيوية .

تساءلت ماريا وقد بدأت تفهم مغزى هذا المزاح :

ـ صُبِغَتْ حديثاً ؟ ما الذي تريد قوله ؟

رد جوفاني :

ـ هكذا يروون، ثم إني قرأت ذلك في كتاب .

كان أثيرُ الشمس الساقط على السجادة قد بدأ يصعد متقدماً على طول إحدى المكاتب، كانت الظهيرة قد انصرمت، وغدا صوت البيانو واهناً، في الخارج، حيث الحديقة، كان ثمة عصفور وحيد يشدو، حدق دروغو في جناحي الموقد، إنهما يشبهان تماماً زوجاً موجوداً في الحصن كانت المقارنة تحمل له عزاءً خفيفاً، كما لو أنه بدأ يستنتج بعد كل ذلك أن الحصن و المدينة هما عالم واحد، العادات الحياتية نفسها، لكن عدا عن الجناحين لم يفلح دروغو في أن يجد شيئاً آخر مشتركاً .

قالت ماريا وهي تخفض عينيها :

ـ أعتقد أنه شيء جميل، أجل، ولكني الآن وحين دَنَتْ ساعة الرحيل، أشعر

بفقدان الرغبة في ذلك .

قال دروغو عامداً، وهو يوحي بأنه لم يشعر بخيبة الأمل تلك :

ـ ترّهاتٌ، إنَّ هذا يحدث دوماً في اللحظة الأخيرة، أن تحضير الحقائب أمر يبعث على السَأَمِ .

ـ أوه، لا، ليست المسألة مسألة تحضير حقائب، ليس بسبب هذا،

كانت ثمة كلمة ضرورية وناقصة، فقط جملة بسيطة تقول بأن رحيلها سيترك في داخله ألماً مُمِضّاً، لكن دروغو لم يكن راغباً في طلب أي شيء، في تلك اللحظة كان عاجزاً عن فعل ذلك بحق، لقد كاد أن يكذب، لكنه صمت، مكتفياً بابتسامة غامضة .

ولمّا وجدت الفتاة نفسها في حيرة، لا تعرف ماذا تقول، قالت مقترحةً :

ـ لنذهب إلى الحديقة قليلاً، لقد خفّ حر الشمس .

نهضا من فوق الأريكة، كانت صامتة وكأنها تنتظر أن يبادر دروغو بالكلام، وكانت تحدق فيه، ربما يحب، لكّن أفكار جوفاني، ما إنْ أبصر الحديقة، حلقت به، وهي تعود به إلى الحصن هناك، يمكن أن يحلّ الفصل الجميل، أعشاب تبزغُ من بين الحصى، بالضبط في مثل هذه الأيام، منذ مئات السنين، ربما كان التتار قد وصلوا إلى المنطقة ...

قال دروغو :

ـ إنه طقس جميل، حار قياساً إلى أننا في أبريل، سترين أنها ستمطر ثانيةً .

هذا بالضبط ما قاله، فارتسمت على محيّا ماريا ابتسامة ذاهلة، أجل أنه حار جداً " أجابت بنبرة ذات رنين، وقد تنبه كلاهما إلى أنَّ كلَّ شيءٍ كان بينهما قد انتهى، الآن إنهما بعيدان جداً عن بعضهما بعضاً وقد قامت بينهما فجوة، عبثاً يمدان أيديهما من أجل ملامسة بعضهما بعضاً، وفي كل لحظة كانت الفجوة بينهما تتسع،

كان دروغو يفهم أنه مازال يرغب بماريا، وأنه مازال يحب عالمها، ولكن الأشياء التي كانت تغذي حياته يوماً ما كانت قد انقطعت الآن وغدت بعيدة جداً، إنه عالم خاص بآخرين،حيث تم ببساطة احتلال مكانه فيه، وقد أخذ هذا العالم يعتبره الآن خارج إطاره، هذا كله يجري بحسرة تامة، إن العودة للدخول ثانيةً في هذا العالم سوف يعني الإساءة إلى وجوه جديدة، إلى عادات مختلفة، مزاح جديد، طرق في الحديث جديدة، وهو لم يستعد بما فيه الكفاية لمواجهة هذا كله، لم تعد هذه تشكل جزءاً من حياته، لقد سبق له أن اختار طريقاً آخر، وقد غدا الرجوع إلى الوراء شيئاً أحمق وبلا طائل .

ولمّا لم يصل فرانشيسكو، حيّا دروغو و ماريا بعضهما بعضاً بودٍّ مفرط، وقد أغلق كل منهما على الآخر أفكاره السرية، ضغطت ماريا يده بقوة، وهي ترمقه بنظراتها، ربما كانت هذه دعوة له لكي لا يغادر وهو في هذه الحالة، أو لعلها أرادت أن يغفر لها، وليحاولا من جديد استعادة ما فقداه الآن ؟

وكان هو يحدق فيها بنظرة ثابتة، قال :

ـ وداعاً، أرجو أن نلتقي قبل أن ترحلي .

ثم انصرف دون أن يرجع بنظره إلى الخلف، بخطوات عسكرية، متوجهاً صوب سياج المدخل، على حين تصاعدت قرقعة حصباء الشارع وسط السكون .

- XX -

كانت السنون الأربعه التي قضاها في الحصن كافية لأن تطبعه بميسمها، وأن تحثه على اختيار قَدَرٍ جديدٍ، لكّن دروغو، كان يحاول أن يبقى في المدينة متجنباً نقله إلى حامية عسكرية بعيدة، لذا فقد انخرط يقود حواراً ذا طابع خاص مع قائد الفرقة العسكرية، والأصح إنّ أمه هي التي ألحت على القيام بمثل هذا

الحديث، وهي تؤكد بأنه يتوجب عليه المضي قُدُماً كي لا يغدو منسياً، بالتأكيد ذلك أنه في حالة كهذه لن يجد من يعتني به من تلقاء نفسه، لو لم يتحرك جوفاني ربما كـان قد تعرض إلى النقل إلى مقر عسكري حدودي آخر طافح بالحزن، وقد احتالت الأم، عَبْرَ بعض الأصدقاء، لكي يستقبل الجنرال ابنها استقبالاً جيداً.

كان الجنرال ثاوياً في مكتب واسع، جالساً خلف الطاولة، يدخن سيجارة، كان يوماً ماطراً مرّةً، وغائماً مرّةً أخرى، وكان الجنرال عجوزاً، وقد حدّق في وجه الملازم دروغو بنظرةٍ ودودة عبر عدسةٍ مكبرة، تكلّم الجنرال أولاً، وكأنما هو الذي طلب مثل هذا الحوار، قال :

ـ كنت أرغب برؤيتك، ذلك أني كنت راغباً في معرفة أحوالكم هناك، كيف حال فيلموري، هل هو بخير ؟

رد دروغو :

ـ سيادتكم سيدي الكولونيل عندما غادرتم، كان (هو) بأطيب حال .

صمت الجنرال برهة، ثم هزّ رأسه بأبوية واضحة قائلاً :

ـ حقاً، ذلك الملازم، ماذا كان يدعى ؟ إنه اسم شبيه ب اردوينو كما يبدو لي .

ـ أنغوستينا ، لقد كان يدعى أنغوستينا يا صاحب السيادة.

ـ هذا حق، أنغوستينا ، إيه، رأس رائع ! بسبب عناد أخرق، نغامر عند الحدود، لست أدري كيف نملك ... بَهْ، دعنا من هذا .

ختم حديثه بشكل قاطع وكأنه يعبر بذلك عن كرم وسماحة .

تجرّأ دروغو على الإيضاح قائلاً :

ـ لو سمحتم لي سيادتكم ، فإني أقول بأن أنغوستينا هو الذي مات .

قال الجنرال، وكأن هذا كان شيئاً خاصاً ذا أهمية ضئيلة :

ـ هذا جائز، سيكون هذا رائعاً، إنك مُحِقٌّ، الآن لا أذكر جيداً، ولكن الأمر

أثار استياء جلالته كثيراً، بالضبط كثيراً .

صمت، ثم رفع عينين متسائلتين حول دروغو، ثم قال بنبرةٍ دبلوماسية مملوءة بالمضامين :

ـ إنك هنا، أنت إذاً هنا لكي تنتقل إلى المدينة، أليس كذلك ؟ لديكم جميعاً شغف بالمدينة، لديكم، ولا تدركون بأنه في المواقع العسكرية البعيدة يمكن للمرء أن يكون بحق جندياً .

رد دروغو وهو يحاول التحكم بكلماته وبنبرته :

ـ نعم يا صاحب السمو، بالفعل انتهت السنون الأربع ...

اعترض الجنرال ضاحكاً :

ـ أربع سنين بالنسبة لسنك ! ماذا يمكن أن تشكل ؟ على كلٍّ أنا لا أرغب في لومك، كنت أقول إنه، لنزعةٍ نوعيةٍ، ربما لا يكون المكوث في المدينة مناسباً لشد أزْرِ الجندي، وتزويده بروح القيادة ... قطع حديثه برهة وكأنه أضاع الخيط، حاول التركيز قليلاً، ثم أردف الجنرال قائلاً :

ـ الحصن، حصن باستياني، دعنا نرى قليلاً، هل تعرف أيها الملازم ما هي نقطة ضعف حصن باستياني ؟

قال دروغو :

ـ لست أدري، سيادتكم، ربما كونه معزولاً بعض الشيء،

ابتسم الجنرال ابتسامة تأسّف لطيفة، ثم قال :

ـ كم تحملون من الأفكار الغريبة أيها الشبان، معزولاً بعض الشيء، أريد أن أعترف لك أن مثل هذا الأمر لم يخطر ببالي قط، هل تريد أن أقول لك ما هي نقطة ضعفه ؟ إن نقطة ضعفه هو أنه مكتظ بالناس، أجل مكتظ بالناس،

ـ مكتظ بالناس ؟

تابع الجنرال دون أن يأبه لمقاطعة الملازم :

ـ وبالضبط لهذا السبب، بالضبط لهذا السبب تم تغيير النظام، ماذا يقولون في الحصن عن هذا الأمر ؟

ـ اعذرني سيادتكم، ولكن عن أي شيء ؟

رد الجنرال بجلافة :

ـ عن هذا الذي تتحدث عنه، النظام الجديد، لقد سبق أن قلت لك ذلك.

رد دروغو بتحفظ :

ـ لم أسمع أبداً بشيء من هذا القبيل، حقيقي لم أسمع به،

قال الجنرال مؤكداً وقد هدأ بعض الشيء :

ـ هذا حق، من الجائز أنه لم يعمل بالأمر الإداري بعد، ولكني كنت أعتقد أنك على علم بذلك، ذلك أنّ العسكريين بشكل عام، خبيرون بمعرفة الأنباء أولاً بأول.

تساءل دروغو بفضول :

ـ نظام جديد، سعادتكم ؟

رد الآخر بجلافة :

ـ عملية تخفيض جوهرية لعدد الأفراد في الحصن، لقد قُسّم الموقع إلى قسمين، يوجد فيه الكثير من الناس، لقد قلت هذا دائماً، يجب أن يقل عدد عناصر الحصن .

في تلك اللحظة، دخل الميجور المساعد وهو يحمل العديد من الأضابير، فردها على الطاولة ثم تناول إحداها،، تلك التي كانت تخص جوفاني دروغو، ثم سلمها إلى الجنرال الذي جعل يتفحصها بتمعن .

قال :

ـ هذا جيد،ولكن كما يبدو لي فإن طلب النقل غير موجود في هذه الإضبارة.

تساءل دروغو :

ـ طلب النقل ؟ كنت أعتقد أن لا حاجة لتقديم طلب من هذا النوع بعد أربع سنين .

رد الجنرال، وقد بدا واضحاً أنه قد سأم من إعطاء الإيضاحات إلى مرؤوسيه :

ـ في العادة، لا، ولكن في هذه المرة، وبما أنه ثمة تخفيض في عناصر الحصن، وأن الكل يرغب في مغادرته، في هذه الحالة يجب أن ننظر في الأسبقيات .

ـ ولكن لا أحد يعرف أي شيء عن هذا الأمر في الحصن، ولم يحدث أن تقدم أحد بطلب نقل .

تساءل الجنرال :

ـ أيها الكابتن، هل توجد لديكم طلبات نقل من حصن باستياني ؟

رد الكابتن :

ـ حوالي العشرين على ما أعتقد، سيادتكم .

أيُّ مزاحٍ هذا، فكّر دروغو وهو يكاد يشعر بأنه يُسحق، لقد حافظ زملاؤه على الأمر سرياً لكي يتمكنوا من المغادرة قبلاً، حتى الكابتن أورتيز خدعه بهذا الشكل الخسيس .

تجرّأ دروغو على الكلام وقد فطن إلى أن القضية تكاد تكون قاطعة :

ـ اعذرني سيادتكم إذا ألححت، ولكن يبدو لي أن خدمة أربع سنين متواصلة ودون أي انقطاع يجب أن تكون أهم من أسبقية شكلية .

ـ سنواتك الأربعه ليس لهم أي قيمة، أيها الملازم العزيز .

اعترض الجنرال ببرودة، وقد شعر كأنه أهين، ثم أردف :

ـ إنها لا شيء قياساً إلى الكثيرين الذين أمضوا هناك حياة بأكملها يمكنني أن أتعامل مع حالتك بعطف كبير، أستطيع أن أتفهم طموحك وتطلعاتك، لكني

لا أستطيع أن أخالف العدالة و الحق، ثم إنه يجب إحصاء الأوليات المستحقة ...

كان وجه جوفاني دروغو قد شحب و امتقع، تساءل وهو يكاد يتمتم :

ـ إذاً، سعادتكم، إذاً فثمة مجازفة في قضاء العمر كله هناك ؟!

تابع دون أن يأبه بالآخر، وهو ما ينفك يُقلّبُ في أوراق دروغو :

ـ إحصاء الأوليات المستحقة، إني أرى الآن هنا مثلاً، بالضبط هذا ما وقعت عليه عيناي أرى " تنبيه قاعدي " مثل هذا التنبيه ليس شيئاً ذا أهمية قصوى (في كل الأحوال هو تنبيه خفيف) ولكن هاهي ذي لدينا هنا حالة مثيرة للاستياء،ثمة جندي كان قد قتل بطريق الخطأ ...

ـ للأسف، سعادتكم، أنا لست ..

رد الجنرال مقاطعاً :

ـ أنا لا أستطيع الإصغاء كثيراً لتبريراتك، إنك تفهم ذلك جيداً عزيزي الملازم، أنا أقرأ ـ وحسب ـ ما هو مكتوب في تقريرك، وأراهن أن الأمر لا يعدو أن يكون سوء حظ، يمكن أن يحدث مثل هذا بالطبع، ولكن ثمة الكثير من زملائك الذين استطاعوا تجنب سوء الحظ هذا، إني ملتزم ببذل قُصارى جهدي، لقد وافقت على استقبالك شخصياً أنت ترى، ولكن الآن ... لو إنك قمت بتقديم الطلب منذ شهر وحسب، غريبٌ أنك لم تكن على دراية كافية بالموضوع... إن هذه خسارة واضحة، هذا مؤكد .

نبرته الطيبة التي كانت تفوح منه اختفت تماماً، وهاهو ذا الجنرال يتحدث وقد طغى السأم و التهكم على نبرته التي أخذت تهتز وتنطبع بطابع الأستذة، وقد أدرك دروغو أنه خلّف وراءه انطباعاً عن شخص أبله، أدرك أن زملاءه كانوا قد خدعوه وأن الجنرال قد أخذ عنه فكرة أنه شخص سطحي، وأنه لم يعد من الممكن فعل أي شيء، كان الشعور بفقدان العدالة يحرق صدره من جهة القلب، فكّر دروغو " أستطيع الآن أن أنسحب، وأن أقدم استقالتي، ثم أنه بعد كل شيء لن

أموت جوعاً ومازلت شاباً "

أومأ الجنرال إليه بيده بشكل محبب قائلاً :

ـ هذا جيد، وداعاً أيها الملازم، هيا حاول أن تبتهج .

تصلب دروغو في مكانه، حيّاه بخبط كعب الحذاء، ثم انسحب إلى الوراء نحو الباب، وعند العتبة أشار بتحية أخيرة .

ثمة خطوات لجوادٍ يعبر الوادي، وفي عمق السكون المخيم على المعبر، كان يصدر أصداءً واسعة، الجنبات التي في الذروة، بين الصخور الصغيرة، لا تهتز أبداً، الأعشاب الصفراء ثابتة لا تتحرك، حتى الغيوم كانت تعبر أرجاء السماء ببطءٍ شديد تصعد خطوات الجواد باتجاه الطريق البيضاء، إنه جوفاني دروغو، وهاهو يؤوب، إنه بالضبط هو، الآن وقد اقترب، يمكن تمييزه بسهولة، وعلى صفحة وجهه لا يمكن قراءة أي ألم ، لم يتردد، إذاً لم يقدم استقالته، لقد ازدرد شعوره بعدم عدالة قضيته دون أن ينبس ببنت شفة، وهاهو ذا يعود إلى مكانه المعتاد، ولكن في أعماق روحه كان رضاؤه المذعور يشير إلى أن حياته قد تعرضت إلى تغيرات وحشية، وكان يشير إلى أنه يستطيع العودة كما كان في السابق إلى عادته القديمة و المألوفة، هاهو ذا دروغو يخدع بإحساسه أنه قد أحرز نصراً مثيراً للبهجة بازاء حالة من التدهور الفظيع، انه يرفض الكفاح من أجل العودة إلى الحياة اليومية المألوفة، ولسوف يأتي اليوم الذي يدفع فيه الحساب بشكل سخي، فكّر، ولكن الآخرين سيصلون، سيغذون الخطا حثيثاً كي يصلوا قبلاً، سيتجاوزون دروغو وهم يركضون، دون أن يعبأ أحدٌ منهم به، سيخلفونه وراءهم سيحدّق فيهم وهو يكاد يضحك، حائراً، وقد طغت عليه شكوك غير معتادة، ولكن ماذا يحدث لو أنه اخطأ ؟ لو أنه كان رجلاً عادياً ألن يكون له الحق في قَدَرٍ متواضع ؟

هاهو ذا جوفاني دروغو يصعد نحو الحصن المنعزل كما حدث في أحد أيام أيلول، ذلك اليوم البعيد، الفرق هو أنه لا يوجد أي ضابط آخر على الطرف الآخر من الوادي، وعند الجسر حيث يلتقي الطرفان لن يأتي الكابتن أورتيز للقائه، الآن يذهب دروغو وحيداً وهو على أيِّ حالٍ يفكّر في مغزى الحياة، إنه يعود إلى

الحصن ليمكث فيه فترة من الزمن لا يدري أحد كم ستطول، كم من الوقت تبقى أمامه، في هذه الأيام فإن كثيراً من زملائه سيهجرونه إلى الأبد، لقد كان الرفاق أكثر يقظة منه، هكذا كان يفكّر دروغو، ولكن لم يقل أحد أنهم كانوا أفضل منه، يمكن أن يكون هذا هو التوضيح الحقيقي للأشياء .

كم من الوقت مرّ، وكم فقد خلاله الحصن أهميته، ربما كان في الأيام الخوالي موقعاً ذا أهمية، أو على الأقل هكذا كانوا يعتبرونه، الآن وقد تناقصت القوات حتى النصف، لم يعد سوى حاجز أمان وقد استبعد بشكل إستراتيجي عن أي مخطط حربي، أنهم يحتفظون به لكي لا يتركوا الحدود سائبة، ومن سهل الشمال لا يوجد أي احتمال لخطر ما، وإذا لم يظهر ما يدل على وجود مواكب من البدو الرعاة، فكيف سيكون الوجود في الحصن ؟

متأملاً في هذه الأمور، وصل دروغو عند الظهيرة إلى حافة السهل الأخير، فوجد الحصن أمامه، لم تعد تكتنفه أسرار غامضة كما حدث في يومٍ ما، في المرة الأولى، في الحقيقة لم يعد سوى ثكنة حدودية، كوخ مثير للتهكم، وأسواره لم تكن لتصمد سوى بضع ساعات أمام هجوم محتمل بالمدافع، ومع مرور الوقت، يمكن أن تترك لتتهدم من تلقاء نفسها، وقد سبق وأن تهاوت بعض أجزائها، وقد تهاوى متراس رملي داعم دون أن يأتي أحد ليصلحه .

هكذا كان يفكر دروغو وهو واقف على حدود السهل، متطلعاً إلى الحراس المعتادين الذين يذهبون هنا وهناك على حافة السور، كان العلم فوق السطح يتدلى واهناً، وليس ثمة أي موقد يدخن، لا يوجد أي أثر لروح ما في الفسحة العادية .

كم هي مثيرة للسأم هذه الحياة ! ربما كان مورل السعيد قد غادر مع الأوائل، عملياً من الجائز أنه لم يتبقَّ لدروغو أي صديق، ومن ثم تستمر على الدوام الحراسة نفسها، اللعب بالورق نفسه، الهروب نفسه إلى البلد الأقرب من أجل احتساء أي مشروب ، وممارسة الحب بسطحية مطلقة، أي بؤس هذا ! كان

دروغو يفكّر، ومع ذلك كان ثمة بقايا من الغموض تكتنف المناظر الجانبية للمحارس الصفراء، ثمة سر يتجذر هناك في الأعلى، في زوايا الخنادق، في ظلال الخنادق الميتة، ثمة الكثير من الأحاسيس العصية على التعبير فيما يتعلق بأشياء مستقبلية .

في الحصن وجد أن الكثير من الأشياء قد تغيرت، ذلك أنه مع اقتراب رحيل العديد، كان قد تملك الجميع شعور بالحيوية، لم يكن أحد يعرف من الذي ستقدر له المغادرة، وكان الضباط الذين تقدموا بطلبات نقل يعيشون لحظات ترقب قلقة، وقد بدا أنهم قد تناسوا جميعهم تقريباً حرص الأيام الغابرة، حتى فيلموري ـ وكان يعرف ذلك بالتأكيد ـ كان يتوجب عليه مغادرة الحصن، وهذا ما كان يساهم في ازدياد الاضطراب في الخدمة، كان الاضطراب قد تفشى حتى بين الجنود، وقد كان قسم كبير منهم، لم يحدد بعد، قد وضع على لائحة المغادرين، كانت نوبات الحراسة تؤدّى دون أدنى رغبة في ذلك، وغالباً عندما تحين ساعة تبديل الحرس يبدو الجنود غير متهيئين بعد، ذلك أن قناعة ما كانت قد سرت بينهم ألا وهي أن الكثير من التدابير الوقائية والاحترازية كانت حمقاء وبلا طائل .

وقد بدا واضحاً أن آمال الأيام الغابرة، التوهم الحربي، انتظار عدوالشمال، كل هذه الأشياء بدت وكأنها مجرد محاولة لإضفاء هدف ما على الحياة، الآن وقد غدا احتمال العودة إلى المجتمع المديني شيئاً مؤكداً فقد غدا التفكير بهذه الأشياء نوعاً من التفكير الجنوني الصبياني لم يكن أحد مستعداً للإقرار بأنه كان مؤمناً بها، وبالمقابل فهي لم تكن تثير سخرية أحد، الشيء المهم كان هو المغادرة، كان كلٌّ واحدٍ من زملاء دروغو قد سعى حثيثاً من أجل التوسط للحصول على الأسبقية، وكان كلٌّ واحدٍ منهم مقتنعاً بذلك من سويداء قلبه، " وأنت ؟ " كانوا يسألون دروغو بلطافة غامضة، أولئك الذين أخفوا عنه الأنباء الجديدة و أولئك الذين كانوا أقل مزاحمةً وتنافساً كلهم كانوا يسألونه "وأنت ؟ " وكان يجيب " أنا "

ربما توجب عليّ البقاء هنا لبضعة أشهر أخرى وكان الآخرون يسارعون إلى تشجيعه، حتى هو، وقد خاب أمله، ربما نُقِلَ، كان هذا أكثر من شيء صحيح، فيجب ألاّ نكون متشائمين، وأشياء من هذا القبيل .

وحده أورتيز، بين الكثيرين، بدا كأنه لم يتغير، لم يكن أورتيز قد طلب المغادرة ، منذ سنين لم يعد الأمر مهماً بالنسبة له، كان نبأ أن الموقع سيتعرض إلى عملية تخفيض في عدد أفراده قد وصله متأخراً بعد الجميع، ولهذا السبب لم يُنَبّه دروغو في الوقت المناسب .

كان أورتيز يشاهد هذا الهيجان بلا مبالاة، كان مهتماً بقضايا الحصن بحمية شديدة ، وعندما بدا وشيكاً إنهم بالفعل سيغادرون الحصن، تجمع في الباحة الرئيسة عدد كبير من العربات التي تتدحرج باستمرار وهي تحمل مواد متعلقة بالثكنة، وقد احتشد الجمع في صف متهيئين لوداع الرفاق، كان صوته ثابتاً ومطفأً .

ضباط كانوا قد قضوا في الحصن ردحاً من الزمن، و لمئات الأيام التي قضوها وهم يرقبون من على جدران المحارس عزلة الشمال، وكانوا منهمكين في إدارة حوارات حول إمكانية هجوم مفاجئ لعدو محتمل، كثير من هؤلاء الضباط يغادرون بوجوه فرحة، وهم يغمزون بصمت من قناة أولئك الذين سيبقون هنا، ابتعدوا باتجاه الوادي، منتصبين بخيلاء فوق سروجهم، وهم يتبعون قائد مسيرتهم دون أن يلتفتوا مجرد إلتفاتة لإلقاء نظرة أخيرة على حصنهم .

فقط مورل، وفي صباح مشمس، وفي قلب الباحة الرئيسة، قدّم تصريح المغادرة إلى الكولونيل القائد، ثم انحنى ليحيي الخنجر، فقط إليه لمعت العيون والأصوات، وعندما أعطى أمر المغادرة اجتاحته قشعريرة، على حين كان دروغو مُسْنِداً ظهره إلى أحد الأسوار، وهو يراقب المشهد ويبتسم ابتسامة صديق عندما مرّ من أمامه على ظهر جواد متجهاً باتجاه المخرج، ربما كانت هذه هي

آخر مرة يشاهد فيها أحدهما الآخر، لذا فقد دفع جوفاني يده اليمنى مؤدياً لصديقه التحية العسكرية النظامية .

ثم دلف إلى مداخل الحصن،كان يشعر ببرودة على الرغم من أنّ الوقت كان صيفاً، وقد غدا يوماً بعد يوم أكثر تصحراً، وعندما فكّر دروغو بمغادرة مورل، فإن جرح اللاعدالة الذي يعاني منه قد فتح من جديد بشكل مفاجئ وقد أخذ يسبب له ألماً مُمِضّاً، ذهب جوفاني باحثاً عن أورتيز، وجده يخرج من مكتبه حاملاً معه رزمة من الأوراق، وصل إليه، ثم وقف بجانبه قائلاً " صباح الخير سيدي الميجور " .

رد أورتيز وهو يتوقف :

ـ صباح الخير، هل من جديد ؟ هل ترغب بشيء ما مني ؟

بالفعل كان يرغب بطرح سؤال عليه، كانت مسألة هامة ولكن ليست ملحة لكنها كانت تضغط على قلبه منذ عدة أيام .

قال :

ـ اعذرني سيدي الميجور،أتذكر عندما جئت لأول مرة إلى الحصن، منذ أربع سنين ونصف خلت، لقد قال لي الميجور ماتّي بأنه لا يبقى هنا إلا من لديه الرغبة في البقاء ؟ وأن من يرغب في المغادرة كان حراً في فعل ذلك ؟ هل تذكر، لقد حدثتك عن هذا ؟ وعند سماعي لماتّي كان يكفي أن أطلب زيارة طبية، في كل الأحوال لكي يبدو الأمرنظامياً، إلاّ أنه قال بأن هذا الأمر ربما أساء إلى الكولونيل بعض الشيء،

رد أورتيز وقد اعتراه ضيق خفيف :

ـ أجل، أذكر ذلك بشكل غامض الآن، ولكن أعذرني عزيزي دروغو أنا الآن ...

ـ فقط دقيقة واحدة سيدي الميجور، كان من المفترض أن أبقى أربعة أشهر

فقط ؟ ولكني بعدها لو رغبت لكنت غادرت، أليس كذلك ؟

قال أورتيز :

ـ أفهم عزيزي دروغو، لكنك لست الوحيد الذي .

قاطعه جوفاني بتلذذ :

ـ إذاً، لقد كان كل هذا مجرد قصص ملفقة ؟ إذاً لم يكن صحيحاً أنني لو رغبت أن أغادر لكان بإمكاني فعل ذلك ؟ كلها قصص من أجل جعلي هادئاً وطيب البال ؟

رد الميجور :

ـ أوه، لا أعتقد ذلك، لا تترك هذا يتسلل إلى أفكارك .

تمتم جوفاني :

ـ لا تقل لي سيدي الميجور، هل تريد أن تدعي أن ماتّي كان محقاً ؟

قال أورتيز وهو ينظر إلى الأرض بحيرة :

ـ معي جرى الأمر نفسه على هذا النحو، وأنا كنت أحلم بمهمة لامعة .

كانا يقفان في ممر واسع وكان صوتهما يدوّي مخلّفاً أصداءً كبيرة في المكان الذي كان عارياً ومهجوراً .

ـ إذاً ليس صحيحاً القول أن كل من جاء هنا جاء بناءً على طلب قدّمه هو؟ كلهم مجبرون على البقاء هنا مثلي، أليس كذلك ؟

صمت أورتيز وهو يلعب بخنجره، داسّاً إيّاه في أحد ثقوب الأرضية الحجرية .

ألحّ دروغو :

ـ وكل أولئك الذين يقولون أنهم يفضلون البقاء هنا، هذه مجرد حكايات إذاً ؟ إذاً لِم لم يمتلك أحد الجرأة على التصريح بذلك ؟

رد أورتيز :

ـ ربما كان الأمر مختلفاً عما تقول به أنت، البعض فضل بالفعل البقاء هنا، هم قلة، إني أشعر بهذا، ولكن بعضهم كان كذلك .

رد دروغو بحيوية :

ـ من ؟ قل لي من ؟

ثم تراجع وهو يضيف :

ـ أوه أعذرني سيدي الميجور، أنا بالضبط لم أفكر بك أنت تعلم ماذا يحدث عندما نتكلم ؟

قال أورتيز مبتسماً :

ـ أوه، لم أقل هذا من أجلي، هل تعلم ؟ أنيّ بقيت هنا أقوم بعملٍ مكتبي. تحرك الاثنان، سارا معاً، مرا من أمام النوافذ الصغيرة الشبيهة بالكوى والتي كانت قد سدت بمتاريس، من بعيد كان يمكن مشاهدة السهل العاري خلف الحصن، جبال الجنوب، بخار الوديان .

بادر دروغو بالحديث بعد برهة صمت :

ـ إذاً، إذاً كل هذا الحماس، كل هذه الحكايات حول التتار ؟ لم تكن أملاً حقيقياً إذاً ؟

قال اورتيز :

ـ بل كنا نأمل ذلك، كنا مؤمنين بها حقاً .

أخفض دروغو رأسه قائلاً :

ـ إني لا افهم، كلمة ..

قال الميجور :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟ إنها مسألة جد معقدة، هذا الأمر يشبه المنفى، أحياناً نجد أنه من الضروري إيجاد مهرب، تحتاج إلى الإيمان بشيء ما، لقد بدأ أحد ما بوضع أسس هذه الفكرة، وهكذا أخذوا يتحدثون عن التتار، من يدري من كان أول

من قال بذلك .

قال دروغو :

ـ ربما كان للمكان دور في هذا، بسبب رؤية هذه الصحراء .

ـ بالتأكيد، حتى المكان، تلك الصحراء، ذلك الضباب في الأعماق، تلك الجبال، لا يمكن نفي ذلك، فعلياً حتى المكان لعب دوراً هاماً .

صمت برهة، ثم استأنف الحديث وكأنه يحادث نفسه :

ـ التتار، التتار، من حيث المبدأ يبدو الأمر مجرد سخافة، ثم ينتهي باعتناقنا مثل هذا الاعتقاد، وبالفعل، فعلى الأقل هذا ما حدث مع الكثيرين .

ـ ولكن أنت، سيدي الميجور، اغفر لي، هل ...

قال أورتيز :

ـ أنا شيء مختلف، إني شيء مختلف، أنا ليس لدي طموح وظيفي، يكفيني مكانٌ هادىءٌ، أنت على العكس أيها الملازم، أمامك الحياة بأكملها بعد سنة أو سنة ونصف في أبعد تقدير سوف تنتقل من هنا .

اعترض دروغو وهو يتوقف :

ـ انظر إلى مورل، طوبى له .

ومن نافذة صغيرة، كان بالفعل يمكن رؤية القافلة تسير عبر السهل، تعتسف أرضاً جرداء وقد لفحتها الشمس، كان يمكن رؤية الجنود وهو يلمعون، يحملون خُرُوجاً ثقيلة، وهم يسيرون بإقدام .

- XXII-

كانت أخر دفعة من المغادرين تحتشد في الساحة الرئيسة، وكان الجميع يعتقد أنه يوماً بعد آخر سوف تنتظم بشكل قاطع حياتهم الجديدة في مواقع أخرى، وكان ثمة شعور بفقدان الصبر ورغبة في إنهاء مسائل التحيات، هذا الغضب كان من جرّاء رؤية الآخرين وهم يغادرون المكان، كان الحشد قد أكمل استعداده ووقف ينتظر حضور المقدم نيكولوزي الذي يتوجب عليه تفقد عملية سير الرحيل، وقد رأى جوفاني دروغو، بينما كان يرقب كل شيء، رأى الملازم سيموني وقد ظهر على سماته مسحة غريبة .

كان قد مضى على وجود الملازم سيموني ثلاث سنوات، وكان يبدو إنه شاب طيب، كان ثقيل الوزن بعض الشيء، لكنه يتمتع باستقلالية ورغبة في تخفيف وزنه عبر ممارسات بعض التمرينات الرياضية، كان يتلفت حوله وهو يشعر بالقلق، بينما يتقدم باتجاه الساحة الرئيسة، كان يبدو أنه ينتظر أحداً ما ليقول له شيئاً ما، وكان يمكن أن يكون هذا الشخص غير محدد، ذلك أنه لم تكن لديه صداقات من نوع خاص .

شاهد سيموني دروغو وهو يقف جانباً، اقترب منه وقال :

ـ تعال وانظر :

ثم بصوت منخفض :

ـ بسرعة تعال وانظر .

تساءل دروغو :

ـ ماذا هناك ؟

ـ إني أخدم حالياً في المحرس الثالث، وقد قمت بالتملص لبرهة، تعال إليّ عندما يكون لديك الوقت، ثمة شيء لا أستطيع فهمه .

كان يلهث وكأنه يركض .

تساءل دروغو بلا اكتراث :

ـ أين ؟ ماذا رأيت ؟

في هذه اللحظة بالذات نفخ في البوق ثلاث مرات، فانتصب الجنود وهم متأهبون ذلك أنه قد وصل قائد القلعة .

ـ انتظر حتى يغادرون .

كرّر سيموني، وكاد صبر دروغو ينفد بسبب هذا السر، الذي كان يظهر دون أي مبرر .

ـ أريد أن أراهم على الأقل وهم يغادرون، منذ خمسة أيام وأنا أرغب أن أسرّ به إلى أحد ما، ولكن لننتظر حتى يغادروا .

أخيراً، وبعد الكلمات المقتضبة للمقدم نيكولوزي، وبعد العزف الأخير، فإن الحشد المتأهب أخذ يسير بنظام ويخرج خارج الحصن بخطوات ثقيلة وهو يتجه باتجاه الوادي، كان يوماً من أيام أيلول، وقد اكتست السماء بلون رمادي وحزين .

وهكذا اصطحب سيموني دروغو عبر الممرات الخاوية وهو يقوده باتجاه المحرس الثالث عبر المحرس، ثم تقابلا في ممشى الحرس .

أخرج سيموني منظاراً مكبراً وطلب من دروغو أن يحدق في ذلك المثلث المرئي من السهل التي كانت تطل عليه الجبال .

تساءل دروغو :

ـ ماذا هناك ؟

ـ انظر أولاً، لا أريد أن أجانب الصواب، انظر أولاً ثم قل لي ماذا ترى، استند دروغو بمرفقيه على الحاجز، ثم أخذ يحدق باهتمام في الصحراء، وعبر عدسة التكبير، وهي تخص سيموني كان يمكن أن يميز الحصى بشكل جيد، المنخفضات، كتل من الأشجار، رغم أنها بعيدة بشكل غير عادي .

كان دروغو قد جعل يمشط المثلث المرئي من الصحراء نقطة إثر نقطة، وكاد يقول لا، وأنه لا يرى أي شيء عندما ... وبالضبط في العمق، هناك حيث تبدو كل الصور ستار الضباب القائم، كان يمكن رؤية بقعة سوداء صغيرة وقد برزت وأخذت بالتحرك .

كان مازال مستنداً بكوعه إلى الحاجز وهو ينظر في المنظار ومن ثمة جعل قلبه يدق دقات مضطربة، كما حدث منذ سنين، هكذا فكر دروغو، عندما اعتقد أن العدو في سبيله إلى الوصول .

تساءل دروغو :

ـ ما الذي توحي به هذه البقعة السوداء الصغيرة .

ـ منذ خمسة أيام وأنا أراقبها ولم أشأ أن أُسِرَّ بها إلى أحد .

قال دروغو :

ـ لماذا ؟ ما الذي تخشاه ؟

ـ لو كنت تكلمت، ربما أجلّوا الرحيل، هكذا بعد أن سخر منا مورل والآخرون، وربما في حالة كهذه لن يغادروا لاستغلال الفرصة، من الأفضل أن نظل قليلين .

ـ أية فرصة ؟ ما عساها تكون باعتقادك ؟ أنها كما في المرات السابقة، قد يكون فصيل استطلاعي، وربما بعض الصيادين، بل وربما تكون ببساطة مجرد بهيمة .

قال سيموني :

ـ منذ خمسة أيام وأنا أراقبها، لو كانوا مجرد صيادين لانصرفوا الآن، وبالمثل لو كانت مجرد بهيمة، ثمة شيء يتحرك ولكن يبقى واقفاً في مكانه .

ـ إذاً عن أي فرصة تتحدث ؟

حدق سيموني في وجه دروغو باسماً، وكأنه يسأل نفسه ما إذا كان قادراً

على إفشاء السر، ثم قال :

ـ إنهم يشقون طريقاً على ما أعتقد، إنهم جنود، ها قد أزف الأوان، لقد جاؤوا منذ سنين لاستطلاع المنطقة، الآن إنهم بجد قادمون،

ضحك دروغو بمودة قائلاً :

ـ ولكن عن أي طريق تتحدث ؟ تأمل لو أن أحداً ما ؟ ألم يكفك ما حدث في المرة السابقة ؟

قال سيموني :

ـ إنك قصير النظر بعض الشيء، ربما تملك قدرة جيدة على الرؤية، ولكن أنا أستطيع أن أميز جيداً، لقد بدؤوا يتكاثرون، كان يمكن تمييز هذا منذ البارحة حيث كانت تسطع الشمس .

خفض دروغو رأسه وهو مندهش من العناد المستمر، إذا لم يتعب سيموني من الانتظار حتى الآن ؟ وعنده خوف من إفشاء ما اكتشفه وكأنه كنز، كان يخشى أن يأخذوه معهم .

قال دروغو :

ـ في إحدى المرات، في إحدى المرات لقد صدف هذا حتى أنا، أما الآن يبدو أن ذلك مجرد تضليل، لو كنت في مكانك لبقيت صامتاً، ذلك أنهم سوف يهزؤون منك في غيابك .

اعترض سيموني وهو ينظر بأسف إلى دروغو :

ـ إنهم يشقون طريقاً، قد يستغرق الأمر بضع شهور، هذا حق، ولكن هذه المرة هي الحاسمة في رأيي .

قال دروغو :

ـ ولكن حتى وإن كان الأمر كما تعتقد، وأنهم بالفعل يشقون طريقاً وأنهم ربما تركوا الحصن غارقاً بالدماء ؟ وإن كان الأمر كما تعتقد لعرفت الدولة

بالأمر، إنهم يعرفون ذلك منذ أمدٍ بعيد .

ـ لا تتعامل الدولة أبداً بجدية مع حصن باستياني، ولن يدركوا ذلك حتى يُدَمّر الحصن، ولكن لا يؤمن أحد بهذه الحكايات، ولسوف يتحمسون لذلك ولكن في وقت متأخر بعد أن يفوت الأوان .

كرّر دروغو :

ـ قل ما يحلو لك، ولكن تأكد أنهم لو كانوا يشقون طريقاً لعرفت الدولة بذلك، ذلك أن الدولة عندها معلومات مؤكدة .

ـ الدولة عندها آلاف المعلومات، ولكن من بين هذه الألف ثمة واحدة هي الحقيقية، وهكذا فإنها لا تصدق أحداً، في المحصلة يبدو النقاش عبثياً ولا طائل منه، سوف ترى أنه سوف يحدث كما أقول لك أنا،

كانا وحيديْن، على حافة ممشى دورية الحرس الذين كانوا على مسافة بعيدة، الذين يسيرون هنا وهناك بمواجهة القسم الثابت، حدّق دروغو مرةً أخرى في الشمال، الصخور، الصحراء، الضباب في الأعماق هذا كله بدا له خالياً من أي معنى .

وفي وقت متأخر، علم دروغو وأورتيز أن السر الذي كان يحتفظ به سيموني قد فشا بين الجميع، ولكن لم يأبه به أحد، بل على العكس لقد دهش الكثيرون استغربوا كيف يمكن لشاب جدي مثل سيموني أن يؤمن بهذه الحكايات ومن ثم يذيعها، في تلك الأيام كانت ثمة أشياء كثيرة تستدعي التفكير، كانت عملية التخفيض النوعي تفضي إلى نوع من التشذيب، لذا فقد استمرت القوات المهيأة، وعلى طول حافة الأسوار بالقيام بعدة تجارب بغية الحصول وعبر طرق بسيطة، على خدمة أكثر فعالية مما سبق، كان يجب عليهم الاستغناء عن بعض قوات الحرس وتجهيزها بمعدات حديثة، كان من الضروري إعادة تشكيل الوحدات، ثم تقسيمها من جديد إلى عنابر .

ولأول مرة منذ أن بُنِيَ الحصن أغلقت بعض الأماكن ثم سُدَّتْ نهائياً، كان يتوجب على الخيّاط بروسدوشيمو أن يستغني عن المساعدين الثلاثة، ذلك أنه لم يعد ثمة الكثير مما يمكن إنجازه، وفي كل مرة كان يمكن للمرء أن يدخل إلى غرف أو مكاتب خاوية بشكل تام، وقد جرت إزالة البقع البيضاء من على الأثاث واللوحات .

وقد استمروا يعتبرون النقطة السوداء التي ظهرت عند حدود السهل عبارة عن ضرب من المزاح، البعض قام باستعارة عدسة سيموني المكبرة لينظر من خلالها، وقد أكدوا جميعاً أنهم لم يلاحظوا أي شيء حتى سيموني نفسه، وعندما لم يحمل كلامه على محمل الجد، كان يتجنب الحديث عن هذا الاكتشاف، وبحكمة واضحة انخرط بالضحك، اعتباراً للشكليات .

وفي أحد المساءات ذهب سيموني إلى غرفة دروغو ومن ثم ناداه، كان الليل قد حل وقد تم تبديل الحرس، وكان الفصيل الهزيل قد عاد للتو من المحرس الجديد، وكان الحصن قد تهيأ للحراسة الليلية، إنها ليلة أخرى تمضي بلا فائدة تذكر .

قال سيموني :

ـ تعال وانظر، أنت لا تصدق، تعال وانظر، إما أنني أسيرٌ لوهْمٍ، وإمّا أنني بالفعل ألمح ضوءاً .

ذهبا لإستطلاع الأمر، صعدا حافة الأسوار، على مستوى المحرس الرابع، وفي عمق الظلام أعطاه زميله العدسة المكبرة لكي ينظر فيها،

قال جوفاني :

ـ ولكن العتمة تخيم،ما الذي يمكنك أن تلاحظه في عمق هذه العتمة .

ألح سيمون :

ـ انظر، إني أقول لك، وقد سبق أن قلت لك، لا أريد أن أنخدع أكثر، انظر

إلى المكان الذي أشرت لك إليه في المرةِ السابقة، وقل ماذا يمكنك أن ترى، وضع جوفاني العدسة فوق عينه اليمنى، ثم ثبت أنظاره نحو الشمال الأقصى، ثم شاهد في عمق الديجور ضوءاً، نقطة لا نهائية من الضوء كانت تلمع عند حدود الضباب .

هتف دروغو :

ـ إنه ضوءٌ، ألمح شيئاً صغيراً واضحاً ... ولكن إنتظر (وهو مستمر في وضع العدسة في الدائرة) لا يمكن التمييز فيما إذا كانوا واحداً أو عديدين، في بعض الأحيان يُخَيّلُ لي إنهم اثنان .

قال سيموني منتصراً :

ـ هل رأيت، إذاً أنا المغفل ؟

تمتم دروغو وهو غير مقتنع تماماً :

ـ ولكن ما دَخْلُ هذا بالأمر، ماذا يعني وجودُ ضوءٍ، يمكن أنْ يكون مخيماً لبعض الغجر أو الصيادين .

ـ إنه ضوء المعدات، معدات الطريق الجديد، سترى لاحقاً أنني محق في ذلك، لم يكن من الممكن تمييز الضوء بوساطة العينين، وكان هذا شيئاً غريباً، حتى الحرس (وكانوا جد ماهرين، صيادين شهيرين) لم يكن بإمكانه رؤية أي شيء .

ثبت دروغو العدسة مرةً أخرى، وهو يبحث عن ذلك الضوء البعيد ظل ينظر برهة، ثم رفع العدسة وجعل ينظر النجوم بفضول، كانت تملأ فضاء السماء، أعداد لا حصر لها من النجوم، وكان منظرها جميلاً، لكنها كانت أكثر ندرة في جهة الشرق، ذلك أن القمر كان في سبيله إلى البزوغ وقد سبقه ظهور إضاءة خافتة و غامضة .

نادى دروغو :

ـ سيموني .

لم يكن يرى زميله بجانبه، لكن الآخر رد عليه، ربما كان قد نزل إلى الأسفل عن طريق سلم صغير، وذلك لكي يتفحص حافة السور .

حدق دروغو فيما حوله، لم يكن من الممكن رؤية أي شيء في الظلام اللهم إلا المشي الأجوف للدورية، المنظر الجانبي للتحصينات، الظل الأسود، تناهت إلى مسمعه دقات الساعة، كان الحارس الواقف في أقصى اليمين قد أطلق الصراخ الليلي، ومن جندي إلى آخر سرى الصوت على الجدار، ـ استعداد، استعداد ـ ثم إن النداء ما لبث أن سرى في الاتجاه المعاكس، أو انطفأ عند الصخور الكبيرة، الآن وقد انقسم الحرس إلى قسمين ـ فكّر دروغو ـ كان من الممكن أن ينطلق الصوت بكامله بيقظة أكبر، ولكن على العكس حَلَّ السكون، ثم بغتة خطرت على بال دروغو أفكار حول عالم جميل ومتناءٍ، مثلاً، قصر على شاطئ بحر، في ليلة صيفية رطبة، كائنات رائعة تجلس بجانبه، الإصغاء إلى الموسيقى، صورة عن السعادة التي يفسح الصبا أمامها المجال إلى التأمل بشكل لاعقاب فيه ، ثم الصراخ القصي لبحر الشرق الرائق و الأسود، ثم ما تلبث السماء أن تتشح بالشحوب بسبب الشفق الطالع، حول إمكانية إلقاء الليالي جانباً، هكذا، لا هروب في أثناء الكرى، ليس ثمة خوف من أن يتأخر المرء، يترك الشمس تبزغ، ثم التمتع أمامها بزمان سرمدي، إذ لا ضيق أبداً، وبين أشياء كثيرة وجميلة للعالم، شعر جوفاني بأنه يزداد تشبثاً برغبته في هذا القصر البحري، الموسيقى، إسراف الساعات، انتظار الشفق الذي يثير الألم هذا كله كان يعبر عن عالم أكثر شدة، عالم مملوء بالسلام الذي أضاعه . بالفعل فمنذ مدة يلاحقه قلق ما، دون أن يكون قادراً على فهم مصدره قلق يجري خلفه مبعداً عنه سبل الراحة و الشعور بإضاعة الوقت، وأن شيئاً هاماً قد يحدث فينتشله من الدهشة .

كان الحوار الذي دار بينه وبين الجنرال في المدينة قد خلّف آمالاً ضئيلة في

إمكانية انتقاله إلى مكان آخر، ومهام لامعة، لكّن دروغو قد أدرك أنه لا يمكن أبداً تمضية الحياة برمتها بين أسوار الحصن، آجلاً أم عاجلاً يجب أن يتم إقرار شيء ما، ومن ثم التعود على الإيقاع ذاته، لم يكن دروغو يفكر بالآخرين، بالرفاق الذين غادروا في الوقت المناسب، بالأصدقاء القدامى الذين غدوا الآن أكثر غنى و شهرة، كان يعزي نفسه من خلال رؤيته لباقي الضباط الذين يعيشون مثله في المنفى نفسه دون أن يفكّر أنهم ضعاف أو منتصرون وهو آخر مثال يمكن الاحتذاء به .

ويوماً بعد يوم كان دروغو يؤجل اتخاذ القرار، كان يشعر أنه في المحصلة النهائية مازال شاباً،خمس وعشرون سنة، ولكن ذلك القلق الرهيف كان يطارده بلا هوادة، الآن ثمة حكاية أخرى، إنها حكاية الأضواء المنبعثة من سهل الشمال، ربما كان سيموني محقاً .

عن هذا كانوا يتحدثون باقتضاب في الحصن، وكأنه شيءٌ لا أهمية له ولا علاقة لهم به .

كان وَهْمُ الحرب الضائع جَدٌّ قريب، ومع ذلك لا يوجد من يملك الشجاعة للاعتراف بذلك، كانت رؤية الرفاق وهم يغادرون مازالت طازجة، أما الرفاق الذين بقوا منسيين وهم يصونون هذه الأسوار الخالية من أي معنى، لقد أظهرت عملية تخفيض عدد أفراد الحصن أن الدولة لم تعد تولي أهمية كبرى لحصن باستياني، الوهْم الذي كان يوماً ما سهلاً ومرغوباً به يُدفع الآن بغضب، سيموني الذي لم يكن يرغب بإثارة السخرية منه يصمت الآن .

في المحصلة النهائية، وفي الليالي التي جاءت بعد ذلك، لم تعد الأضواء السرية و الغامضة مرئية، يمكن في أثناء النهار تمييز بعض التحركات في أقصى السهل، كان الميجور ماتّي قد صعد إلى حافة الحصن، يحدوه الفضول إلى ذلك ، وقد اخذ العدسة من سيموني، ولكن عبثاً يحاول تفتيش الصحراء .

قال الميجور مخاطباً سيموني وكانت نبرته تنم عن عدم اكتراث :

ـ خذ عدستك أيها الملازم، ربما كان حَرِيّاً بنا أن لا نستهلك عيوننا من أجل لا شيء، ويمكنك أن تهتم أكثر برجالك، لقد رأيت أحد الحراس بدون راية، إذهبْ لاستطلاع الأمر، إنه هناك في العمق .

كان الملازم مادرنا يرافق الميجور ماتّي، وكان هو الذي روى الحكاية على مائدة الطعام، وقد تصاعدت الضحكات من هنا وهناك، الآن يفكر الجميع بتمضية الوقت بشكل مريح قدر الإمكان، وقد طويت صفحة حكاية الشمال .

إلاّ أنّ سيموني دَأَبَ على تمضية الحوار السري مع دروغو، وبعد أربعة أيام لم تعد الأضواء تُرَى ولا البقع التي تتحرك، ولكن في اليوم الخامس عادت وظهرت من جديد، كان ضباب الشمال ـ كما حاول أن يشرح سيموني ـ كان قد أخذ يزيد أو ينقص من اتساعها وذلك حسب الطقس، والرياح، ودرجات الحرارة، خلال الأيام الأربعة كان يبدو أنها انحدرت نحو الجنوب، وهي تطوي المعدات المزعومة، لم يكن الأمر مجرد ظهور أنوار، ذلك أنه بعد أسبوع افترض سيموني بأنها تتحرك متقدمة باتجاه الحصن، لكن درغو اعترض هذه المرة، إذاً كيف يمكن، وفي عمق الديجور، دون أي نقطة علاّم، استنتاج مثل هذا التحرك، وإنْ كان قد حصل بالفعل ؟

قال سيموني معانداً :

ـ إذاً فأنت وبثقة كاملة، تقرر بأنه كيف يمكن تقريرأنها تتحرك،والظلام مخيّم، أما أنا فعندي أسباب كثيرة تدفعني إلى أن أقرر بأنها تتحرك في حين تفترض أنت بأنها ثابتة، في المحصلة النهائية سوف نرى، أريد أن أراقب في الأيام كلها هذه النقاط التي تتحرك ولسوف ترى أنها رويداً رويداً ستزداد اقتراباً .

في اليوم التالي جعلا يتبادلان العدسة المكبرة، وفي الحقيقة كان يمكن رؤية ثلاث أو أربع بقع صغيرة تتحرك ببطءٍ شديد، وقد كان من الصعب تمييز

حركتها، لذا فقد كان من الضروري اتخاذ نقطتين أو ثلاث كعلامة دالة، ظلال الصخور، حواف الهضبة، وكان يتوجب أيضاً تثبيت المسافات فيما بينها،و بعد بضع دقائق كان يمكن رؤية أن هذه المسافات قد أخذت تتبدل، وهو ما يدل على أنها غيرت مكانها .

كان من المدهش أن يلاحظ سيموني هذه الحركة منذ بدايتها، كما كان من المستبعد التقرير أن هذه الظاهرة تتكرر منذ سنين، منذ قرون أو ربما كان هناك بلدة أو أنه مجرد بئر حيث تقف عنده القوافل، وحتى الآن لم يكن لدى أحد من الحصن عدسة مكبرة كتلك الموجودة عند سيموني، كانت البقعة تتحرك وهي تقترب على المسار نفسه هنا وهناك .

كان سيموني يعتقد أنها عربات نقل تحّمل الحصى و الرمل، الرجال ـ كما كان يقول ـ يبدون متناهيين في الصغر لدرجة أنه كان من غير الممكن رؤيتهم عن ذلك البعد .

في العادة كان يمكن رؤية ثلاث أو أربع نقاط تتحرك معاً، ولنفترض أنها عربات ـ كما كان يظن سيموني ـ فأنها ثلاث عربات تتحرك ومن المفترض أن تكون هناك أيضاً ست منها ثابتة وذلك من أجل التحميل والتفريغ .

لم يكن من الممكن تمييز هذه العربات الست وهي تتواشج مع آلاف البقع الثابتة و التابعة للبلدة، وبالفعل ففي هذا الجزء كانت تعمل عشرات العربات، يجر كل واحد منها أربعة جياد كما يستعمل عادةً في نقل الأشياء الثقيلة، والرجال الذين يحملون و يفرغون يجب أن يكونوا مئة .

هذه الملاحظات التي كانت تتبدى من أجل رهان أو لهو، غدت تشكل عنصراً هاماً من حياة دروغو، مع أن سيموني، وبسبب افتقاده المرح، وبسبب هذه النقاشات المتحذلقة، يكن هذا كله بالنسبة إليه شيئاً لطيفاً، وكان دروغو يرافقه دوماً في أوقات فراغه، وكان هذا يحدث في أثناء المساء في صالة الضباط، كانا

يمضيان ساعات طويلة وحتى ساعة متأخرة وهما منخرطان في النقاش، كان سيموني قد وضع تقديراً للأمر، ألا وهو أنه لو سلمنا أن الأعمال تجري ببطء شديد وأن المسافة أكبر مما هو متوقع، ففي هذه الحالة يلزمهم ستة أشهر كما كان يقول وذلك لكي يقترب الطريق الجديد من أول مدافع الحصن، كما أنه من المحتمل ـ حسبما كان يعتقد ـ أن يكون الأعداء قد توقفوا عند حد قريب يقطع الصحراء طولياً، هذا الحد في العادة يختلط ببقايا السهل بسبب التشابه الكبير في الألوان، ولكن في لحظةٍ ما كان يمكن للمرء تمييزهم عبر ظلال المساء وعبر الضباب، وأن هذا الحد ينحدر باتجاه الشمال، ولم يكن من الممكن معرفة ما إذا كان وعراً أو عميقاً، إذاً فقد تم تجاهل ذلك التخم الصحراوي، الذي كان يقطع النظر بالنسبة لمن يتطلع إليه من المحرس الجديد (من أسوار الموقع، وبسبب الجبال لم يكن من الممكن رؤية هذا الحد) من الحافة العلوية لهذا المنخفض وحتى أقدام الجبال هناك تنهض صخور المحرس الجديد المخروطية، كانت الصحراء تمتد منسجمة ومسطحة، إلا أن بعض الفتحات كانت تقطعها، وتملأها أكوام من الحطام، وحقول قصب صغيرة .

وما إن يصلوا الطريق الجديد مع ذلك الحد ـ حسبما كان يتوقع سيموني ـ فإن الأعداء سيتمكنون دون عقبات من تجاوز التخم المتبقي بقفزة واحدة، مستغلين ليلة غائمة، كانت الأرض هنا صقيلة ومتماسكة لدرجة أنها تسمح للمدفعية بالتقدم وبشكل مطرد .

الشهور الستة المتوقعة ـ يضيف الملازم ـ يمكنها أن تغدو سبعة أو ثمانية أو أكثر بكثير، وذلك حسب الظروف المحيطة، هنا حدد سيموني الأسباب الممكنة للتأخير، إنه أخطأ في تقدير المسافة الكلية المطلوب قطعها، إن وجود وديان أخرى تتوسط المنطقة، هذه الوديان المرئية من المحرس الجديد جعل العمل فيها أكثر صعوبة، إنه بطءٌ متصاعدٌ لعمليات البناء، إنها مجرد تعقيدات ذات طابع

سياسي يمكن أن تشير إلى توقف العمل لفترة محددة، الثلج الذي يمكن ان يشل العمل لمدة شهرين أو عدة أشهر، المطر الذي يمكن أن يجعل السهل موحلاً هذه هي العقبات الرئيسة، كان سيموني يستعرضها الواحدة تلو الأخرى وذلك لكي يظهر في مظهر المحقق في كل شيء .

ثم ماذا لو لم يتضمن الطريق أي عنصر عدائي ؟ كأن يشق مثلاً لأهداف زراعية، من أجل زراعة هذه الأرض القصية التي ما زالت بكراً ومهجورة ؟ أو ماذا لو توقفت هذه الأعمال بعد كيلو مترٍ واحد أو اثنين ؟ هكذا كان يتساءل دروغو .

يخفض سيموني رأسه، وكان يجيب بأن الصحراء مملوءة بالصخور لدرجة أنها لا تسمح بزراعتها، ذلك أن مملكة الشمال كان فيها القليل من المساحات المعشوشبة التي لا تصلح إلا للرعي، فالأرض هنا ملائمة أكثر لمثل هذه المشاريع.

ولكن هل قال أحد إن الغرباء يقومون بالفعل بشق طريق جديدة ؟ كان سيموني يؤكد أن في بعض الأيام الرائقة، وعند الغروب، حيث تمتد الظلال، قد استطاع أن يميز بعض الخطوط المستقيمة التي تدل على عملية رصف الطريق بالحجارة، لكن دروغو لم يكن قد رأى ذلك بعد على الرغم من كل ما بذله من جهد، من يستطيع أن يحلف أن هذا الخط المستقيم لا يمكن أن يكون طينة أرضية ؟ إن حركات هذه النقاط السوداء الصغيرة، وهذه الأنوار التي تشع ليلاً، كل هذا لم يكن أمراً مبتوتاً به، ربما كانت هنا من زمن بعيد، ولم يصدف أن شاهدها أحد في السنين التي خلت لأنها كانت مغطاة بالضباب (هذا عدا عن أن العدسة المكبرة التي كانت في الحصن قديمة وغير كافية لإعطاء رؤية واضحة) .

وفي أحد الأيام، بينما كان دروغو وسيموني منخرطين في النقاش بدأ الثلج يَدِفُّ، كان أول ما فكر به دروغو هو أنه لم ينتهِ الصيف وها قد بدأ الفصل

الرديء، كان يبدو له وكأنه يعود للتو من المدينة، ولم يتسن له الوقت لتنظيم أموره كما كانت سابقاً، ومع أنه كان قد كتب في التقويم /25/ من أيلول إلا أن الشهور كانت قد انصرمت .

كان الثلج الذي تجود به السماء جد غزير، وقد بدأ بالتكوم فوق الشرفات وقد كساها باللون الأبيض، وبينما كان دروغو يحدق فيها تَأَوَّبَهُ مرةً أخرى الشعور بالقلق، وعبثاً حاول إزالة مثل هذا الشعور وهو يعزيّ نفسه بالشباب الذي يتمتع به، بالسنين الطويلة التي مازالت أمامه، كان الوقت يمضي سريعاً، وهو يزدرد الأيام الواحد تلو الأخر، كان يكفيه أن ينظر حوله فهذا الليل قد حل، والشمس استدارت نحو الأسفل ثم ما لبثت أن عادت للظهور كرّةً أخرى من الجهة الثانية وهي تضيء العالم الطافح بالثلج .

لم يكن الآخرون، أي الرفاق، قد تنبهوا إلى ذلك بعد، وهاهم أولاء يمارسون الخدمة المعتادة دون أي حماس يذكر، بل على العكس كانوا يبتهجون عندما يظهر اسم الشهر الجديد، وكأنهم غنموا غنيمة، كانوا يحصون الوقت المتبقي لهم في حصن باستياني، فقد كانت لديهم نقطة للهدف، بغض النظر عن أنها مثيرة للفرح أو عادية، لكنهم كانوا يعرفون كيف يتعاملون معها .

حتى الميجور أورتيز، الذي بلغ الخمسين من العمر كان يشهد بلامبالاة المرور السريع للأيام والشهور، لقد تخلى الآن عن آماله الكبرى وكان يقول " لقد بَقِيَتْ لي عشر سنين أخرى ثم أُحال إلى التقاعد " عندئذ ربما عاد إلى منزله الذي يقع ـ حسبما كان يقول ـ في مدينة قديمة تابعة إلى لإحدى المحافظات حيث يقيم فيها بعض أقاربه، كان دروغو ينظر إليه بلطف، دون أن يقدر على فهمه، ما الذي يمكن أن يفعله أورتيز هناك مع الأثرياء دون أي هدف وهو وحيد ؟

قال الميجور وقد تنبه إلى أفكار دروغو :

ـ لقد استطعت أن أرضي نفسي، لقد تعلمت سنه بعد سنة أن أقنع بالقليل

الممكــن، وإذا مــا ســارت الأمــور معــي بــشكل حــسن، فــإني ســوف أذهب إلى بيتي وقد أصبحت كولونيلاً .

تساءل دروغو :

ـ ثم ماذا بعد ذلك ؟

رد أورتيز مبتسماً :

ـ لا شيء البتة، يكفي، بعد ذلك سأنتظر بعض الوقت، ثم أدفع ما يتوجب علي دفعه،

قال ذلك مازحاً،

ـ ولكن هنا، في الحصن، في هذه السنوات العشر ألا تفكر في...

ـ الحرب ؟ هل مازلت تفكر بالحرب ؟ لقد نالنا من جرّاء ذلك ما تلقيناه فوق سهل الشمال، عند حدود الضباب الثابت، لم يكن من الممكن رؤية ما يثير الشكوك، حتى النور الليلي كان قد انطفأ، وكان سيموني راضياً كل الرضى عن ذلك، إن ذلك يعني أنه كان محقاً فيما يقول، لم يكن الأمر متعلقاً ببلدة ما أو بغجر، إنما بعض الأعمال وقد عطلها الآن نديف الثلج .

- XXIII -

كان الشتاء قد خيّم على الحصن منذ بضعة أيام، ووُجِدَتْ كتابةٌ غريبةٌ كأمرٍ إداري يومي وقد عُلِّقَتْ من إحدى أطرافها على أحد الأسوار كانت تقول "إنذار مثير للأسف" إستناداً إلى التنظيم الدقيق للقائد الأعلى أدعو صف الضباط والرتب جميعها، والجنود إلى عدم تصديق تلك الإشاعات الزائفة، إن تكررت، وإشاعة دعوات إنذار خالية من أي أساس، تشير إلى تهديدات أو اعتداء على حدودنا، هذه الدعوات عدا عن أنها غير صحيحة لأسباب مبدئية واضحة وجلية، يمكنها أن تثير بعض الاضطراب في علاقتنا مع الدولة المجاورة، ومن ثم إشاعة البلبلة وحالة من التوتر بين فرق الجيوش، وهو ما يخل بعملية سير الخدمة، أرغب في أن نظل يقظين وأن تؤدّى الحراسة بالطرق المألوفة، وأن لا يتم اللجوء إلى استخدام أدوات بصرية غير منسجمة مع القواعد والنظم وهي أدوات قد اسُتْعملتْ دائماً دون تَبَصُّرٍ، إنها ببساطة تفسح المجال أمام ارتكاب أخطاء وتأويلات زائفة، وعلى من يملك هذه الأدوات أن يعلن عنها وأن يسجلها في الأقسام التابعة للقائد، الذي سيلجأ إلى مصادرة مثل هذه الأدوات وحفظها لديه " .

وتمت متابعة الترتيبات المعتادة بالنسبة لأعمال دورية الحراسة اليومية، وختم هذا القرار بختم القائد المقدم نيكولوزي .

وكان واضحاً أن الأمر الإداري، الموجه في الظاهر إلى الحامية يعني في الحقيقة الضباط بشكل خاص، لقد حقق نيكولوزي في الحقيقة بهذه الطريقة هدفين أولهما هو عدم الإشارة إلى شخص ما بعينه ومن ثم إشاعة هذا القرار في داخل

الحصن، وبالتأكيد لم يعد بإمكان أي من الضباط أن يظهر أمام الجنود وهو يستخدم منظاراً مكبراً إذ يعتبر استعماله ـ بغرض مراقبة الصحراء ـ خروجاً على النظم المألوفة، وكانت الأدوات المستعملة من قبل المحارس المختلفة جد قديمة ومتخلفة، علمياً ولم تكن صالحة للاستعمال وقد فُقِدَ أحدها .

من هو الواشي ؟ من الذي أعلم القائد الأعلى هناك في المدينة ؟ كان الجميع يفكّر غريزياً بماتّي، إنه الوحيد الذي من الممكن أن يقوم بفعل ذلك، حاملاً بيده دوماً النظام الداخلي وذلك بقصد خنق أي شيء محبب، وأي أمل شخصي .

بشكل عام كان الضباط يضحكون من جرّاء ذلك، القائد الأعلى ـ حسبما كانوا يصرّحونَ به ـ لم يجانب الصواب رغم أنه كان قد وصل إلى هذا القراربعد سنين من التأخير، من الذي كان يفكر بهجوم محتمل من جهة الشمال ؟ آه، أجل، سيموني ودروغو (كان الجميع قد نسوهما تماماً) ثم إنه كان من غير المعقول الاعتقاد بأن هذا الأمر الإداري موجه بالتأكيد إلى هذين الإثنين، شاب طيب مثل دروغو ـ كان الجميع يؤكد أنه ـ لم يكن ليهدد أحداً وإن أمضى الوقت كله حاملاً المنظار في يده،والشيء نفسه يخص سيموني و أنه لا ضرر منه.

لكن جوفاني كان يملك تأكيداً غريزياً بأن الأمر يتعلق به شخصياً، وهكذا تبدو الحياة وكأنها تحمل في طياتها المزيد من المتاعب، أي ضرر يمكن أن يأتي عن مكوثه بضع ساعات وهو يراقب الصحراء ؟ لماذا يجب وأد مثل هذا العزاء ؟ ثم ما يلبث أن ينمو في داخله غضب شديد وهو يفكّر بهذه الطريقة، كان قد هيأ نفسه لاستقبال الربيع، ذلك أنه ما ما أن يذوب الثلج ـ حسبما كان يفكّر ـ فربما عاد الضوء الغامض يظهر في أقصى الشمال، وربما أخذت بالتحرك هنا وهناك تلك البقع السوداء الصغيرة، وربما تولدت من جديد لديه الثقة .

لقد كانت حياته العاطفية كلها قد تمركزت في هذا الأمل، ولم يكن يشاركه به أحد سوى سيموني، الآن لم يعد يفكر الآخرون بهذا الأمر، حتى أورتيز وحتى

الخياط برودسدوشيمو، إذاً فقد كان شيئاً جميلاً، أن يغذيا معاً بكل حماسٍ هذا السر، ولم يعد الأمر كما كان في السابق، قبل أن يموت أنغوستينا ، عندما كان الجميع يبدون وكأنهم مثيرون، يصحبهم نوع من المناقشة الشرهة .

ولكن الآن وقد مُنع من استخدام المنظار، فربما كان سيموني وهو دقيق ومتوجس بطبعه قد فقد الثقة باستخدامه له، حتى لو أضيء النور مرةً أخرى في قلب الضباب الثابت، حتى وإن عادت تلك البقع الصغيرة تروح وتجيء .

لم يعد بإمكان الآخرين أن يشاهدوا شيئاً، ذلك أنه لا أحد يمكنه أن يرأها بالعين المجردة، وإن كان أفضل الحراس، وهم صيادون ممتازون لدرجة أنهم كانوا قادرين على رؤية غراب من على بعد كيلو متر واحد، كان دروغو في ذلك اليوم متلهفاً لسماع وجهة نظر سيموني ولكنه أنتظر حلول المساء، وكي لا يثير انتباه أحد، ذلك أنه ربما ذهب أحد ليشي به بشكل مباشر، حتى أن سيموني نفسه لم يأتِ لتناول طعام الغداء، و لم يلمحه جوفاني في أي مكان .

ولكن سيموني وصل متأخراً على مائدة الغداء على غير عادته، كان دروغو قد بدأ للتو بتناول طعامه، تناول سيموني طعامه بسرعة ثم نهض قبل دروغو وركض باتجاه طاولة اللعب، هل كان يخشى البقاء وحيداً بصحبة دروغو ؟ في ذلك المساء لم يكن قد خرج أحد من الاثنين للخدمة، كان جوفاني جالساً على أريكة بمحاذاة باب الصالة لكي يصادف زميله وهو خارج، وقد لاحظ أن سيموني كان يتجنب رؤيته في أثناء اللعب، وكان يتهرب من لقائه .

ظل سيموني يلعب حتى ساعة متأخرة على خلاف ما جرت عليه عادته، كما لم يحدث أن فعل ذلك أبداً، وهو ما ينفك يلقي بنظراته نحو الباب، وهو يأمل أن يضيق دروغو من انتظاره، في النهاية، وعندما خرج الجميع، كان يتوجب عليه هو النهوض أيضا والتوجه إلى الباب، وهناك صادف دروغو .

قال سيموني وهو يبتسم ابتسامة حائرة :

ـ مرحباً يا دروغو، لم أرك قط، أين كنت ؟

كانا يقفان في أحد الممرات الأكثر شحوباً التي تخترق الحصن طولياً، قال دروغو :

ـ لقد كنت اقرأ، ولكني لم أنتبه إلى أن الوقت قد غدا متأخراً بهذا الشكل .

سارا قليلاً صامتين، وكانت أضواء المشكاة تنعكس على الجدارين المتقابلين، كان الضباط قد ابتعدوا، وكان يمكن سماع أصواتهم المختلطة وهي تتناهى من خلال الظلال البعيدة، كانت ليلة مظلمة وباردة،

وفجأةً قال دروغو :

ـ هل قرأت الأمر الإداري ؟ هل سمعت بقصة الإنذارات المزيفة ؟ من يدري لماذا ومن عساه يكون الواشي ؟

رد سيموني بفظاظة وهو يتوقف عند مدخل إحدى الصالات التي تقود إلى الأعلى :

ـ وكيف يتأتى لي معرفة ذلك، هل تصعد في هذا الاتجاه ؟

ألح دروغو :

ـ والمنظار ؟ لم يعد من الممكن البتة استخدام منظارك ؟ على الأقل .

قاطعه سيموني :

ـ لقد سلمته إلى القائد، يبدو أن هذا أفضل من الاحتفاظ به .

ـ كان بإمكانك أن تنتظر، حسبما يبدو لي، ذلك أنه بعد ثلاثة أشهر سيذوب الثلج، ولن يخطر على بال أحد أن يتنبه إلى وجوده معك، بعد ذلك علينا العودة إلى للتحديق بوساطته، الطريق الذي كنت تتحدث عنه كيف سنتمكن من رؤيته دون منظارك ؟

رد سيموني وقد طغى الأسف على نبرته .

ـ آه، الطريق، لقد توصلت إلى قناعة بأنك كنت محقاً .

ـ إني كنت محقاً ؟ كيف ؟

ـ بأنه لا يقومون بشق أي طريق، ولا يتعدى الأمر أن يكون سوى تلك البلدة أو مخيم الغجر كما كنت تتحدث أنت.

إذاً هل تملّك سيموني خوف كبير لدرجة أنه أنكر كل شيء ؟ أن خوفه من افتضاح أمره دفعه إلى حالة من فقدان الثقة حتى بدروغو نفسه، حدّق دروغو في وجه زميله، كان الممر خالياً تماماً، ولم يكن يسمع أي صوت، وكان ظلا الضابطين ينعكسان بشكل غامض من جهةٍ إلى أخرى، كان الظلان متماوجين .

تساءل دروغو :

ـ إذاً فأنت تقول إنك لم تعد تعتقد بذلك أبداً ؟ هل تؤمن بجد أنك كنت مخطئاً ؟ إذاً وكل الحسابات التي كنت تقوم بها ؟

رد سيموني وهو يحاول أن يحيل كل شيء إلى مجرد مزاح :

ـ على كُلٍّ كنا نحاول تزجية الوقت، لم أكن أبداً جاداً فيما كنت أقول .

قال دروغو بصوت سيئ :

ـ إنك خائف، قل الحقيقة، لقد كان الأمر الإداري هو السبب وراء ما تقوله الآن، قل الحقيقة، الآن لم تعد تثق حتى بي،

أجاب سيموني :

ـ ما الذي دهاك هذا المساء، لست على دراية كافية بما تروم الوصول إليه، لم يعد من الممكن المزاح معك أبداً، هكذا الأمر إذاً، إنك تأخذ كل شيء على محمل الجد، تبدو طفلاً .

صمت دروغو مكتفياً بالتحديق فيه، ظلا لبرهة ثابتين في الممر الكئيب، لكن الصمت كان طاغياً .

ختم سيموني الحديث قائلاً :

ـ حسناً، سأذهب إلى النوم، تصبح على خير .

ثم صعد السلالم، كانت هي الأخرى مضاءةً بمشكاةٍ باهتـةٍ، صـعد سيموني المستراح الأول ثم اختفى خلف الزاوية، كان يمكن رؤية ظله وحسب وقد ارتسم على الجدار، ثم ما لبث أن اختفى الظل أيضاً .

قال دروغو في سره :

- أيتها الدودة .

- XXIV -

في كل الأحوال، كان الوقت يمضي، دقاته الصامتة كانت تطغى بشكل جد سريع على الحياة، لم يكن من الممكن التوقف وإنْ لبرهة، ولا لمجرد إلقاء نظرة إلى الوراء،" توقف، توقف " كان يحب الصراخ، ولكن كان يعلم أن هذا بلا طائل، كل شيء يفر الرجال،الفصول، الغيوم، و لم يعد مجدياً التشبث بالصخور، أو المقاومة في أعلى القمة متشبثاً بصخرة ناتئة، تفتح الأصابع المتعبة، يرتخي الساعدان بخمول، يجرفهما تيار النهر الذي يبدو بطيئاً لكنه لا يتوقف أبداً .

كان دروغو يشعر يوماً بعد آخر بهذا التدمير الغامض، و عبثاً يحاول إيقافه، كان يشعر أنه يفتقد إلى نقاط علاّمٍ في انسجام الحصن، وكانت الساعات تفر قبل أن يتمكن من إحصائها .

ثم كان ذلك الأمل الذي صار ـ حسبما يرى دروغو ـ يبدو القسم الأجمل من الحياة، و من أجل تغذية هذا الأمل كان يضحي بهدوء الشهور التي لم تكن تكفي أبداً، الشتاء، شتاء الحصن الطويل، لم يكن سوى شيء يشبه العربون و دروغو مازال ينتظر، كان يفكر أنه ما إن يحل الفصل الجميل حتى يعود الغرباء إلى مباشرة العمل من أجل إتمام الطريق، لكنه كان قد فقد منظار سيموني الذي يسمح له برؤيتهم .

على كلٍ، مع استمرار الأعمال ـ و من يدري كم يتطلب ذلك ـ فأن الغرباء سوف يقتربون أكثر، ويوماً ما سوف يكون من الممكن رؤيتهم عبر المناظير القديمة التي ظل مسموحاً استخدامها في أثناء فترات الخدمة .

ولكن لم يعد دروغو يعوّل على الربيع من أجل وضع حد نهائي لانتظاره، ولكن على مبعدة أشهر هناك، مفترضاً سلفاً أن فكرة قيامهم بشق طريق ما تزال في الحسبان كشيء حقيقي، وكان يتوجب عليه أن يحتضن هذه الأفكار بسرية

تامة، ذلك لأن سيموني كان خائفاً من إثارة المشاكل، ولم يعد راغباً في معرفة المزيد عن هذا الأمر، وإلا لسخر منه الرفاق، كما أن ذوي الرتب العليا لم يعودوا يصدقون تخيلات من هذا النوع .

في بداية أيار عندما غدا السهل مرئياً بواسطة المناظير الموضوعة في الخدمة، لم يفلح جوفاني في ملاحظة أي مظهر من مظاهر النشاط الآدمي، ولا حتى أنوار الليل، على الرغم من أنه كان يمكن رؤية النيران بسهولة وعلى مسافات غير محددة، ورويداً رويداً أخذت الثقة تنتهك، ومن الصعب البحث في أمرٍ ما هكذا عندما يكون المرء وحيداً، لا سيما أنه لا يمكن التحدث عن ذلك إلى أي شخص، بالضبط في هذا الوقت تنبه دروغو، كالآخرين الذين ينأون بأنفسهم بعيداً إذا أرادوا العيش بسلام وإذا ما صدف وتألم أحد منهم فإنه يظل في المحصلة النهائية ألمه هو بالذات، ولا يمكن لأي مخلوق آخر أن يقاسمه جزءاً منه وإنْ كان ضئيلاً، فإذا عانى من شيء فإنّ الآخرين لا يشعرون بأي سوء من ذلك، وإنْ كان الحب كبيراً وهذا ما كان يثير فيه الشعور بالوحدة .

لقد بدأت الثقة تتعب، وينمو بالتالي فقدان الصبر، وكان دروغو يشعر بأن دقات الساعة قد غدت أكثر غموضاً، وقد حدث أن ترك بعض الأيام تمر دون أن يلقي حتى مجرد نظرة على الشمال (وإنْ استمر في خداع نفسه في بعض الأحيان، قائلاً وهو متحمس إنّ هذا كان مجرد سهو، لكن الأمر في الحقيقة كان عكس ذلك، من أجل امتلاك أي أمل بأن يكون هذا مجرد حظ) .

أخيراً، وفي أحد المساءات ـ وكم تطلب ذلك من الوقت ـ برزت بقعة ضوء صغيرة جداً ومرتجفة، كان يمكن رؤيتها عبر المنظار، ضوء واهن كان يبدو أنه يرمش محتضراً .

ولابد أن يكون ضوء باهراً إذا ما أخذنا في الإعتبارفرق المسافة .

كانت ليلة السابع من تموز، وسيظل دروغو لسنين طويلة يذكر ذلك الفرح

الذي غمر روحه، وتلك الرغبة في الجري وإخطار الجميع، وذلك التعب المتفاخر الذي نشأ عن عدم قدرته على البوح بذلك إلى أيٍّ كان بسبب الخوف الوهمي من أن يتلاشى الضوء، في كل ليلة، ومن على حافة السور كان دروغو يقف منتظراً، وفي كل ليلة كان يبدو الضوء يقترب قليلاً ويغدو أكبر من ذي قبل، لمرات عديدة كان يمكن اعتبار ذلك مجرد خداع نشأ عن رغبة، ولكن في مرات عديدة كان يبدو أنه تقدم فعلي، حتى جاء الوقت الذي استطاع فيه أحد الحرس رؤيته بعين مجردة .

ثم إنه بدأ يظهر حتى في أثناء النهار، في العمق الأبيض للصحراء كان عبارة عن حركة لنقاط صغيرة سوداء، هكذا كما كانوا من ذي قبل، لكن المنظار الآن غدا أقل فعالية، لإنَّ الغرباء أمسوا جد قريبين .

في، أيلول، برز واضحاً ضوء الآلات المزعومة، وفي الليالي الصافية كان يشاهدها بوضوح بوساطة العين المجردة، ورويداً رويداً بدا يسري بين الجنود حديث عن سهل الشمال، عن الغرباء، عن تلك الحركات الغريبة، وعن تلك الأنوار الليلية، وقد قال الكثيرون إنه طريق، على الرغم من أنهم لم يكونوا قادرين على تحديد الهدف، أما فرضية أن يكون هذا عملاًعسكرياً فقد بدت غير معقولة، في المحصلة النهائية كانت الأعمال تنجز ببطء شديد قياساً إلى تلك المسافة الشاسعة التي تبقت .

ثم تناهي إلى الأسماع من يتحدث بِنُذُرٍ غامضة عن حرب، ومن ثم بدت تحوم بين أسوار الحصن آمال غريبة .

ثمة وتد مغروس عند حافة المنطقة التـي تُقِدُّ طولياً سـهل الشمال، كـان يبعد حوالي الكيلو متر الواحد عن الحصن، هنـاك حيث الـصخور مخروطيـة الشكل، وحيث تمتد الصحراء متشابهة و متماسكة، وهذا ما كان يسمح لقاذفي المدفعيـة أن يتحركـوا بـشكل حرّ، كـان هذا الوتـد ملتـصقاً إلـى الحافـة العلويـة للمنخفض، كـان عبارة عن مؤشر إنساني فريـد، وكـان يمكـن رؤيتـه بـشكل حيد، بـالعين المجـردة، ومن أقصى المحرس الجديد .

لقد وصل الغرباء وهم يشقون الطريق إلى ذلـك المكـان، أخيـراً لقد تـم إنجـاز هذا العمل الكبير، ولكن كم كان باهظ الثمن، لقد استطاع المـلازم سيمونـي التكهن بهذا، لقد قال هذا منذ ستة أشهر، ولكن هذه الأشـهر الستة لم تكـن كافيـة مـن أجـل إنجاز الطريق، لا ستة ولا ثمانية ولا عشرة،

أما الآن فقد تم شق الطريق .

وغدا من الممكن لقافلة الأعداء أن تنحدر من الشمال مـن أجـل الوصـول إلـى الحـصن، بعـد ذلـك لا يبقـى سـوى مـسألة عبـور القسم الأخيـر، بـضع مئـات مـن الأمتار، على أرض ملساء ويسيرة، ولكن هذا كله كان قد كلـف غاليـاً، لقد تطلـب الأمر خمس عشرة سنة، خمس عشرة سنة مرت وكأن الأمر مجرد حلم .

وعندما يحدق المرء فيمـا حولـه يجـد أن لا شـيء قد تغير، لقد ظلت الجبـال نفسها، وعلـى أسـوار الحـصن كـان يمكـن رؤيـة البقـع نفسها، صـحراء التتـار هـي نفسها إذا ما استثنينا ذلك الوتد الأسود المغروس عند حافـة المنطقـة، وذلـك الخـط المستقيم الذي يظهر أو يختفي حسب الضوء، إنها الطريق الجديدة .

خمس عشرة سنة كانت تمثل أقل من لا شيء بالنسبة للجبال، وبالنـسبة لـدعائم الحـصن لـم تكـن تـؤثر فـي شـيء منهـا، لكنهـا بالنـسبة للرجـال كانـت تمثـل

مسيرة طويلة، مع أنهم لم يفهموا كيف مرت بهذه السرعة، الوجوه هي دائماً الوجوه نفسها، حتى العادات لم تكن قد تغيرت، ولا نوبات الحراسة، ولا حوارات الضباط التي كانت تجري في المساءات .

ومع ذلك فإن مجرد النظر من قريب إلى هذه الوجوه يمكن للمرء أن يلمح أثر السنين، ثم إن الموقع العسكري كان قد خفض عدد عناصره، أقسام طويلة من الحصن لم تعد تحرس، وهذا كان يتم دون كلمة سر، لقد تم توزيع الحرس على النقاط الأكثر أهمية، ثم إنهم قرروا أخيراً إلغاء المحرس الجديد، ومن ثم إرسال حشد صغيرمن الجنود من أجل تفقد المنطقة كل خمسة عشر يوماً حتى القائد الأعلى لحصن باستياني غدا أقل أهمية من ذي قبل .

إذاً لم تأخذ الدولة عملية شق الطريق في السهل على محمل الجد، البعض يقول إنها عملية عدم تطابق وجهات النظر في القيادة العسكرية، البعض الآخر يصرح بأنهم لايملكون معلومات كافية في العاصمة،بالطبع يمكن استنتاج أن الطريق لم يكن لها أي هدف تقدمي، وفي المحصلة النهائية لم يكن هناك شروح كافية، ذلك لأنهم لم يكونوا يعتقدون بأهمية ذلك .

ثم إن الحياة داخل الحصن بقيت دوماً وحيدة النغم وجد منعزلة، المقدم نيكولوزي والميجور ماتّي كانوا قد أحيلوا إلى التقاعد، الآن لقد أُسْنِدَتْ قيادة الموقع العسكري إلى المقدم أورتيز وكان الجميع قد ترقى باستثناء الخياط بروسدوشيمو .

في إحدى صباحات أيلول الجميلة كان دروغو، الكابتن جوفاني دروغو، قد صعد بجوار الطريق الوعر الذي يصل السهل بحصن باستياني، كان قد حصل على إجازة مدتها خمسة عشر يوماً ثم ما لبث أن عاد، كانت المدينة قد غدت غريبة عنه بشكل مطلق، لقد شق الأصدقاء القدامى طريقهم، احتلوا مراكز هامة وكانوا يحيونه على عجل كما لو أنه مجرد ضابط عادي، حتى منزله الذي ظل

دروغو يحمل له كل الحب، يغذي روحه في كل مرة يأتي لزيارته، الآن لقد غدا المنزل صَقْصَفَاً، غرفة الأم خاوية على الدوام، الأخوة يذهبون هنا وهناك، أحدهم قد تزوج وقطن في مدينةٍ أخرى، الآخر مازال مستمراً في تطوافه ورحلاته، لم يعد من الممكن رؤية علائم عائلية في البيت، الأصوات ترن بشكل مفرط، ولم يكن قد تم فتح النافذة لتدخل الشمس بشكلٍ كاف .

هكذا كان دروغو يصعد طريق الحصن وقد خسر خمس عشرة سنة من عمره، بكل أسف ولم يكن يحس بأنه قد تغير كثيراً، لقد فرّ الزمان بشكل سريع، والروح لم تكن قد تقدمت في العمر بعد، ذلك لأن النشوة الغامضة للساعات التي تمر أخذت تكبر، كان دروغو مقتنعاً بوهم مفاده أن الأشياء المهمة تكاد تبدأ للتو، كان جوفاني ينتظر بصبر ساعته التي لم تحن بعد، ولم يخطر على باله أن الزمان كان قد انكمش بشكل مريع، ولم يعد كما كان يوماً ما حيث كان يبدو كأنه مجرد مرحلة طويلة، وأنه تمنى أن لا ينضب، لأنّهُ لا يمكن المغامرة بتبذيره .

ثم تنبه في أحد الأيام إلى أنه لم يقم منذ زمنٍ طويل برحلةٍ على ظهر الجواد إلى السهل الواقع خلف الحصن، بل إنه تنبه إلى وجود حالة من فقدان الرغبة بذلك وأنه في الأشهر الأخيرة (من يدري منذ متى بالضبط ؟) لم يعد يمارس رياضة السباق فوق السلالم يقفزها،اثنين، اثنين، هذه ترّهات، أحس دروغو أنه لم يتغير من الناحية الجسمانية وأن كل شيء في سبيله إلى أن يبدأ، لم يكن أبداً في شك في ذلك، وأن أية محاولة للتأكد من صحة هذا، محاولة تجريبية ستكون بلا طائل بل ومثيرة للسخرية، لا لم يكن وضع دروغو الجسماني قد ساء، إنه قادر على القيام بنزهة على ظهر الجواد، كما أنه قادر على ممارسة رياضة الركض على السلالم بشكل جيد ولكن لم يكن هذا هو المهم، ذلك أن الشيء الخطير كان هو فقدانه الرغبة في القيام بذلك، وأنه قد أخذ يفضل أن يغفو قليلاً تحت الشمس بعد وجبة إفطار بدلاً من أن يدور هنا وهناك على حصباء السهل، وهذا هو المهم،

ذلك أنه الشيء الوحيد الذي يشير إلى تقدم الزمن .

أوه، لو أنه كان قد تنبه إلى ذلك قبلاً، كانت هذه الليلة هي الأولى التي يصعد فيها السلالم درجةً، درجةً، أجل، كان يحس بالغضب، كان يشعر بدُوارٍ في رأسه، ولم تكن لديه أدنى رغبة في ممارسة هواية اللعب بالورق كما تعوّد أن يفعل (وقد صدف له في السابق أن رفض الركض على السلالم بسبب إحساسه بوعكة طارئة) لم يَنْتَبْهُ ذلك الشك البعيد بأن هذه الليلة قد تكون جد حزينة بالنسبة إليه، صاعداً تلك الدرجات في هذه الساعة بالذات، الآن صار يشعر بأن الشباب قد ولّى الأدبار، وأنه في اليوم التالي لن يكون قادراً على العودة إلى النظام القديم لأي سبب من الأسباب ولا بعد غد، ولا بعد ذلك، بل وإلى الأبد، وبينما كان دروغو يتأمل وهو على ظهر الجواد، وتحت ضوء الشمس صاعداً الطريق الوعرة على حين كانت البهجة متعبة بعض الشيء، تسير ببطء، سمع صوتاً يناديه من الجانب الآخر للوادي .

ـ سيدي الكابتن .

سمع صوتاً يناديه، فالتفت إلى الجانب الآخر من الطريق، وبالتحديد الجهة الأخرى للوادي السحيق، لاح له ضابط شاب يمتطي صهوة جواد، لم يتعرف عليه ولكنه ميز رتبة الملازم على كتفيه، وقد خطر بباله أنه ربما يكون ضابطاً آخر من الحصن في طريق عودته بعد أن أنهى مثله إجازته .

ـ ماذا هنالك ؟

تساءل جوفاني وهو يقف بعد أن رد التحية النظامية للآخر ما الذي دفع هذا الملازم إلى مناداته . بهذا الشكل المفرط في اللباقة .

ولمّا لم يجبه الآخر، كرر دروغو نداءه بصوت مسموع هذه المرة .

ـ ماذا هنالك ؟

منتصباً على سرج الجواد، رفع الضابط الغامض كفه على فمه ثم نادى بكل

ما أوتي من قوة :

ـ لا شيء كنت أرغب في تحيتك .

بدت هذه الإجابة بالنسبة إلى جوفاني سَاذجة للغاية، بل بدت كأنها نوع من الإساءة .

حيث جعلته يفكر بأن الأمر مجرد مزاح، ثم مرت نصف ساعة أخرى، وعندما وصل الإثنان إلى الجسر حيث يلتقي الطريقان، ماهو الداعي إلى هذا الإفراط البرجوازي ؟

هتف دروغو :

ـ من أنت ؟

ـ الملازم مورو .

كانت هذه إجابته، وقد خُيِّلَ إلى الكابتن أنه يسمع هذه الإجابة، الملازم مورو ؟ تساءل في سره، هذا الاسم غير موجود في الحصن البتة، ربما كان ضابطاً جديداً يلتحق بالخدمة للتو ؟ فقط في هذه اللحظة أحس بأنه قد أصيب بصدمة، كان لهذا دويٌّ مؤلم وقد أصاب روحه، لقد تذكر ذلك اليوم البعيد، الذي كان ينهج فيه صوب الحصن للمرة الأولى وقد التقى فيه بالكابتن أورتيز، بالضبط في النقطة نفسها من الوادي تذكر ذلك القلق الذي أنتابه وهو يتحدث إلى صديق له، ذلك الحوار المثير للحيرة عبر الهاوية، أنه بالضبط مثل ذلك اليوم، هكذا كان يفكّر، الفرق هو أنه الآن يتم تبادل الأدوار أنه الآن هو، دروغو الكابتن العجوز الذي يعتسف الطريق صاعداً للمرة المائة متجهاً صوب حصن باستياني، بينما كان الضابط الجديد هو مورو، أي مورو، شخص مجهول، لقد فهم دروغو كيف أن جيلاً جديداً قد نشأ في هذه الفترة الطويلة لقد شعر وكأنه قادم من وراء قمة الحياة، من قسم العجائز، لقد تجاوز سنه الأربعين دون أن يقوم بفعل أي شيء ذي أهمية، دون أطفال، أنه بحق وحيد في هذا العالم، حدق جوفاني فيما حوله بجزع

وهو يشعر بأن قَدَرَهُ قد أفل .

شاهد صخوراً وقد اكتست بقشرة من النباتات، قنوات رطبة، قمماً عارية وعالية تناطح كبد السماء، الجمود الذي يكتسي به وجه الجبال وفي الجانب الآخر من الوادي ذلك الملازم الجديد، وقد غادرخجلاً منزله المألوف، ولربما كان يعزيه وَهْمٌ، أنه لن يمكث في الحصن سوى بضعة أشهر، وكيف أنه كان يحلم بمهمات براقة ولامعة، بفخر عسكري، بحب رومانتيكي .

ضرب بيده عنان الجواد، ثم استدار برأسه نحو الخلف بِحُنُوٍّ، لكنه لم يكن ـ بالتأكيد ـ يفهم شيئاً، ثمة غَصَّةٌ تضغط على قلب دروغو، وداعاً يا أحلام ذلك الزمان الغابر، وداعاً يا أشياء الحياة الحلوة، الشمس تسطع بشفافية وهي تكاد تعطف على البشر، ثمة نسمة هواء منعشة تصّاعد من أعماق الوادي، المروج تبث روائح عطرة، سقسقة عصافير تصاحب موسيقا قيثارة، إنه يوم سعادة بالنسبة للرجال، هكذا كان يفكّر دروغو وهو مندهش من عدم وجود فَرْقٍ في الظاهر بين هذه، وبعض صباحات صباه المذهلة، استأنف الجواد سيره، وبعد نصف ساعة لمح دروغو الجسر الذي يصل بين الطريقين فكّر بأنه بعد لحظة سوف ينخرط في حوار مع الملازم الجديد، وكان يشعر بألم مُمِضٍّ .

كيف انتهت أعمال شق الطريق وغادر الغرباء ؟ كيف أمكن لرجالٍ، وجيادٍ، وعرباتٍ، أن يصعدوا السهل الفسيح حتى انتهوا إلى ضباب الشمال ؟ هذا العمل، هل يهدف إلى لاشيء ؟ لقد كان من الممكن مشاهدة الفرق المختصة بتسوية الأرض وهي تبتعد الواحدة تلو الأخرى حتى غَدَتْ مجرد نقاط ضئيلة لا يمكن رؤيتها إلا عبر المنظار، كما حدث منذ خمس عشرة سنة خلت، لقد فتح الطريق أمام الجنود، ربما تقدم مسلحون الآن، واقتحموا حصن باستياني .

على العكس من ذلك لم يُشاهدْ المسلحون وهم يتقدمون، وعَبْرَ صحراء التتار لم يكن ممكناً مشاهدة أكثر من شريط هو أثر الطريق، شريط هو عبارة عن مؤشر فريد على التنائي القديم للنظام البشري، لم يهاجم المسلحون، لقد بدا وكأن كل شيء قد ترك في وضعية الشك ومن يدري كم سيدوم ذلك، وهكذا ظل السهل ثابتاً لا يريم، ظل ضباب الشمال ثابتاً ظلت الحياة النظامية في الحصن في حال توقف و جمود، مازال الحرس يكررون الخطوات نفسها من هذه النقطة إلى تلك وهم يسيرون قائمين بأعمال الدورية، الزمر العسكرية نفسها، يوم شبيه بآخر يتكرر بشكل لا نهائي، وكأنه جندي يشير إلى الخطوة، ومع ذلك كان الزمان يلهث دون أن يكترث بالرجال، كان يمر هنا وهناك وهو يقهر الأشياء الجميلة ودون أن يتمكن أحد من الفرار منه، حتى الأطفال الذين ولدوا للتو قبل أن تُعرف أسماؤهم، حتى وجه جوفاني بدأ يتغضّن، الشعر غدا رمادياً، الخطوة أقل رشاقة، الآن لقد قذفه تيار الحياة الجارف باتجاه أطراف الدوامة، ومع ذلك لم يكن قد بلغ الخمسين من عمره، بالطبع فأن دروغو لم يعد يقوم بنوبات الحراسة، بل إنه يملك الآن مكتباً خاصاً للقائد، مكتباً مجاوراً للمقدم أورتيز، وعندما يهبط الظلام، لم يكن عدد الجنود الضئيل كافياً لمنع الليل من أن يهيمن على الحصن، أقسام كثيرة من

السور تُرِكَتْ دون حراسة، و من هناك كانت تدلف أفكار الظلام .

يغمرنا الشعور بالحزن لأننا وحيدون، كان الحصن القديم ـ بالفعل ـ أشبه بجزيرة تائهة، تحيط به مساحات شاسعة وخاوية، كانت الجبال رَاسِيَةً إلى اليمين وإلى اليسار، على حين كان الوادي المهجور يقع في الجنوب، وفي الجهة الأخرى يقوم سهل التتار، صخب غريب كما لم يحدث أبداً، كان يرن في الساعات المتأخرة، عبر متاهات الدعامات، على حين كان يدق قلب الحرس، ومن طرف السور إلى أقصاه يهرع الصراخ " استعداد، استعداد " لكن الجنود كانوا يحسون بمشقة إيصال الصراخ، ذلك أن المسافات بينهم كانت قد تباعدت، كان دروغو يعاين في تلك الأيام الأعراض الأولى للضيق والتبرم التي كانت تعتري الملازم مورو وكأنه إعادة إنتاج باردة لصباه هو، حتى مورو كان من حيث المبدأ مذهولاً، كان قد هرع إلى الميجور سيموني الذي حل محل ماتّي، كان يأمل أن يبقى أربعة أشهر فقط، لكنه انتهى إلى حالة من المخاتلة والخداع، حتى مورو كان يحدق بإلحاح في سهل الشمال ذي الطريق الجديد الذي لم يستخدم بعد إذ من المفترض أن تنحدر من هناك آمال بقرب حدوث حرب، كان دروغو يرغب في أن يتحدث إليه، أن يقول له انتبه، أن يحثه على المغادرة قبل أن يفوت الأوان، ذلك أن مورو كان شاباً لطيفاً ودقيقاً في عمله، لكن بعض الحماقات كانت تحول دون قيام حوار، وفي المحصلة النهائية، ربما كان مثل هذا الحوار بلا طائل .

وبينما كانت تتساقط الأوراق الرمادية للأيام الواحدة تلو الأخرى،أوراق الليل السوداء، كان يتنامى في داخل كل من دروغو وأورتيز (وربما في دخيلة بعض الضباط القدامى) الحزن من جرّاء شعورهم أنهم لن يصلوا في الوقت المناسب، أما الغرباء فلم يحركوا ساكناً، وهم غير عابئين بتدهور السنين، كانوا ثابتين كالموتى و لم يكن يعنيهم أبداً أن يبددوا فصولاً طويلة هكذا لمجرد اللهو، لكن

الحصن على العكس من ذلك كان يضم رجالاً فقراء وقد فقدوا كل دفاعاتهم بوجه فعل الزمان على حين جعلت النهاية تقترب، أشياء كانت تبدو يوماً ما وكأنها غير حقيقية، منذ زمنٍ طويل وهم يتذكرون سقوط الحياة في كل مرة، ومن أجل الإستمرار كان يجب خلق نظام جديد، وإيجاد مصطلحات جديد للمقارنة، كانوا يعزون أنفسهم بمقارنتها بأولئك الذين يعيشون وضعاً أسوأ بكثير .

وعندما حان وقت إحالة أورتيز على التقاعد (وذلك دون أن يظهر في سهل الشمال أي مَعْلَمٍ من معالم الحياة، أوأي بصيص ضوء)، كان المقدم أورتيز يُسْدي النصائح إلى القائد الجديد سيموني، تجميع القوات في الباحة الرئيسة، وقد استثنى بالطبع الدوريات التي كانت تقوم بنوبة الحراسة، كان يتحدث بمشقة، ثم ما لبث أن امتطى صهوة جواده بمساعدة أولئك المنتظرين وداعه، ثم خرج من بوابة الحصن، كان ثمة ملازم وجنديان يحرسانه، رافقه دروغو حتى أطراف السهل، وهناك حيّا أحدهما الآخر، كان ذلك في صباح أحد أيام الصيف الجميلة، حيث كانت السحب تعبر أرجاء السماء تاركةً ظلالاً، تلون المنطقة بشكل غريب، ترجل المقدم من على جواده وكان يشعر بغرابة إزاء دروغو وكان كلاهما صامتاً وغير قادر على قول كلمة وداع، ثم ما لبثت أن بدأت تخرج كلمات مجهدة وتافهة، وبمقدار ما كانت مغايرة فهي فقيرة قياساً إلى ما كان يعتمر في فؤاديهما .

قال دروغو :

ـ بالنسبة لي، الآن بدأت الحياة تتغير، و أرغب في المغادرة، وتتملكني الرغبة في تقديم استقالتي .

قال أورتيز :

ـ أنت مازلت شاباً، وسيكون فعل ذلك عبارة عن حماقة، فمازال أمامك وقت كافٍ .

ـ وقت كافٍ من أجل أي شيء ؟

ـ من أجل الحرب، سترى الحرب قبل أن تمضي سنتان، (هكذا كان يقول لكنه في دخيلته كان يأمل بأن لا يحدث هذا، في الحقيقة كان يعزي نفسه بفكرة أن دروغو سيغادر الحصن مثله، قبل أن يحالفه الحظ، وقد بدا له هذا شيئاً مخالفاً للصحيح أجل كانت تربطه بدروغو صداقة، وكان يحمل له الخير كله) .

لكن جوفاني لم يقل أي شيء .

عاد أورتيز يلح وهو يأمل بأن لا يحدث هذا :

ـ بالفعل سوف ترى أنه لن تمضي سنتان .

أخيراً رد دروغو :

ـ ليس سنتان وحسب، ستمر قرون ولن تكفي أبداً الآن، لقد هُجِرَ الطريق ولن يأتي أحد من جهة الشمال .

على الرغم من أن هذه هي كلماته إلا أن وجيب القلب كان يختلف تماماً، غير معقول، مقاوم للسنين، كان يحتفظ في نفسه منذ زمن الصبا ذلك الهاجس بأشياء ضمنية، ثقة غامضة توحي بأن ذلك الجزء السائغ من الحياة سوف يبدأ الآن، صمتا مرة أخرى، وقد تنبها إلى أن هذا الحديث قد باعد بينهما، ولكن ما الذي كان بإمكانهما قوله، لقد عايشا معاً هذه الأسوار ثلاثين سنة، الأحلام نفسها ؟ الآن يفترق طريقهما بعد مسيرة طويلة، ويغدو أمامهما طريقان أحدهما من هنا والآخر من هناك، طريقان يبتعدان نحو البلد المجهول .

ـ أية شمس هذه .

قال أورتيز، ثم حدق بعينين غشاهما ضباب السنين، الآن سيغادر أسوار حصنه إلى الأبد، كانت الأسوار تبدو هكذا كما هي، تحمل اللون الأصفر نفسه، وجهها البطولي، كان أورتيز يحدق فيها بشدة، ولم يكن أحد باستثناء دروغو قادراً على الإحساس بمعاناته .

ـ إنه بالفعل قيظ هجيراً .

رد جوفاني وهو يتذكر حديثه مع ماريا فيسكوفي، ذلك الحديث البعيد في الصالة، حتى كانت تتناهى إلى أسماعه النغمات الكئيبة للبيانو .

ـ بالفعل إنه يوم قائظ .

أضاف أورتيز ثم ابتسم الإثنان، كان ذلك عبارة عن إشارة غريزية كأنهما يقولان أنهما يعرفان جيداً معنى هذه الكلمات الغبية، الآن يغطيهما ظل سحابة.

ثم بدا السهل فجأة غامقاً، ثم ما لبث أن سطع الجزء الأيسر من الحصن الذي مازال غارقاً في ضوء الشمس، حام عصفوران فوق المحرس الأول، على حين كان يسمع من بعيد صفير بوق .

قال الضابط العجوز :

ـ هل سمعت ؟ إنه البوق .

ـ لا، لم أسمعه .

رد دروغو نافياً حدوث ذلك وكأنه أراد ان يرضي صديقه .

ـ ربما كنت مخطئاً بالفعل لقد ابتعدنا كثيراً، أكد أورتيز وكان صوته مرتجفاً ويصدر عنه بمشقة ثم أردف :

ـ هل تذكر عندما وصلت هنا للمرة الأولى، وكنت آن ذاك مذهولاً ؟ لم تكن ترغب في البقاء، هل تذكر ؟

ـ لقد مضى زمن طويل، أخيراً استطاع دروغو أن يجيب بهذه الكلمات وحسب، وكان ثمة غَصَّةٌ في حلقه، ثم إن أورتيز قال شيئاً وهو يحاول الركض وراء أفكاره، قال :

ـ من يدري، ربما كنت قادراً على أن أكون ذا نفع في معركة ما، ربما كنت مفيداً في حرب ما، ولكن الآن لم يَبْقَ شيء كما ترى .

كانت السحابة قد عبرت من فوقهما ثم تجاوزت الحصن نفسه، إنها الآن تنزلق نحو سهل التتار المنعزل، ساكنة وهي تتجه باتجاه الشمال، وداعاً، وداعاً،

لقد عـادت الـشمس للظـهور ثانيـةً، ومـن ثـم عـاد يرتـسم ظـل الـرجلين، كـان جـواد أورتيـز وجيـاد مرافقيـه بعيـدين نحـو عـشرين متـراً وهـم يـضربون حـوافرهم بالصخور وكأن هذا يعني نفاد الصبر .

تُطوى صفحة، تمر شهور وسنون، ورفاق دروغو، أولئك الذين عاشوا في المدرسة معه، هاهم الآن وقد سئموا من العمل، اكتست وجوههم بلحى مربعة ورمادية اللون، هاهم الآن يعبرون مناحي المدينة وهم يتلقون التحيات بكل احترام وتقدير، لقد اصبح أولادهم رجالاً مكتملين، بعضهم غدا جَدَّاً، كان أصدقاء دروغو القدامى يجلسون على أعتاب البيوت التي بنوها، وقد بدؤوا يميلون إلى التوقف و التأمل . إنهم راضون كل الرضى عن حياتهم المهنية، وبينما يمر نهر الحياة وفي دوامة الحشد الغفير، فأنهم يتسلون بالتمييز بين أبنائهم ، يحثونهم على الإسراع، على تجاوز الآخرين، على الوصول قبلاً، لكن جوفاني دروغو مازال ينتظر، وفي كل لحظة كانت تمر به، كانت آماله تبدو منهكة .

الآن لقد تغير كلياً، لقد بلغ الخمسين من العمر، رتبة الميجور، ونائب قائد حامية الحصن الفقيرة، حتى زمن قصير مضى كان يشعر بأنه لم يتغير، كان يقول إنه مازال شاباً ، وكان أحياناً يقوم بجولات في السهل على ظهر جواده وذلك بغية المحافظة على اللياقة البدنية، وإن كانت هذه الجولات تسبب له بعض الإنهاك .

ثم إنه أخذ يغدو هزيلاً ونحيفاً، وغدا وجهه هزيلاً وذا لون شاحب، وترهلت عضلات جسده، مشاكل في الكبد، هكذا كان يقول الدكتور روفينا الذي أصبح الآن عجوزاً طاعناً في السن، وقد اختار أن ينهي حياته بعناد في الحصن . . لكن أدوية الدكتور روفينا لم تعد ذات نفع وفعالية، وكان يستيقظ في الصباح الباكر وهو يكابد الشعور بإنهاك مثبط وقد جعل يظهر على قذاله، ثم ما يلبث أن يثوي بمكتبه، كان ينتظر الساعة التي تؤذن بحلول المساء، وذلك لكي يتمكن من أن يلقي نفسه على الأريكة أو على السرير، مشاكل في الكبد سببها تدهور صحي عام، هكذا قال الطبيب، ولكن فعل هذا التدهور الصحي كان شيئاً غريباً قياساً إلى

الحياة التي أمضاها جوفاني، على كلٍ كانت مسألة عابرة وهي طَبَعِّيَةٌ في هذه السن ـ هكذا كان يقول الدكتور روفينا ـ وربما عانى منها لفترة طويلة من الزمن، ولكن لن يكون لها أي مضاعفات .

كان ثمة انتظار إضافي يطعّم حياة دروغو، الأمل في الشفاء، في كل الأحوال لم يكن يبدي أي تبرم ما من جرّاء ذلك، كانت صحراء الشمال ما تزال مقفرة، ولم يكن ممكناً التنبؤ بهجوم الأعداء، " لون وجهك أفضل الآن " هكذا كان الزملاء يرددون على مسامعه كل يوم، ولكن في الحقيقة لم يكن دروغو يشعر بأي تحسن، صحيح أن الصداع قد اختفى الآن كما انتهت الإسهالات المؤلمة التي كان يعاني منها في البداية، لم تكن تؤرقه أي معاناة من نوع خاص، لكن طاقته العامة كانت تبدو أكثر وهناً .

كان يقول له سيموني، قائد الحصن :

ـ حاول أن تستمتع بإجازة ما، تجعلك ترتاح بعض الشيء، سيكون مثالياً بالنسبة لك الذهاب إلى مدينة على البحر .

لكن دروغو كان يجيبه لا، وأنه يشعر بتحسن، وأنه يفضل أن يبقى هنا في الحصن، يخفض سيموني رأسه مستهجناً الطريقة الجحودة التي كان يرد بها دروغو على نصائحه الثمينة، ولكن في كل الأحوال كان هذا متوافقاً مع روح الأنظمة، ومع فعالية الموقع العسكري، وموافقاً لميوله نفسها، ذلك أن سيموني كان يتحسر على أيام ماتّي، فقد كان ظل هذا الأخير ثقيلاً على الآخرين وذلك حين يفرض كماله الفاضل .

كان يخوّضُ في أيِّ حديث، كلماته التي تبدو في الظاهر ودية تكتسي بطعم تقريع غامض بالنسبة للآخرين، وكأنه يشعر بأنه الوحيد الذي سيبقى حتى النهاية، وأنه هو من يشدّ من أَزْرِ الحصن، وأنه الوحيد الذي يدفع عن الحصن مصائب كان يمكن للآخرين أن يقعوا فيها، حتى ماتّي، في أيامه الجميلة، كان تقريباً يحس

هكذا وإن كان أقل نفاقاً منه، لم يكن ماتّي قادراً على اكتشاف جَدْبِ قلبه، وبعض الفظاظة الخشنة التي كان يمارسها على الجنود لم تكن تثير الألم في داخله .

لحسن الحظ فقد استطاع دروغو أن يؤسس صداقة متينة مع الدكتور روفينا مما سمح له أن يستفيد من معرفته له وذلك كيما يبقى في الحصن، كان يحمل اعتقادا غريباً مفاده أنه لو حدث وترك الحصن الآن بسبب المرض فإنه لن يكون قادراً على العودة إليه أبداً، هذا التفكير كان يدفعه إلى الكآبة، لو أنه رغب منذ عشرين سنة بمغادرته، ورغب في ممارسة حياة وديعة وأليفة في موقع آخر حيث التدريبات الصيفية، ثم ممارسة الرمي، مباريات سباقات الخيول، المسارح، المجتمع السيدات الجميلات، ولكن الآن ما الذي يَبْقَ له ؟ لم يتبقى الكثير من الوقت قبل إحالته إلى التقاعد، لقد انقضى زمنه المهني، لقد كان من الممكن أن يفسحوا له المجال لأن يغدو قائداً، وهو شيء ربما أنهى خدمته، لقد بَقِيَتْ سنون قلائل، الاحتياط الإخير، وربما استطاع معايشة الحدث المأمول قبل أن تنتهي خدمته، لقد ألقى جانباً السنين الجميلة وهو راغب الآن في الانتظار حتى الدقيقة الأخيرة .

كان روفينا، آملاً في شفاءٍ سريع، قد نصحه في أن لا يجهد نفسه في العمل، وأن يظل كل يوم مضطجعاً على السرير، وأن تُحْمل إليه الأعمال المطلوب إنجازها بسرعة، حدث هذا في آذار بارد وممطر يصاحبه تساقط جلاميد صخرية من أعلى الجبال، وقد جعلت تتهاوى بشكل مفاجئ، ولأسباب مجهولة وهي تتحطم في الوهاد، فتصاعدت أصوات غريبة تدوّي في الليل ساعةً بعد أخرى .

أخيراً، وبعد مشقة قصوى حَلَّ الفصل الجميل، كان الثلج قد بدأ يذوب في المعبر، ولكن كان هناك ضباب رطب يحوّم حول الحصن، ولم يكن من الممكن أن يبدد دون أن تطلع شمس قوية، كان هواء الوديان قد ذَبُلَ بسبب الشتاء، ولكن في إحدى الصباحات استيقظ جوفاني دروغو فشاهد خيطاً من شعاع الشمس

يدلف إلى غرفته، فقد حل الربيع .

كان قد ترك نفسه يؤخذ من قبل أمل الأيام الغابرة، الذي يطابق فيه مثل هذا الشحذ للهمم، حتى في الدعامات القديمة كان يمكن ملاحظة الربيع وبقايا الحياة، من هنا حيث كانت تصّاعد في الليالي قرقعات لا حصر لها، كان كل شيء يوحي بأن الأمور سوف تبدأ الآن، كان التدفق الحيوي للصحة و للفرح يخيمان على العالم .

هكذا كان يفكر دروغو بشدة، وهو يستعيد بذاكرته كتابات مؤلفين بارعين حول هذا الموضوع، كان هذا يهدف إلى بث الحماس، نهض من فراشه، ثم مضى صوب النافذة وهو يترنح، كان يشعر بدوار، ولكنه أخذ يعزي نفسه أن مثل هذه الأمور تحدث في العادة مراراً عندما يظل المرء راقداً لفترة طويلة وإنْ شُفِيَ، وبالفعل فسرعان ما تلاشى الشعور بالدوار، ثم كان بإمكان دروغو أن ينظر إلى السماء الساطعة .

بدا وكأن بهجة دون حدود انتشرت في أرجاء العالم، لم يكن دروغو قادراً على استنتاجها بشكل مباشر، ذلك أنّ السور كان يقع أمامه، كان يخمن ذلك دون مشقة، وفي النهاية، تلك الجدران القديمة، أرض الباحة الرئيسة وقد اصطبغت باللون الأحمر، مصاطب الخشب غير الملون، عربة فارغة، جندي يسير ببطء، هذا كله كان يبدو مبهجاً، من يدري ماذا يحدث خارجاً، في ما وراء الأسوار .

حاول ارتداء ملابسه، راغباً في الجلوس على إحدى الأرائك في الخارج وذلك لكي يتمكن من الإستمتاع بقليل من الشمس، لكن رِعْشَةٌ خفيفةٌ جعلت توقظ الخوف في داخله وهي تكاد تنصحه بالعودة إلى الفراش، " لكنّي اليوم أفضل، أحس بأني أحسن " هكذا كان يحس وهو مقتنع بأنه غير منخدع .

بهدوء كان الصباح الربيعي الهادئ يتقدم، وكان أثير الشمس المتساقط على أرضية الغرفة قد تحرك من مكانه، كان دروغو يراقبه من لحظة إلى أخرى دون

أن تكون لديه أدنى رغبة في مطالعة الدفاتر والأوراق المكدسة فوق السرير، كان يخيم سكون غير عادي لدرجة أنه لم تؤثر عليه الشارات النادرة للبوق الذي ينفخ فيه، ولا الصخب الذي يولده صوت الخزان، بالفعل، فحتى بعد أن سُمِّيَ دروغو ميجوراً لم يكن راغباً في تبديل غرفته، وهو مقتنع تماماً بأن هذا قد يجلب الحظ له عدا عن أن الشهيق المستمر و المتواصل للخزان غدا عادة عميقة ولم تعد تولد لديه أي سأم .

كان دروغو يحدق في ذبابة حطت فوق أثير الشمس، حشرة غريبة في هذا الفصل، من يدري كيف أمكنها المحافظة على بقائها في أثناء الشتاء، كان يحدق فيها بيقظة عندما سمع طَرْقاً على الباب .

كان طَرْقاً غير مألوف، وقد لاحظ جوفاني ذلك، لم يكن بالتأكيد جندي المراسلة، ولا الكابتن كوّرادي الذي لم يكن من الممكن أن يطلب أذناً، ولم يكن أي من الزوار المألوفين، قال دروغو " أُدْخُلْ "، يُفْتَحُ الباب، ثم يدخل الخياط بروسدوشيمو، وقد احدودب كلياً، مرتدياً رداءً غريباً، ربما كان يوماً ما بزة رسمية لأحد الماريشالات، تقدم قليلاً نحو الأمام وهو يلهث بعض الشيء، أشار بسبابة يده اليمنى إلى شيء ما خلف الأسوار .

هتف متمتماً كما لو أنه يحمل سراً كبيراً .

ـ إنهم قادمون ! إنهم قادمون !

رد دروغو وهو مَشْدُوْهٌ من جرّاء رؤيته الخياط متأثراً بهذا الشكل :

ـ مَنْ هُمْ ؟

فكّر دروغو " أشعر بانتعاشٍ، الآن تبدأ ثرثرات هذا وتستمر لساعة كاملة".

ـ لقد جاؤوا عَبْرَ الطريق، هذه مشيئة الله، إنهم قادمون عَبْرَ طريق الشمال وقد ذهب الجميع من أجل رؤيتهم يتقدمون .

ـ عَبْرَ طريق الشمال ؟ جنود ؟

صرخ العجوز وهو يكاد يخرج عن طوره :

ـ إنهم مقاتلون، إنهم مقاتلون، هذه المرة ليس ثمة مجال للخطأ، ثم إنه وصلت رسالة من الدولة تنبهنا بأنهم سوف يزودوننا بقوات إضافية، إنها الحرب، إنها الحرب .

كان يصرخ، ولم يكن من الممكن معرفة ما إذا كان خائفاً أم لا .

تساءل دروغو:

ـ وهل اصبحوا في مجال الرؤية ؟ هل يمكن رؤيتهم دون منظار ؟

كان قد نهض وجلس فوق السرير، وقد طغى عليه جَزَعٌ مُرَوِّعٌ .

ـ بحق الله، يمكن رؤيتهم، يمكن رؤية مدافعهم وقد تم حتى الآن إحصاء ثمانية عشرة منها .

ـ كم من الوقت يلزمهم ليهجموا، كم من الوقت يتطلب وصولهم ؟

ـ آه، عبر هذا الطريق فإنهم سينجزون الأمر بسرعة، أنا أقول بأن الأمر يتطلب يومين، بعد يومين كأقصى حد سيكونون هنا .

يا لهذا السرير اللعين، هاأنا الآن أثوي وقد حُجِرْتُ فيه بسبب هذا المرض، كان دروغو يقول لنفسه دون أن يخطر على باله ولا على الأقل بأن ما يرويه بروسديشمو هو مجرد حكاية، فقد شعر على الفور بأن هذا كله حقيقي، ثم إنه تنبه إلى أن الهواء كان قد تبدل بطريقة أو بأخرى، وحتى ضوء الشمس .

قال وهو يشعر بضيق :

ـ إذهبْ يا بروسديشمو لمناداة لوكا، جندي المراسلة التابع لي، ليس من الممكن قرع الجرس لمناداته، ذلك أنه ربما ذهب لكي ينتظر بأن يسلمه الأوراق، أفعل ذاك بسرعة أرجوك .

قال بروسديشمو مشجعاً :

ـ هيا، انهضْ أيها السيد الميجور، لا تفكّر بعد اليوم بأمراضك، تعال إلى

الأسوار كي ترى .

خرج بروسديشمومتيقظاً وقد نَسِيَ أن يغلق الباب، وكان يمكن سماع وقع خطواته وهي تخبط بلاط الممر، ثم ما لبث أن حل الصمت .

ـ أيها الإله، اجعلني بأفضل حال، أرجوك، على الأقل لستة أو سبعة أيام .

كان دروغو يتمتم دون أن يقدر على السيطرة على اللذة التي اعترته كان يرغب في النهوض فوراً، وبأي ثمن، أراد أن يتجه فوراً إلى الأسوار، وذلك كي يراه سيموني، أن يُفْهِمَ الآخرين أنه حاضر، وأنه في مكانه القيادي، وأنه يتحمل على عاتقه المسؤولية كما كان يحدث دوماً، وكأنه ليس مريضاً .

كانت أنفاس الريح القادمة من الممر تخبط الباب بشكل سيء، وكان رَجْعُ الصوت يتردد في عمق السكون المخيم، دويٌّ قويٌّ وسيئٌ، وكأنه ردٌّ على طلب دروغو، لِم لمّ يأتِ لوكا، كم يلزم هذا الملعون كي يصعد درجتين ؟

ودون أن ينتظره، هبط دروغو من على السرير، فأحس على الفور بموجة دُوارٍ تعتريه، لكنها سرعان ما تلاشت، أنه الآن أمام المرآة محدّقاً بذهول في وجهه، شاحبٌ وذابلٌ، إنها اللحية هي التي تظهر في هذا المظهر، هكذا قال جوفاني، وبخطوات غير واثقة، وهو ما يزال مرتدياً مِبْذَلَتَهُ، جعل يدور في الغرفة باحثاً عن موْسى حلاقة، ولكن لِم لمّ يأتِ لوكا بعد ؟

صّر الباب مرة أخرى صريراً حادا بسبب التيار القادم من الممر، قال دروغو " ليأخذك الشيطان " ثم توجه من أجل إغلاقه، وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات جندي المراسلة وهي تقترب .

حلق ذقنه، ثم ارتدى ملابسه ـ كان يشعر بنفسه وكأنه يتراقص داخل بزته الفضفاضة ـ ثم هاهو ذا جوفياني دروغو يخرج من غرفته، سار في الممر الذي بدا له طويلاً أكثر من المعتاد، كان لوكا بجانبه، متخلفاً عنه بعض الشيء وهو متهيئ لسنده، ذلك أن الضابط كان يظنه منهكاً وهو يقف على قدميه، الآن يعاوده

الشعور بالدوار، وفي كل لحظة كان يجب أن يتوقف دروغو، مستنداً إلى الجدار، فكّر، " إني متهيج أكثر مما ينبغي، إنها العصبية المعتادة، ولكن بشكل عام أحس بأني أحسن مما مضى " .

بالفعل، فقد اختفى الدوار، ومن ثم وصل دروغو إلى الشرفة القصوى للحصن، حيث شاهد الضباط هناك عبر المنظار المثلث المرئي من السهل الذي كانت الجبال تحيط به .

ظل جوفاني مبهوراً بسطوع الشمس المبهر، وهو شيء لم يكن قد اعتاد عليه، رد بشكل مضطرب على تحيات الضباط الموجودين هناك، بدا أن الآخرين يحيونه بلباقة خاصة، ولكن ربما كان هذا نوعاً من التأويل الخاطئ، بدا وكأنه لم يعد رئيسهم المباشر، إن هذا بمعنى ما هو خيار حياتهم اليومية، هل كانوا يعاملونه على أنه انتهى من تأدية دوره ؟

هذه الفكرة المقيتة مرت بخاطره بسرعة، ثم ما لبث أن تأوبه القلق العظيم، فكرة الحرب، كان دروغو قد تنبه في البداية عند حافة المحرس الجديد إلى وجود دخان يتصاعد، كان تبديل الحرس قد تم، وقد أُخذت بعين الاعتبار بعض الإستثناءات، كانت الأوامر قد صدرت، دون أن يأخذ رأيه أحدٌ فيما يتعلق بالأمر، إنه هو نائب القائد، بل إنهم لم ينبهوه قط، بل على العكس، لو لم يأتِ بروسدشيمو بمبادرة خاصة منه، لكان الآن ثاوياً في سريره دون أن يعي الخطر المحدق .

غالبه غضب متوقد ومرّ، كانت تخيم غشاوة على عينيه، وقد توجب عليه أن يظل متكئاً إلى حاجز الشرفة، وهو يجاهد في سبيل الحفاظ على كيانه من التزعزع، ذلك أن الآخرين لم يكونوا قد وعوا تماماً إلى أي درجة تدهور وضعه الصحي، كان يشعر بوحدة مفزعة، بين أناس هم أقرب إلى الأعداء، حقيقي أنه وجد بعض الملازمين الشباب، مثل مورو كانوا يقدرونه، ولكن ما هي أهمية أن يحصل على دعم الآخرين ؟

في تلك اللحظة، وبينما كان يسمع نداء التنبيه، تقدم منه المقدم سيموني بخطوات حثيثة، كان وجهه محمراً، هتف محدثاً دروغو :

ـ منذ نصف ساعة وأنا أبحث عنك في كل مكان، لا أدري كيف يتوجب علينا أن نتصرف، يجب أن تتخذ قرارات بهذا الخصوص .

دنا منه بحنو طافح، مقطباً حاجبيه، وكأنه كان جد قلق ومنشغل بالاستماع إلى نصائح دروغو، شعر جوفاني بأنه دون أسلحة، الآن اختفى غضبه فجأة، ومع ذلك كان يشعر بأن سيموني كان يخدعه، كان سيموني قد توهم بأن دروغو لا يمكنه الحراك، لم يشفَ بعد، وقد وضع هذا في حسبانه، إلا أنه أخطره كيف جرت الأمور، ثم إنهم قالوا له إن دروغو يتجول في أرجاء الحصن، لذا فقد أخذ يبحث عنه، وهو قلق وراغب في عرض ثقته الطيبة به .

قال سيموني مستبقاً أي سؤال من قبل دروغو، وهو ينفرد به جانباً لكي لا يسمع الآخرون ما سيقوله له :

ـ عندي هنا رسالة من الجنرال ستاتزي، سيصل إلينا فيلقان، هل تفهم ؟ إنني لا أعرف أين يمكنني وضعهما .

رد دروغو مندهشاً :

ـ فيلقا دعم !

أعطاه سيموني الرسالة، كان الجنرال قد أشار بأنه راغب في أخذ كل الاحتياطات الضرورية، وهو يخشى من تحرشات معادية، فيلقان، سلاح المشاة السابع عشر، ثم تشكيل آخر مُزَوَّدٌ بالمدفعية .

كانا قد أرسلا من أجل دعم الحصن، سوف تسير أمور المراقبة والحراسة حسب النظم القديمة المعمول بها، أي بكامل القوات، يجب التحضير لعملية إنزال الضباط والجنود، طبعاً قسم منهم قد ينتظر .

أضاف سيموني دون أن يفسح المجال أمام دروغو لكي يجيبه :

ـ على كل حال فقد أرسلت سرية إلى المحرس الجديد، هل أصبت في فعل هذا ؟ لقد سبق لك أن رأيتها .

ـ أجل، أجل، أحسنْتَ صنعاً .

رد جوفاني وهو يكابد الشعور بالتعب، كانت كلمات سيموني تدلف إلى أذنيه بنغمة منفصلة وغير حقيقية، كانت الأشياء حوله تتأرجح بشكل مقيت، كان دروغو يحس بحالته تسوء باطّراد، كان يحس بإنهاك فظيع وقد دهمه على حين غرة، كانت كل قواه قد شحذت وذلك للحفاظ على نفسه واقفاً على قدميه، تضرَّعَ في سرَّهِ : " أيها الرب، أيها الرب، أعنّي قليلاً " . ولكي يخفي انهياره فإنه تناول منظاراً (كان هذا هو منظار سيموني الشهير) ثم جعل ينظر نحو الشمال وهو مسند كوعيه إلى الحاجز وهذا ما كان يعينه على البقاء واقفاً على قدميه .

أوه، لو انتظر الأعداء قليلاً، ربما كان أسبوع واحد كافياً من أجل استعادة صحته، لقد انتظر سنين طويلة، ألا يستطيعون أن يتأخروا بضعة أيام، بضعة أيام فقط ؟

حدق عبر المنظار في المثلث المرئي من الصحراء وهو يأمل ألاّ يرى شيئاً، وأن الطريق ربما كان خالياً، لم تكن هناك أية إشارة لحياة ما وهذا كان يشكل عزاءً بالنسبة لدروغو بعد أن استنفذ حياته منتظراً الأعداء .

كان يأمل أن لا يرى شيئاً أبداً، ولكن كان هناك خيط أسود يعبر العمق الأبيض للسهل، هذا الخيط كان في حركة دائبة، حشد كثيف من الرجال وقوافل كانت تتجه نحو الحصن، عدا عن الصفوف البائسة للمسلحين عند هذه اللحظة، شاهد دروغو الصورة عبر المنظار وهو يكاد يشعر بالدوار، وقد أخذ كل شيء يغدو معتماً، رصاصياً في الظلام، سنده سيموني في الوقت المناسب كان يجاهد في أن يسند جسده الذي غدا خالياً من الحياة وكان يشعر بالدوار المنهك يتسلل إلى رأسه .

مرَّ يوم وليلة، كان الميجور جوفاني دروغو راقداً في فراشه، وفي كل لحظة كان يتناهى إلى سمعه النغم الإيقاعي للخزّان وحسب، لا صوت آخر، ومع ذلك فقد بدأ ينمو في الحصن هيجان قلق في كل لحظة تمرّ، كان معزولاً عن كل شيء، كان دروغو مضطجعاً يواصل الاستماع إلى أنين جسده، إذاً فقد تَأَوَّبَهُ ذلك الشعور بفقدان القوى، كان الدكتور روفينا قد قال له، إن المسألة لن تتعدى بضعة أيام، ولكن في الحقيقة كم من الأيام يتطلب ذلك ؟ ألم يكن باستطاعته، عند وصول الأعداء، أن ينهض على الأقل على قدميه، أن يرتدي ملابسه، وأن يجّر نفسه حتى سطح الحصن ؟ من وقت لأخر كان ينهض من فراشه عندما يحس بأنه قد تحسن قليلاً، يمشي دون أن يستند على أي شيء حتى يقف أمامه المرآة، ولكن هنا كان يظهر فقط الجانب الأيسر من وجهه، كانت الصورة تظهر دائماً ترابية ومحقّرة، تطفئ الآمال الجديدة، وعندما يعود الدوار ليدهمه، يؤوب مترنحاً إلى فراشه، اللعنة على الطبيب الذي لم يقدر على شفائه.

كان أثير الشمس الهابط على أرضية الغرفة قد غدا أكثر اتساعاً وامتداداً، يجب أن تكون الساعة بلغت الحادية عشر، أصوات غير مألوفة كانت تتناهى إليه من الباحة الرئيسة، على حين يظل هو ثاوياً في الفراش، يحدق في السقف عندما يدخل المقدم سيموني، قائد الحصن، يسأله بحيوية :

ـ كيف حالك ؟ أفضل بعض الشيء ؟ ولكنك شاحب جداً هل ترى ذلك؟

رد دروغو ببرودة

ـ أجل أعرف ذلك، ومن الشمال هل تقدموا ؟

قال سيموني :

ـ لقد تقدموا كثيراً، لقد سبق للمدفعية أن وصلت قمة الحد الذي كنا قد رسمناه، إنهم يحصنون مواقعهم، ولكنك يجب أن تعذرني الآن لأني لم آتِ حتى

الآن لرؤيتك، لقد غدا الوضع هنا كأنه الجحيم، لقد وصلت إمدادات القوات الأولى، لقد انتهزت فرصة خمسة دقائق ...

قال دروغو وهو يشعر بصوته يزداد ارتجافاً :

ـ قد أتمكن من النهوض غداً، قد أستطيع تقديم بعض العون لك .

ـ آه، لا، تجرّأ على القول : لا تفكر في ذلك، فكّر في شفائك وحسب، ولا تعتقد أبداً بأنك قد نسيت، بل على العكس عندي أنباء سارة لك، اليوم ستصل عربة من أجل نقلك، حرب أو لا حرب، ما يهمنا هو الأصدقاء قبل كل شيء .

ـ عربة من أجل نقلي، ولماذا يجب علي أن أنتقل ؟

ـ ولكن نعم، إنها تأتي، لنقلك، لا يجب أن تعتقد بأنك ستظل تطيق أبداً كل هذا التعب، هناك في المدينة يعالجون بشكل أفضل، بعد شهر ستكون واقفاً على قدميك، ولا تفكّر بالوضع هنا مطلقاً، الآن لقد تجاوزنا المرحلة الأصعب .

غضب هائل خنق صدر دروغو، هو الذي ألقى كل الأشياء الجميلة في الحياة منتظراً وصول الأعداء، لقد مضت الآن ثلاثون عاماً وهو متشبث بهذه الثقة، بل وهو يتغذى منها، وهاهو الآن بالضبط في هذا الوقت يطردونه، هكذا عندما وصلت المعركة ؟

رد بصوت يرتجف من الغضب :

ـ كان يجب أن تطلب ذلك مني في أقل تقدير، أنا لن أتزحزح، سوف أبقى هنا، إنني اقل توعكاً مما تعتقد، سوف أنهض غداً .

رد سيموني وهو يرسم ابتسامة تفهم :

ـ لا يجب أن تهتاج بهذا الشكل، لن نفعل أي شيء، وإذا ما استمريت في هيجانك فإن وضعك سيزداد سوءً، لكن الأمر يبدو لي أفضل هكذا، حتى روفينا نصحنا بفعل ذلك .

ـ أيٌّ روفينا هذا ؟ هل كان روفينا هو الذي طلب منك إحضار العربة .

ـ لا، لا، عن العربة لم أتحدث مطلقاً مع روفينا، إنه يقول أنه من الأفضل لك أن تغير الهواء .

فكّر دروغو بأن يتحدث إلى سيموني وكأنه صديق حقيقي، فكّر بالإفصاح عن مكنونات نفسه أمامه كما كان يفعل مع أورتيز، حتى سيموني وبعد كل شيء يبقى رجلاً .

حاول التحدث مغيراً نبرته :

ـ إسمعْ يا سيموني، أنت تعلم جيداً أننا بقينا هنا في الحصن تحدونا آمال كثيرة، من الصعب قول ذلك أو التعبير عنه، ولكن حتى أنت تعرف ذلك جيداً (لم يكن في الحقيقة قادراً على التعبير، كيف يمكن مصارحة رجل كهذا بمثل هذه الأشياء ؟ لو لم تكن مثل هذه الإمكانية موجودة) .

قال سيموني بتبرّمٍ واضحٍ :

ـ لست أفهم .

(هل غدا دروغو مثيراً للشفقة ؟ هل جعله المرض رخواً إلى هذا الحد ؟)

ألحّ سيموني وهو مهتاج :

ـ حسناً، كنت أعتقد بأني أقدم معروفاً لك، على حين ترد عليّ أنت بهذه الطريقة، إن الأمر لا يستدعي كل هذا، لقد أرسلت رسولين لهذا الغرض، ثم إني أخرت إحدى وحدات المدفعية لهذا القصد، راغباً بأن تجعل العربة تمرّ.

رد دروغو :

ـ ولكني لا أقول أي شيء إليك، بل أني أُقِرُّ بجميلك هذا، لقد فعلت أخيراً، أني أفهم ذلك (آه، أي عقاب هذا، فكّر دروغو، يجب أن لا تمس هذه الجيفة) في كل الأحوال يمكن للعربة أن تقف هنا، الآن أجد نفسي غير قادر على القيام بمثل هذا الجهد من أجل رحلة كهذه .

ـ منذ قليل قلت بأنك ستكون بحال أفضل غداً، والآن تصرح بأنك غير

قادرعلى ركوب عربة، ولكنك حتى أنت لا تعرف ماذا تريد .

حاول دروغو أن يضيف :

ـ أوه، لا، أن هذا شيء مختلف،القيام بمثل هذه الرحلة يمثل شيئاً، على حين الذهاب إلى ممشى الحراس يمثل شيئاً آخر، أستطيع أن أحمل مقعداً وأن آخذ قسطاً من الراحة جالساً إذا ما شعرت بأني متعب بعض الشيء، (كان يريد أن يقول كرسياً، ولكن الأمر كان سيبدو مضحكاً) من هناك أستطيع مراقبة عملية الخدمة، وأستطيع على الأقل أن أرى شيئاً ما .

قال سيموني وكأنه يختتم الحديث :

ـ حسناً إبْقَ، ولكن لا أعرف كيف أستطيع تأمين الأمكنة اللازمة كي ينام الضباط القادمون، طبعاً لا أستطيع وضعهم في الممرات، أو في المعبر، على حين تكفي غرفتك هذه لوضع ثلاثة أسرّة .

كان دروغو يحدق فيه وقد تجمد الدم في عروقه، إذاً هاهو ذا السبب الذي دفع سيموني إلى المجيء إلى هنا ؟ أنه يريد أن يطرد دروغو للاستحواذ على غرفته ؟ بالضبط من أجل هذا ؟ إنه شيء مختلف عن الشفقة و الصداقة،كان يجب فهم ذلك منذ البداية ـ هكذا فكر دروغو ـ يجب معاملته بالطريقة الدنيئة نفسها .

ولما كان دروغو قد صمت، فقد شجع سيموني على التلميح :

ـ هذا المكان يتسع بشكل مريح لثلاثة أَسِرَّةٍ، اثنان على طول الجدار، وثالث في تلك الزاوية، هل ترى ؟ دروغو إذا استمعت إليّ .

خص دروغو حديثه هذا دون أدنى شعور إنساني ثم أردف :

ـ إذا استمعت لي فإنك تسهل في الحقيقة هذه المهمة لي، ولكن إن بقيت هنا، أعذرني إنْ كنت أقول لك ذلك، ذلك أنّي صراحة لا أجد أنك قادر في مثل ظرفك هذا أن تكون ذا فائدة .

قاطعه دروغو :

ـ حسناً، لقد فهمت، هذا يكفي الآن، أرجوك، عندي صداع شديد .

رد الآخر :

ـ أعذرني، أعذرني إن كنت ألح، ولكني يجب أن أنظم هذه المهمة في الحال، الآن العربة قادمة، وروفينا يثني على قضية رحيلك ، هنا ستظل هذه الغرفة خاوية، أما أنت فستشفى سريعاً، وعلى أي حال فهذه مسؤولية كبيرة بالنسبة لي، أقصد إبقائي عليك مريضاً هنا، لو حدثت مأساة، إنك تجبرني على تحمل مسؤولية كبرى، إني أقول لك هذا صراحة .

رد دروغو وقد فهم أن المجاهدة تبدو مستحيلة، كان مازال يراقب خيط الشمس الذي جعل يصعد الجدار الخشبي وقد ازداد عرضاً وغدا ملتوياً :

ـ حسناً، أعذرني إنْ قلت لك لا، إني أفضل البقاء هنا، أما أنت فلن تتعرض إلى أيِّ أذية، إني أضمن لك ذلك، وإذا ما رغبت فإني قادر على أن أوقع تصريحاً خطياً بهذا الشأن، إذهبْ يا سيموني دعني هادئاً، ربما تبقى لي القليل من الحياة، ولكن دعني أبْقَ هنا، منذ ثلاثين عاماً وأنا أرقد في هذه الغرفة .

صمت الآخر برهة، حدّج زميله بنظرة حاقدة، رسم ابتسامة صفراء على شفتيه، ثم تساءل بنبرة مختلفة :

ـ ماذا لو طلبت منك ذلك كرجل أعلى منك رتبة ؟ ماذا لو كان هذا أمراً عسكرياً ؟ ما الذي تستطيع قوله في حالة كهذه ؟

صمت قليلاً يرقب ردة فعل دروغو على هذا ثم أردف :

ـ هذه المرة، عزيزي دروغو، لا تحاول عرض روحك العسكرية المعتادة، إني آسف لأني مضطر لقول ذلك لك، ولكن في المحصلة النهائية سوف تغادر المكان، هذا مؤكد، من يدري كم من الرجال سيبادلونك المكان إني أراهن بأن هذا لن يروق لك، ولكننا لا نستطيع أن نحصل على ما نريده من هذه الحياة، يجب أن نكون منطقيين، الآن سوف أرسل لك جندي المراسلة، وأنت سوف تجهز نفسك،

وتهيىء أمتعتك،وحوالي الساعة الثانية ستكون العربة هنا، إذاً سنلتقي لاحقاً .

قال هذا ثم انصرف مسرعاً، لقد أصدر حكمه، وهو غير راغب في سماع المزيد من الإعتراضات، التي قد يبديها دروغو، أغلق الباب بسرعة كبيرة، ثم ابتعد في الممرات بخطوات يقظة، كأنه شخص راضٍ عن نفسه، وأنه يسيطر تماماً على الموقف .

ران سكون ثقيل، ثم، تصاعد صوت الماء في الخزان، ب ل وك، ثم لم يُعد يسمع في الغرفة سوى لهاث دروغو، الذي كان يشبه النحيب، وفي الخارج كان النهار ساطعاً، كانت الحجارة قد أخذت تغدو فاترة، ومن بعيد جعل يتناهى صوت خرير الماء فوق الجدران، كان الأعداء قد احتشدوا عند المستوى الأخير أمام الحصن، وكان يمكن مشاهدة قوات وعربات وهي تنزلق عبر طريق السهل، كان كل شيء جاهزاً عند جدران الحصن، كانت قد هيئت الذخيرة حسب الأنظمة، الجنود في حالة تأهب وقد هيؤوا أسلحتهم، على حين كانت الأنظاركلها متجهة صوب الشمال، وإنْ لم يكن من الممكن رؤية أي شيء بسبب الجبال الجاثمة أمامهم (فقط أولئك الموجودون في المحرس الجديد كانوا قادرين على رؤية كل شيء) هكذا، كما حدث في تلك الأيام عندما جاء الغرباء لترسيم الحدود، كانت الأنفاس محبوسة، وقد امتزجت البهجة مع الخوف، في كل الأحوال لم يكن أحد ليفطن إلى وجود دروغو ... الذي كان يرتدي ملابسه بمعونة لوكا وهو يهيئ نفسه من أجل السفر .

كانت العربة فاخرة للغاية، وكانت تشق دروباً وعرة، وقد بدت كأنها عربة سيد لولا وجود الشعار على النوافذ، كان يقودها جنديان وحوذي وجندي المراسلات التابع لدروغو، وفي غمرة ضوضاء الحصن، حيث بدأت بوفود طلائع قوات الإمدادات، لم ينتبه أحد إلى ضابط نحيل ذي وجه ضامر ومصفر، كان يهبط السلالم ببطء وقد وصل إلى بهو المدخل ثم خرج إلى حيث كانت العربة بانتظاره فوق السهل الذي كان يغمره ضياء الشمس، كان يمكن في هذه اللحظة رؤية حشد غفير من الجنود، جياد وبغال، كان العسكر يغذّون السير وهم يقتربون من الحصن، وكان الموسيقيون في المقدمة، كان يمكن رؤيتهم، وقد نزعوا أغمدتهم المصنوعة من النسيج الرصاصي وأدواتهم وكأنهم يتأهبون للعزف، على كلٍّ البعض حيّا دروغو، ولكنهم كانوا قلائل قياساً إلى ما كان يحدث يوماً ما، كان يبدو أن الكل عارفون أنه في سبيله إلى المغادرة، وأنه لم يعد يعتبر أي شيْ قياساً إلى الرتب الموجودة في الحصن، جاء الملازم مورو وآخرون ليقولوا له الوداع الأخير ويتمنون له رحلة سعيدة، لكن التحيات كانت مقتضبة بحرارة نوعية تشبه إلى حد كبير ما يبديه الشبان إزاء العجائز، أحدهم قال لدروغو إن القائد سيموني يرجوه أن ينتظر قليلاً، ذلك أنه كان في هذا الوقت بالذات جد منشغل، انتظر السيد الميجور دروغو بعض الوقت، كان يمكن للسيد القائد أن يأتي دون أدنى شعور بالذنب، (أنه تأخر قليلاً) .

وما إنْ صعد درغو فوق العربة حتى أعطى الأمر بالمسير، كان قد أزاح الستارعن النوافذ كي يتمكن من التنفس جيداً، كانت ساقاه قد غطيتا ببعض الأردية، وكان بريق الخنجر يطل من خلالها .

نهجت العربة صوب السهل المملوء بالحصى وهي تهتز وتتأرجح، الآن لقد بلغ طريق دروغو نهايته، وبينما كان يتكأ على أحد أطراف المقعد كان رأسه

يتأرجح عند كل اصطدام تحدثه العربة، ثبت دروغو أنظاره على جدران الحصن الصفراء والتي أخذت بالنأي رويداً رويداً .

هنا حيث قضى معظم حياته معزولاً عن العالم، منتظراً قدوم العدو الذي أرّقه ثلاثين عاماً، والآن وقد قدم الغرباء، الآن يطردونه خارجاً . ولكن رفاقه، أولئك الذين ظلوا في المدينة، لقد أمضوا حياة سهلة ووادعة، هاهم الآن يصلون إلى المعبر، على حين ترتسم على شفاههم ابتسامات الرضى، وقد غنموا الفرح .

كانت عينا دروغو تثبت على جدران الحصن الصفراء نظرة لم يرُ مثلها قبلاً، الملامح الهندسية للمواقع العسكرية ولمخازن البارود، دموع بطيئة ومملوءة بالمرارة كانت تنساب على وجنتيه، لقد انتهى كل شيء بشكل بائس ولم يعد من الممكن قول أي شيء .

لا شيء بالضبط لا شيء تبقى لعزاء دروغو، كان وحيداً في هذا العالم مريضاً، لقد طردوه خارجاً وكأنه مصاب بالجذام، لعنهم الله، لعنهم الله لكنه بعد ذلك يفضل الرحيل، لم يعد يفكّر أبداً بأي شيء، وإلاّ لغصَّ صدره بغضب لا يمكن احتماله .

كانت الشمس تسطع على الطريق الهابطة، لقد تبقت أمامه دروب عديدة يتوجب عليه قطعها، كان الجنديان الثاويان فوق السرج يثرثران بلامبالاة وهما مطمئنان، لا يهمهما شيء سواء غادروا أم بقوا، لقد تساوت الأشياء في هذه الحياة عندهم، لقد أخذوا الحياة هكذا كما هي، دون أن يضايقوا نفسيهما بالتفكير بأشياء غير معقولة، كانت العربة، وقد صنعت بشكل جيد، تمثل عربة مريض، تهتز عند كل ثقب في الأرض كأنها ميزان رهيف، وقد أخذ الحصن يبدو أكثر تسطحاً،على الرغم من أن أسواره كانت تتلألأ بشكل غريب في هذه الظهيرة الربيعية.

فكّر دروغو، هناك احتمال كبير أنها السفرة الأخيرة، وعندما تصل العربة إلى حافة السهل، وتبدأ الطريق بالإتساع في الوادي عندئذ يمكن أن يقول وداعاً

أيها الحصن، لكن دروغو كان متبلداً، ولم يكن يملك الشجاعة في إيقاف الجوادين، وإلقاء النظرة الأخيرة على ذلك الكوخ، فالآن، وبالضبط الآن، ابتداء حياته الصحيحة، ولبرهة من الوقت ظلت ماثلة في ذهن دروغو صورة السور الأصغر، وصورة الحراب المائلة، والمحارس الغربية، والصخور الجانبية السوداء التي بدا الثلج بالذوبان فوقها، وقد بدا لجوفاني، ولكن هذا كان زماناً متناهياً في الصغر أن الأسوار قد أخذت تتسع بشكل مفاجئ حتى انتهت إلى السماء على حين تتلألأ الأضواء فوقها، ثم كانت كل نظرة قد محيت بشكل بشع وانتزعت منها الأحجار المعشوشبة التي تمتد على طول الطريق .

وفي حوالي الخامسة وصل إلى نزل صغير، هناك حيث الطريق يركض إلى جانب المجاز، في الأعلى، هناك حيث تنهض الذرى كأنها سراب وقد غطتها الأعشاب والتراب الأحمر، إنها جبال منعزلة، حيث لم يصدف أن وُجِدَ إنسان فيها، وفي العمق كان يتدفق التيار سريعاً .

توقفت العربة في الساحة الصغيرة الواقعة أمام النزل، بينما كانت تمر فرقة من الجنود المسلحين، لقد شاهد دروغو وجوه شبان وهي تمر، كانت وجوههم حمراء من جرّاء العرق والتعب، بينما تحدّق عيونهم فيه بدهشة، الضباط وحدهم أدّوا التحية له، ثم تناهى إليه صوت من بين أولئك المبتعدين وهو يقول " هذا العجوز يذهب لكي يرتاح الآن " ولم تتبع ما قيل أية ضحكة، وبينما كانوا يذهبون إلى المعركة كان هو ينحدر صوب السهل الحقير، ربما فكر هؤلاء الجنود قائلين " أي ضابط مثير للسخرية هذا " لكنهم لم يلحظوا على الأقل في وجهه إنه هو الآخر ذهب لكي يموت .

لم يكن قادراً على انتزاع نفسه من هذه الدهشة الغامضة، التي تشبه الهباء، ربما كان هذا بسبب تمايل العربة، وربما كان المرض، ومن الجائز أن يكون السبب ببساطة هو ذلك الألم من جرّاء رؤية الحياة وهي تنتهي بهذا الشكل

البائس، لكنه لم يعد يهتم بذلك أبداً، وبشكل مطلق، كانت فكرة أنه يعود ليدخل مدينته والتطواف بخطوات بطيئة في أرجاء البيت العتيق والمهجور، أو الثواء في سرير لأشهر طويلة مملوءة بالسأم والعزلة، هذا كله يثير الخوف في داخله، إنه ليس متعجلاً للوصول بسرعة، لذا فقد قرر أن يمضي ليلته هذه في النزل .

انتظر حتى مر المحاربون، فقد كان الغبار يتطاير من جرّاء خبط خطواتهم، الدويُّ الذي كانت تحدثه عرباتهم، قد طغى عليه صوت تيار الريح ثم ما لبث أن نزل جوفاني من العربة بتأن وهو يتكأ على كتفي لوكا .

عند عتبة المدخل كان ثمة امرأة منهمكة بشغل الجوارب، وعند قدميها كان ينام طفل، في مهد فلاحي خشن، حدّق دروغو مدهوشاً في هذا النوم الطفلي، إنه هكذا مختلف عما يفعله الرجال الكبار، إنه نوم رقيق وعميق، ذلك أنه لم تكن قد ولدت فيه بعد تلك الأحلام الغامضة، كانت تلك الروح الصغيرة تبحر وهي فارغة البال دون رغبات دون أي تبكيت للضمير، تبحر في هواء صاف و هادئ، توقف دروغو وهو يتأمل بإعجاب هذا الطفل النائم، على حين كان ثمة شعور طاغٍ بالحزن يحرق فؤاده، حاول أن يتخيل نفسه غارقاً في النوم، هكذا دروغو بمفرده ودون أن يتعرف أي مخلوق عليه، يحاول أن يتعرف على جسده المستكين وقد اعتراه ضيق معتم، وتنفس ثقيل، وفمه مغلق ومتهدل، ففي يوم من الأيام كان ينام مثل هذا الطفل، وقد كان يوماً ما لطيفاً وبريئاً، وربما صدف أن مر به في تلك الأثناء ضابط مريض، ومن ثم توقف قليلاً ينظر إليه بدهشةٍ مريرة، قال " دروغو، أيها المسكين " ومن ثم فهم كم كان ضعيفاً، ولكن بعد ذلك كان يكابد الشعور بالوحدة في هذا العالم، ولم يكن هناك من يحبه باستثناء نفسه .

كان دروغو جالساً فوق أريكة كبيرة، في إحدى غرف النوم، كانت ليلة مدهشة، فقد أخذت تشيع رائحة الهواء المعطر وهي تدلف من النافذة، كان دروغو يحدق في السماء التي أخذت تبدو أكثر زرقة، ظلال الوادي البنفسجية، الذرا التي ما زالت تغمرها الشمس، كان الحصن بعيداً، ولم يكن من الممكن رؤية جباله .

ربما كان هذا مساءاً سعيداً بالنسبة للرجال ذوي الحظ البسيط، كان جوفاني يفكر في المدينة آن الغسق، القلق الحلو للفصل الجديد، زُرافات من الشبان والصبايا وهم يسيرون على طول النهر، ومن النوافذ يتصاعد عزف على البيانو، صفير قطار بعيد، كان يتخيل نيران معسكرات الأعداء في وسط سهل الشمال، قناديل الحصن وقد تلاعبت بها الرياح الليلة المملوءة بالروعة والأرق، وذلك قبل قيام المعركة، لكل شيء هدف محدد، وإنْ كان هدفاً ضئيلاً لكن له بعض الآمال على حين تُرك هو وحيداً وخارج كل شيء .

في الدور السفلي، وفي الصالة المشتركة للنزل، كان ثمة رجل، ما لبث أن انضاف إليه رجل آخر، كانا منخرطين في الغناء، كانت أغنية حب شعبية، وفي أقصى السماء، هناك حيث تغدو الزرقة أكثر عمقاً، كان يبرق ضياء نجمة أو نجمتين، كان دروغو في الغرفة وحيداً جندي المراسلات التابع له كان قد توقف ليشرب، في الزوايا وتحت الأثاث كانت قد تكدست أكوام من الظلال المحيرة، بدا دروغو للحظة أنه فقد قدرته على المقاومة (في كل الأحوال لم يكن يراه أحد، ولا أحد في هذا العالم يعرف ما حدث له) كان الميجور دروغو وللحظة يشعر بأن الحمل الثقيل لروحه في سبيله إلى التحطم .

في هذه اللحظة خطرت على باله فكرة جديدة، فكرة رائعة ومروعة، إنه الموت .

بدا لـه أن هروب الزمـان قد توقف، وكأنـه طلسم محطـم، كانـت الدوامـة قد غدت في الفترة الأخيرة أكثر شدة ثم فجأة لا شيء، كان العالم يغرق في لا مبالاة، وعبثاً تـركض الـساعات، لقد انتهـى طريـق دروغـو، هـاهو ذا الآن علـى شـاطئ منعزل لبحر رمادي ومتناغم، لم يكن حولـه بيت ولا شجرة ولا إنسان، كـان كل شيء يوحي بأنه زمان منسي .

ومن أقصى الحدود، كان يشعر بأن ثمة ظلاً متصاعداً ومركزاً قد خيّم عليه، ربمـا كانـت مسألة سـاعات، أو أسـابيع أو شـهور، ولكـن حتـى الـشهور والأسـابيع كانت تبدو شيئاً فقيراً إذا ما فصلتنا عن الموت، إذاً لقد تحولـت الحيـاة إلـى ضـرب من المزاح، كان كل شيء قد ضاع بسبب رهان متغطرس .

في الخارج كانت زرقة السماء قد غدت أكثر كثافة، وفي الغرب يمكن للمرء أن يلمح بصيص ضوء، هنالك فوق المناظر الجانبية للجبال البنفسجية، على حين كانت العتمة قد دلفت إلى داخل الغرفة، أجل هنـاك كـان الـسرير الأبـيض، خنجـر دروغو اللامع، هنالك ـ فهم ـ بأنه لم يعد قادراً على الحراك .

هاهو ذا الآن غارق فـي الـد يجـور، علـى حين مـا تـزال تتـرى الأغنيـات مـن الطابق الأرضي مصحوبة بعزف القيثارة، عندئذ شعر جوفـاني دروغـو بـأن أمـلاً ما قد ينمو في داخله، إنه وحيد في هذا العالم، مريض لقد قذف به خـارج الحصن وكأنه ثقل مزعج، لقد بقي في المؤخرة وهـو الخجـول والـضعيف، لقد تجـرأ علـى تخيـل أن كـل شـيء لـم ينتـه بعـد، بحيـث أنـه وصـل إلـى الفرصـة الكبـرى بحـق، المعركة النهائية التي من الممكن أن تكلفه حياته برمتها .

هاهو ذا الآن العدو الأخيـر وهـو يقتـرب من جوفـانـي دروغـو، لـم يكـن يـشبـه الرجال مثله، وهم فزعون مثلـه مـن جـرّاء رغبـات و آلام، من لحم يمكن إحداث جرح فيه، مع وجوه يمكن التحديق فيهـا، لكنـه كـائن ذو سطوة وشـرير، لـم يكـن هنالك شـيء تمكن مقاتلتـه بين الأسـوار، بـين الـدويِّ والـصراخ المتـصاعد، تحـت

سماء الربيع الزرقاء، بدون أصدقاء إلى جانبه حيث تغدو رؤيتهم وكأنها إعادة إحياء للقلب، بين الطعم الحرّيف للغبار وللبنادق، بلا وعود بفرح ما، كان كل شيء يحدث داخل غرفة في نزل مجهول، على ضوء شمعة، وفي قلب العزلة التي ما تنفك تغدو أكثر عرياً، ليس ثمة قتال قد يفضي إلى وضع أكاليل من الزهور، في صباح مشمس، بين ابتسامات الصبايا، لا أحد ينظر إليه، ولا أحد يقول له أحسنت، إنها معركة أصعب بكثير من تلك التي كان يأمل خوض غمارها ، حتى الرجال العجائز يفضلون عدم تجريب هذا ذلك أن الموت في الهواء الطلق يبدو أجمل في غمرة احتدام المعركة، إذ الجسد مازال شاباً وصحيحاً، بين أصداء أبواق النصر، لكن الموت يغدو محزنا بالتأكيد، إن كان سببه جرح ما، بعد عذاب طويل، في إحدى غرف المشافي، ويغدو أكثر كآبة إذا جاءت النهاية على السرير المألوف وسط شكاية عطوف، أضواء خافتة، زجاجات عقاقير، ولكن أصعب حالات الموت هو عندما يأتينا ونحن في بلد غريب ومجهول، فوق سرير أحد النزل ونحن عجائز وقبيحون، ودون أن يترك المرء أحداً في هذا العالم، تشجع يا دروغو، هذه هي الورقة الأخيرة، اذهب لكي تموت كجندي، حيث ينتهي وجودك المغلوط نهاية حسنة، انتقم من هذه الطريقة ذلك أن أحداً لن يتغنى بأمجادك، لن يناديك أحد بطلاً أو شيئاً من هذا القبيل، وبالضبط من أجل هذا الأمر فإن الآخر يستحق المغامرة اعْبُرْ بقدمٍ ثابتة حدود الظلام، منتصبا كأنك تؤدي عرضاً (عسكرياً)، وابتسمْ إن استطعتَ إلى ذلك سبيلا، ذلك أنه بعد كل هذه المعركة لن يكون الأمر باهظاً، وسيغفر لك الإله .. هذا ما كان جوفاني يقوله لنفسه - إنه نوع من أنواع الصلاة - وهو يشعر بأن دائرة النهاية تزداد ضيقاً حوله، ومن القعر المر للأشياء الثقيلة، من الرغبات المكررة، من العذاب البشع، من هذه الأشياء كلها شعر بإن قوة قد بدت تتحرك في داخله، قوة لم يسبق أن خَبِرها بنفسه، وبفرح لا يمكن التعبير عنه تنبه جوفاني

فجأة إلى أنه مطمئن البال، لكنه في الوقت نفسه قلق من إعادة تكرار التجربة، آه، أليس من الممكن انتظار الحصول على كل شيء من هذه الحياة ؟ هكذا إذا يا سيموني ؟ الآن سوف يريك دروغو ما لم تره عيناك قط، تشجع يا دروغو، كان يجاهد في بذل قصارى جهده، محاولاً أن يظل قاسياً، أن يمازج الأفكار المرعبة، لقد وضع روحه كلها في ميزان يائس، وكأ نه يقفز ليواجه وحيدا قوة مدججة بالسلاح، وعلى الفور تهاوت المخاوف القديمة، ارتخت الكوابيس ومن ثم تقمص الموت وجهاً متجمداً وهو يتحول إلى شيء بسيط ومنسجم مع روح الطبيعة، هكذا هو الميجور جوفاني دروغو، وقد استنفده المرض والسنون، رجل مسكين يجاهد في سبيل بلوغ البوابة السوداء : ويتنبه عندئذ إلى أن قارعي البوابة سوف يتساقطون ما إن يخطو النور خطوة واحدة .

لقد بدا له ذلك الضيق الذي يشعر به فوق أسوار الحصن كأنه شي ء فقير جداً، مراقبة سهل الشمال الفارغ في العزلة من عبء الوظيفة سنيّ الإنتظار الطويلة، ولم يكن يشعر بأي رغبة في حسد أنغوستينا أجل، انغوسيتينا الذي مات فوق ذرا أحد الجبال وفي قلب العاصفة، لقد دفع الثمن عن حسابه هو : حقاً بأناقة شديدة، ولكن كانت نهاية الشجعان   كما في مثل ظروف دروغو هذه، فقد نُفِيَ إلى حيث يسكن أناس مجهولون هذه النهاية كانت جد فسيحة الأرجاء، ولكن كان يؤلمه جدا أن يذهب إلى (الموت) وهو حامل لهذا الجسد البائس، العظام الناتئة، الجلد الأبيض والمترهل، فكّر دروغو في سره، لقد مات أنغوستينا دون أن يمس، وقد ظل محتفظاً بصورته ـ على الرغم من مرور هذه السنين كلها ـ صورة ذلك الشاب الطويل، والرهيف، وجهه نبيل تستمرؤه النساء هذا ما تميز به، ولكن من يدري ؟ فما إن يتم اجتياز العتبة السوداء حتى يقدر دروغو على العودة إلى ما كان عليه في غابرالأيام ، ليس جميلاً (ذلك انه لم يكن أبداً جميلاً) وإنما طافحاً بالشباب والحيوية، أيّةُ فرحةٍ تلك، كان دروغو يحادث نفسه،وكأنه طفل، إنه لم

يشعر بأية غرابة في حريته وسعادته، ثم ما لبث أن خطر له خاطر، ماذا لو كان هذا مجرد خداع ؟ ماذا لو كانت شجاعته كلها عبارة عن حالة من الثمالة ؟ هل كان هذا كله يعتمد على الغروب الرائع، على الهواء المعطر، على الراحة من الآلام الجسدية، على أنغام البيانو المتصاعدة من الطابق السفلي ؟ ثم بعد دقائق أو ساعة سوف يعود كما كان دروغو ذلك الضعيف والمهزوم ؟

لا، لا تفكّر يا دروغو، الآن يكفيك اضطراباً لقد مر الكثير وأُنْجِزَ الكثير، وإن تَأوبتْكَ الآلام، حتى ولو اختنقت الموسيقى الجنائزية، وبدلاً من هذه الليلة الرائعة سيخيم ضباب نتن، لقد دفع الحساب نفسه وقد تم كل شيء ولم يعودوا قادرين على خداعك، كانت الغرفة مملوءة بالظلام وبصعوبة مطلقة كان يمكن تمييز ابيضاض السرير، أما الباقي فكان أسود فاحماً، ربما صعد القمر بعد هنيهة هل سيقدر دروغو على رؤيته في الوقت المناسب أم سيرحل قبل ذلك ؟ كان باب الغرفة يرتجف مصدراً صريراً خفيفاً، ربما كان هذا بفعل فحيح الريح، دوّامة هواء بسيطة في ليالي الربيع الجزعة .

ربما كانت هي التي دخلت الآن، بخطوات صامتة، الآن هاهي ذي تقترب من أريكة دروغو، هاهو جوفاني في سبيل تعديل نصفه العلوي يرتب بيده ياقة بزته النظامية، ألقى من خلال النافذة نظرة، كانت نظرة مقتضبة جداً نحو نجمته الأخيرة، ثم وفي قلب العتمة، حيث لم يكن ليراه أحد، جعل يبتسم .

تمت

إن فكرة الرواية، كما يؤكد بوتزاتي نفسه في حوار صحفي معه ولدت من خلال تلك الحياة الليلة الرتيبية التي كان يعيشها عندما كان محرراً في جريدة ـ كوريّرا دي لاسيرا ـ يقول : إنه في أحيان كثيرة راودتني بأن ذلك " تران، تران " ما ينفك يتقدم دون أن نجد نهاية له، لقد استهلك حياتي، لكنه شعور عام حسبما أعتقد، إن أغلبية الناس وبخاصة أولئك المنخرطون في أعمال رتيبة في المدينة فهم يقضون الشطر الأعظم من حياتهم في ممارستها، لكن فكرة تحويل ذلك إلى عالم عسكري كانت غريزية .

تحكي صحراء التتار قصة جوفاني دروغو الذي غادر منزله في صباح يوم من أيام أيلول، غادر المدينة للالتحاق بحصن باستياني حيث يقضي هنا الشطر الأعظم من حياته، كانت رحلة إلى خارج العالم المسكون إلى الحدود الفانية للعالم، في مبنى عسكري يبدو قديماً ومتصحراً .

يقضي جوفاني دروغو ثلاثين سنة وهو يتحمل ألم الحصون الصغيرة والمحارس، والمباني العسكرية، وهو ينتظر مع الآخرين أن يحدث شيء ما من جهة الصحراء التي يطل الحصن عليها، ولكن هذا لا يحدث إلاّ عندما تكون حياته قد وصلت إلى نهايتها، لذا فإنه يعود إلى المدينة وقبل أن يصل يقرر قضاء ليلته في لوكاندا صغيرة، بائسة ومجهولة، وهناك تنتهي حياته، إن القصة

هنا ترتدي زِيَّاً مجازياً، وهي تكاد تمس كل النـاس المنخـرطين فـي أعمالهم المختلفة إنها تعالج المعنى الأخير لأيِّ عمل، أو لأيِّ وجود .